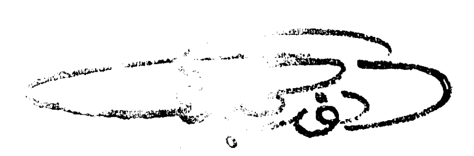
الحياه العالية

بقلم «عطار»



القاهرة
١٩٥٦

دار الأعلام للطبع والنشر
٢ شارع عزى بالجيزة

الجبـاه العـالية

وأعلام على طريقة المقابلة

هذا كتاب جديد من « تراجم الأعلام » يضم دراسـات قصيرة لمجموعة منوعة من أصحاب « الجباه العالية » فى ميدان الفـكر والسياسة والفن من الشرق والغرب من بينها بضعة عشرة شخصية من مصر . وهى فى مجموعها تعطى صورة للرجل العظيم العلم فى صراعه مع الأحداث وصناعته للتاريخ وبنـائه للعمل الـكبير الضخم الذى خلد اسمه وفتح له باب المجد .

وهذا هو كتابى الثالث عن الأعلام . وكان كتابى الأولين عن أعلام الإسلام ، وقد تجمعت لى هذه الصور من قراءاتى المتصلة فى التاريخ والأدب العربى والغربى خلال عشرة أعوام إذ كنت ولا أزال كلفاً بدراسة الأعلام وتراجم أصحاب الجباه العـالية الذين يبهرون النفس بالبطولة والعظمة وقوة العـارضة .

ولست أضيق بأن أجد نماذجى فى كل مكان فى القديم والجديد والشرق والغرب ، فالتاريخ كله ملك للانسانية . والعلم المـــاجد نستطيع أن نلقاه فى كل وطن وعصر .

وإنى لأحب أن أعرض هذه الشخصيات فى صور موجزة ولمحات سريعة أبرز ما فيها معالم النفس ومراحل الحياة . عارضاً للحادث الضخم الـكبير الذى تحولت به حياة كل منهم من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال ..

وقد كان كل علم من أعلام هذه الطاقة بعيد الأثر فى زمنه ووطنه . ومنهم الـكثير من الأحرار الذين وقفوا فى وجه الظلم والاستبداد والطغيان ومنهم رجال كانوا مغبونين فى بلادنا وتاريخنا إلى وقت قريب .

فلطالما كانت أسماء عرابى ونديم والكواكبى يغيضه إلى الطغاة لايحبونها ولا يودون أن تنشر فى الصحف أو تذاع بطولتها فى النـــاس ، وقد وقف الاستبداد طويلا فى وجه تحرير تاريخ عرابى وعمر مكرم ومحمد كريم ، فقد كانوا خصوما لمحمد على .

وكانت أقلام الكواكبى وشاويش ونديم وأمين الرافعى ناراً على الظالمين ونوراً للمجـــاهدين . والجبرتى من ذا الذى ينسى أنه أول من سجل مظالم محمد على وكان القتل من نصيب ابنه فمات حزناً عليه .

وفى غير مصر كان غاندى وسافونارولا ولوثر وتولستوى من الأقطاب الكبار الذين هزوا الحياة فأخرجوها من جمودها وتهافتها وركودها وردوها إلى القوة والتجديد والحركة .

* * *

وفى القسم الثانى من الكتاب عرضنـــا تسعة عشر حلقة لشخصيات من أعلام الفكر والوطنية على طريقة المقابلة اخترناهم ممن يتفاولون فى الأسلوب أو الاتجاه أو نوع الإصلاح وصورنا وجوه التلاقى والخلاف بينهم ، وهو أسلوب من أساليب كتابة التراجم يلقى أضواءاً أشد وضوحا على شخصيات المتقـابلين .

والكتاب فى مجموعه يعطى صورة للبطولة والعظمة فى صور متعددة ، وفى مقابلات مختلفة وقد كنت أود أن أضم لهذا السفر فصولا أخرى عن أعلام حفروا أسمـائهم بقوة فى تاريخ مصر والشرق ، لولا أنى لا زلت أحاول البحث فى أعماق حياتهم لأرسم الصورة الكاملة لهم ، فلا تكون سطحية أشـــبه بالتراجم التقليدية . وإنى لأرجو أن أقدم سفراً آخر من هذا اللون فى وقت قريب.

ويهمنى أن أذكر أن الصور الموجزة القصيرة التى أنشرها فى الجمهورية بامضاء « عطارد » تحت عنو ن جولات ، هى جزءمن هذا الإتجاه . يرمىإلى التعريف بالأعلام فى خطوط عامة وسطور قليلة ، وعندى أننا أحوج ما نكون إلى أن نعرف مائة شخصية على هذا الأسلوب السريع من أن نعرف شخصية واحدة على طريقة الإسهاب . وإننى بسبيل إعدادهذه الصور القصيرة لأجعل منها كتابا ضخماً أطلق عليه « الأعلام الألف » ، وحسبى أن أنفق ثلاث سنوات أخرى لإتمام هذا العمل إذا تيسر لجولات أن تنشر كل يوم .

وبذلك أكون قد حققت فى ميدان التراجم عملا لعله يرضى المثقفين الذين يحبون اللمحات الموجزة التى تكتب فى سطور لتكون خلاصة المؤلفات والفصول الطويلة .

ويضم هذا الكتاب ٢٨ شخصية منها ١٤ شخصية مصرية و ٦ شخصيات من الشرق و ٣ من الغرب و ٣ من أعلام الفكر العربى وواحدة من تراجم الطغاة ، وقد جاءت كلها عن شخصيات فارقت دنيانا حتى لا نصطدم بالقاعده التاريخية التى تقول بأن الكتابة عن الأحياء لا تعطى الحكم الصادق . أما فى ميدان المقالة فقد أبحنا لأنفسنا التحلل من هذا القيد .

شارع الهرم فى مساء ١٦ مارس ١٩٥٦ . أنور الجندى

مؤلفات صدرت

لأنور الجندى

	صدر عام		صدر عام
الجباه العاليه	١٩٥٦	جمال عبد الناصر والثورة	١٩٥٥
أضواء على حياة الأدباء المعاصرين	١٩٥٥	الرسول الإنسان	١٩٥٥
أعلام الإسلام	١٩٥٤	فضائح الأحزاب السياسية	١٩٥٣
الإمام المراغى	١٩٥٢	عطارد « جزآن »	١٩٥٢
قصه محمود تيمور	١٩٥١	الصراع بين الإسلام والاستعمار	١٩٤٨
شمائل الرسول	١٩٤٨	أخرجوا من بلادنا « ٥ أجزاء »	١٩٤٧
قضايا الأقطار الإسلامية	١٩٤٧	الشخصية الإسلامية فى الميزان	١٩٤٤
عرائس البكارى	١٩٤٢		

مؤلفات تصدر قريبا

جمال عبد الناصر والكفاح الشعبى « كتاب النيل »

وراء كل فنان امرأة « كتب للجميع »

أضواء على الحياة

يوميات عطارد

نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر

اضواء على تاريخ الإسلام

بلا أمل « قصه »

نحن ...

تراجم مصرية

الكواكبي
عمر مكرم
محمد كريم
الجبرتي
عرابي
عبد الله نديم
محمد فريد
أمين الرافعي
عبد العزيز جاويش
عبد الرحمن فهمي
سيد درويش
طلعت حرب
مختار

تراجم الاعلام

الكواكبي

يونيه ١٩٠٢

* . . . الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، أكثر هولا من الحريق ، أعظم تخريباً من السيل ، أذل للنفوس من السؤال ، داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء ، والأرض تناجى ربها بكشف البلاء . وكيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد ، وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغبياء ، وأسعدهم بحياة الجهلاء والفقراء ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأصحاء .

* من طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاره عملا ، فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون ، ويستدرجهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها . أما الفقراء فيخـــافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب .

* الاستبداد يقلب الحقائق فى الأذهان ، حتى أنه مكن بعض العباقرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم . وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم . والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المنظم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الاستبداد فى تسمية النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواً ، والحمية جنونا ، والإنسانية حماقة والرحمة مرضا ، كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دماثة .

* إن العقل والتاريخ والعيان كلها تشهد بأن المعين الأول للمستبد هو اللئيم الأعظم من الأمة . ثم من دونه يكون دونه لؤما . وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريفات .

* إن الحكومة المستبدة تكون بطبيعة الحال مستبدة فى كل فروعها من المستبد الاعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع .

* إذا كان كبار الأمة قد ألفوا النفاق والرياء مرضاة للمستبد فعامة الناس سيألفونها أيضا حتى يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل وإماتة النفس . حتى يصبح من القيم المعترف بها ، اعتبار التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، وترك الحقوق سماحة . وقبول الإهانة تواضعا ، والرضا بالظلم طاعة ، والإقدام تهوساً ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر كفرا ، وحب الوطن جنونا .

* لطالما يرى المستبد نفسه فى خلواته إن كان إنساناً فصار إلها ، ولكنه يرجع فيرى نفسه فى حقيقة الأمر ، أعجز من كل عاجز ، وأنه لم ينل ما ناله إلا باعانة من حوله من المتحيزين ، وما سلطانه على رقاب الأنام إلا سحرهم وخياناتهم لدينهم ووجدانهم ووطنهم وإخوانهم .

* الواقع أن الحكام وبطانتهم من العلماء المضلين قد أفسدوا الأديان ، واستخدموها لتحقيق مطامعهم وأهوائهم ، ولقد انتهز رجال الدين ما تتهدد به التعاليم الدينية العاصين من عذاب فى الآخرة فأرادوا أن يثيروا من هذا الطريق ، فتحوا أبواباً للنجاة من العذاب الإلهى وأقاموا من أنفسهم حجاباً عليهم . وهكذا يمسخ الأديان ذوو المطامع ، ويلبسونها ثياباً غير ثيابها ، ويخلع رجال الدين على أنفسهم حلل التقديس والتبجيل ، يدعون العصمة ، والسذج والعوام يهللون لهم ويكبرون » . « من كتاب طبائع الاستبداد للكواكبى »

* * *

بعض أقطاب الفكر قد لا يكون فى حياتهم إلا حادث واحد . ومع ذلك فان تاريخهم يبقى مثلا على العظمة والقوة والخلود . من هؤلاء عبد الرحمن الكواكبى ، الرجل الذى أحب الحرية وكره الاستبداد وحاربه بقلبه ، فظل يهدم هذه الصخرة التى كانت تتمثل فى صوره الطاغيه عبدالحميد . ولم تلبث أثار هذا الرجل أن أصبحت حجر الزاوية فى تحطيم هذا الاستبداد . ولم يلبث عبد الحميد أن أزيل بعد وفاة الكواكبى بسنوات قليلة .

كان كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » هو إنجيل الثورة على السلطان عبد الحميد وطغيانه ، والبذور الأولى التى ملأت صدور الأحرار ، فدفعتهم إلى تأريث الخصومة ضد الاستبدادوالطغيان . وكانت كتاباته هى زاد الجماعات السرية التى عملت فى مختلف البلاد العثمانية للتخلص من عبد الحميد .

وكذلك كان عبد الرحمن الكواكبى بعد جمال الدين الأفغانى حلقة من حلقات هذا العقد من الكتاب الأحرار المدافعين عن الحق والذين اضطهدوا من أجل الحرية .

ومن هذه العبارات التى اقتطفناها من كتابه ، نجد صورته واضحة ، فقد كانت نفس الكواكبى مطابقة لقوله . وطبيعتهواضحة مجلوة ، وحياتهصورة من معتقداته ، يصفه الشيخ كامل الغزى بأنه كان يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخورا فى الطبع . وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ولايرى شيئاً يطفىء نار غضبه أفضل من قهرهم وإذلالهم » .

وعاش كذلك حياته ، ما أن يرى ظلال الظلم والاستبداد تحيط به حتى يمضى ، ضاق بالعمل الحكومى . لأنه أحس بأن الدولة تريد أن تشترى قلبه . وانتهى به الرأى بأن العمل الحكومى قيد يتنافى مع خلقهوطابع روحه الذى يميل إلى الحرية .

لقد حاول أن يحقق ما يؤمن به من إصلاح فى كل عمل تولاه . وما أكثر ما ولى من أعمال ، ولكنه أحس أخيراً بالعجز . كان يصطدم بالجامدين ، ويرتطم بالذين يحبون الظلام ويؤمنون بالرجعية .

وانقلب الأمر إلى خصومة عاتية بينه وبين رجال الدولة ، وبدأ الولاة يعادونه عداء صريحا ويتهمونه بمختلف التهم .

وترك الوظيفة إلى الصحافة فأنشأ « الشهباء » ومضى يكتب وينقد ويوجه ولكن أنى له أن يصل إلى ما يريد و « عبد الحميد » يملك مقاليد الأمور فى البلاد .. لقد عطلت صحيفته . فما كاد ينشىء غيرها حتى أغلقت هى الأخرى.

ولم يكن بد من قصف هذا القلم وتعذيب هذه النفس ، الحرة ، فزج به فى السجن بعد أن لفقت له تهم باطلة ، من عمل الوشاة والجواسيس ، وحكم عليه بالإعدام . وقد تقبل الحكم فى إيمان وطلب إعادة محاكمته فى غير حلب فنقلت القضية إلى دائرة بيروت التى تبين لها زيف التهمة وتأكد للقضاة أنها نتيجة عداوة بينه وبين الوالى فبرأت ساحته .

وهنا حق له أن يهاجر ، فلم يعد يحتمل الإقامة فى وطنه بين هذه الدسائس والاتهامات ، ولم يجد إلا مصر ، موئلا رحباً لاستقبال أحرار الفكر الذين كانوا يلاقون الاضطهاد فى كل مكان ، وفتحت صحف المؤيد وغيرها صدرها لفصول كتابه طبائع الاستبداد ، وأم القرى ، وقد أجرى طبعهما فى مصر سنة ١٨٩٩ وأصدرت الدولة العثمانية أمراً بمنع تداولهما فى البلاد العثمانية.

* **

ولم يلبث الكواكبى أن قام برحلة فى مختلف البلاد العربية وأفريقيا . وطاف بارجاء العالم الإسلامى وتوغل فى أواسط جزيرة العرب ، حيث قطع صحراء الدهناء فى اليمن ، وزار شرق أفريقيا والهند وطاف بزنجبار والحبشة وأكثر « شطوط » آسيا .

ولم يعمر الكواكبي طويلا ، إذ مات فى الخمسين من عمره . وله مؤلفات متعددة قد اندثرت ، منها كتابه « صحائف قريش » الذى كان يعتز به .

ولكن هل مات الكواكبي موتاً طبيعياً ؟ إن بعض مؤرخيه يقولون أن يداً آثمة قد امتدت إليه ، لهذه اليد صلة بقصر يلدز أو بأبى الهدى الصيادى فقد كان معروفا أن كتاب « طبائع الاستبداد » يصور طغيان السلطان عبد الحميد ، وإن لم يرد به ذكر اسمه صراحة .

ومايروى فى هذا الصدد أنه دعى من الخديو عباس للغداء عنده فى الاسكندرية فسافر إليها وعاد فى نفس اليوم بعد أن حضر هذه الضيافة ، وأحس فى نفس الليلة بألم شديد فى خاصرته اليسرى ، فلم يلبث به فى الصباح إلا وقد انتهى أجله.

وهو نفس المصير الذى لقيه جمال الدين الأفغانى وكثير من الأحرار فى خلال العهود الاستبدادية المظلمة التى عاشها الشرق فى الماضى . ولكن وهج أفكاره وقوة بيانه ما تزال حتى الآن أناشيد الثورات ووقود حركات الإصلاح ومزامير الحرية والقوة والحق .

عمر مكرم

« إن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وهذا الحاكم الذى ارسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد فى الأزمنة القديمة . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » .

عبارات عمر مكرم هذه . ترسم تاريخ حياته كله ، وتصور عقليته وفلسفته فى فهم نظام الحكم ، وتدل على مدى نضجه السياسى فى هذا الوقت المبكر فى أول القرن التاسع عشر .

كان زعيما شعبياً بكل ما فى الكلمة من معنى ، ذلك الإيمان والإخلاص والتضحية ، وهذه الثقة التى يفزع الناس إليه من أجلها كلما ادلهم الخطب أو تحوطتهم الأحداث . وهو الذى قادهم فى ثورة القاهرة وظل يناوىء الفرنسيين ويشن عليهم الغارة بعد الغارة حتى دمر فى نفوسهم كل معنى من معانى البقاء .

وهو الذى قاد ثورة الشعب ضد الوالى التركى خورشيد وعزله وولى محمد على بدلا منه ، ثم هو الذى قاوم محمد على عندما طغى واستبد ، وظل له بالمرصاد حتى نفى . فلما أعيد ، عاد سيرته الأولى فى نضاله له حتى نفاه المرة الثانية التى انتهى أجله فيها .

* * *

ظهر عمر مكرم فى أوانه وفى إبانه ، ظهر فى الوقت التى كانت تتطلع فيه البلاد إلى رجل يرد طغيان المماليك الذى استفحل وزاد .

ولأول مرة يتقدم إلى الزعامة الأساسية رجل الفقه والشرع والعلم . تقدم ليعيد للناس حقهم فى انتخاب حاكمهم ، بأن يختاروا لأنفسهم أصلح الناس للولاية عليهم .

ولكن أمام ذلك أهوال ، وقبل كل ذلك شيء يحسب حسابه ، هو إخراج الفرنسيين الذين أفسدوا المتصدرين للأمور من ولاة وعلماء ، هؤلاء الذين يلوذون بالمستعمر ويلتمسون رضاه . أما عمر مكرم فلم يكن من هذا الطراز ، كان فيه تلك العزيمة والإصرار الذى عرف عن علماء الصدر الأول . ولذلك ظل طوال حكم الفرنسيين معتزلا ، وإن لم يسلم من حملات العلماء أو اتهاماتهم . ولكن إيمانه بحق مصر فى الحرية ، وفهمه للاسلام كما كان فى عصره الأول ، لم يلبثا أن دفعاه إلى مقاومة الظلم والجهاد سبيل تحرير البلاد .

وفى ذات يوم رأى الناس رجلا قد حمل البيرق الكبير الذى كان فوق القلعة ونشره وسار من القلعة إلى بولاق . وقد اجتمع إليه الناس يحثهم إلى الجهاد فى حرارة وحماسة .

وكانت هذه أول شرارة فى مقاومة الفرنسيين .

ولم يغفل عمر فى نفس الوقت عن طغيان المماليك ، وتسلطهم وظلمهم للناس واستيلائهم على أجود الأرض . وأكرم الخيل وأحسن الجوارى .

وكان الناس الذين يقاسون ويلات الفرنسيين والمماليك والأتراك قد عقدوا له لواء الزعامة ، ووضعوا آمالهم فيه .

ولا شك أن هزيمة الفرنسيين وجلاءهم يرجع إلى عوامل كثيرة من أهمها هذه اليقظة الشعبية الجديدة التى أثارها عمر مكرم فى نفوس المصريين

وليس شيئا أبعد أثراً فى تمكين شخصية عمر مكرم من ضمير الشعب من هجرته إلى سوريا حينما هزم ، ودعى ليفاوض فى تسليم البلاد ، فقد رفض

ذلك ، وهاجر ، وهو يعلم أنه قد لا يعود ، أو أن ثروته ستتبدد . . ولكن ذلك لم يثنه عن عزيمته فى أن لا يضع يده فى يد خصوم الوطن ولا يسلم لهم بما يريدون .

وعندما أقلعت الحملة الفرنسية ، توجه الناس جميعا إلى عمر مكرم على أنه منقذ البلاد والإسم الوحيد التى بين العلماء الذين لم يلوثه الخضوع للصارى عسكر .

وتقدم عمر مكرم ليرد للشعب حقه فى أن يحكم نفسه بنفسه .

وثار المصريون على الوالى التركى . وصمدوا لمقاومته ، وعلى رأسهم عمر ، وحمل الشعب العصى والهراوى والبنادق والسيوف والخناجر ، وقصدوا إلى القلعة حيث اعتصم خورشيد وحاصروها ، وأمضوا فى هذا الحصار أياما ، ولم تستطع أى وسائل الإغراء أن تخدعهم . وأعلن عمر مكرم عزل الوالى عن الولاية باسم الشعب .

ولكن خورشيد المحصور قال كلمته المعروفة « لقد ولانى السلطان ولن يعزلنى الفلاحون » .

وهنا قال عمر مكرم كلمته الخالدة التى قدمنا بها لهذا الفصل .

ولم يستطع خورشيد أن يقف أمام أحرار الشعب وإجماعه وقراره الحاسم !

* * *

ولكن عمر مكرم ، وكان زعيم الشعب ، لم يقدم نفسه للولاية ، واختار محمد على ظنا منه أن يترك له الحكم السياسى ويحتفظ هو بمكانه الشعبى . وبذلك يستطيع أن يحقق للناس مطالبهم ورغائبهم ويحنو على آلامهم وآمالهم .

ولكن محمد على غدر به ، فقد استطاع أن يكسب العلماء إلى صفه بالخداع والإغراء وأن يقصى عمر مكرم عن محيط الحوادث ، وأن يتخلص من سلطانه الشعبى .

كان السيد عمر مكرم موضع حب الشعب وتقديره ، ولكن سرعان ما أحس محمد على بخطر هذه الزعامة الشعبية على مكانه ، أضف إلى ذلك أن العلماء أحسوا بتضخم مكانة عمر قد حقدوا عليه وأوغروا صدر محمد على عليه ، واستطاع محمد على باجتماع هؤلاء العلماء حوله وتهافتهم أن يضرب عمر مكرم ضربته التي ترجعه منه . وقد بدأت هذه المرحلة على صورة من الجفوة امتدت عامين قضى خلالها محمد على على الثائرين والمماليك.

ولما زاد محمد على الضرائب ضج الناس بالشكوى ولم يجدوا سبيلا يلجأون إليه إلا ذلك الذى وضعوا فيه ثقتهم وأولوه زعامتهم . ولكن عمر خشى أن يكون هذا الأمر سببا فى بلوغ الخصومة بينه وبين محمد على مداها ، وجمع عمر العلماء وعرض عليهم الأمر وطلب إليهم أن يطلبوا إلى محمد على أن يعدل عن موقفه إذ لا حق له فى تغيير نظام الضرائب . وأصر على أنه ان يفاوض ويبدو أن الموقف قد تحول بعد ذلك إلى حد أن هدد عمر مكرم بأن يدافع عن حقوق الشعب بالقوة لرد هذه الحقوق وحمايتها .

وحاول محمد على أن يغوى عمر مكرم بالمال ، فى سبيل أن يتنازل عن قراره ولكن عمر أصر على خطته ، وانتهز العلماء فرصة الجفوة فاستغلوها ، ولم تستطع قوة أن تحول عمر مكرم عن موقفه حتى أنه عندما رغب إليه محمد على أن يقابله فى القلعة رفض وطلب إليه أن ينزل إلى بيت السادات فيقابله على حد سواء .

ورفض عمر أن يوقع مع العلماء على تقارير مرفوعة إلى الدولة العثمانية عن سياسته فى جباية الأموال ووجوه صرفها .

وهنا عمد محمد على إلى عزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف ، ونفاه من القاهرة إلى دمياط . وكان ذلك بعد أربع سنوات من حكمه .

واستقبل عمر الأمر راضيا ، وأقام في منفاه كريما صابراً ، وأمضى هناك تسع سنوات ، لا يباح له الاختلاط بالناس . فلما عاد إلى القاهرة تلقاه الناس بالتحية والترحيب .

ومرة أخرى حاول الناس أن يعودوا إليه فى أمر الضرائب الجديدة ، وسرعان ما أخرجه محمد على مرة أخرى منفياً إلى طنطا ، وكان فى السبعين من عمره ، وقد توفى فى نفس العام .

توفى وقد ترك من ورائه صورة واضحة لخلق الزعيم الذى آمن بالشعب وعاش له ، ولم يعش لنفسه لحظة واحدة .

محمد كريم

« فلما كان قريب الظهر ، وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدد من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة . ويتقدمهم طبل يضربون عليه ، وشقوا به حتى الصليبه إلى أن ذهبوا به إلى الرميلة . وكتفوه وربطوه مشبوحاً ، ثم أطلقوا عليه البنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ، ورفعوه على نبوت ، وطافوا به بجهات الرميلة والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيين » » .

هذه عبـــارة الجبرتى فى قتل الشهيد الذى ظل دمه يؤجج فى النفوس ، نفوس المصريين ، نار الحقد والخصومة على نابليون وحملته حتى استطاع أن يستأصلها ويهزمها ، محمد كريم ، شهيد الاحتلال الفرنسى ، هو الرجل الذى استطاع أن يصمد إلى اللحظة الأخيرة فى وجه الخطر الذى يحمل معه قوة السلاح ووسائل الإغراء ، ويظل [illegible] منذ قدمت الحملة فى سنة ١٧٨٨ إلى أن استشهد فى سبتمبر ١٧٩٨ مكافحاً لا يعرف الهدوء ولا الأمن ولا الراحة يقدم ماله وجهده فى سبيل إقلاق هؤلاء المحتلين . وتنغيص حياتهم ، وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها .

كان محمد كريم هو الرجل الأول الذى التقى بالأسطول الفرنسى عند وصوله إلى الاسكندرية . ولم يضيع الرجل لحظة واحدة . فقد بدأ يعمل مع الصيادين والعمال فوق حصون الاسكندرية ليرد الفرنجة عن حمى الوطن .

وظل يتلقى كريم ورجاله نيران المدافع الموجهة إلى صدورهم دون أن يتزحزحوا ، ولكن أنى للبنادق والسيوف والحراب القديمة البالية وشظايا

الأحجار فى مقاومة أسلحة نابليون الحديثة التى استطاعت أن تدك القلاع والأسوار .

ولكن محمد كريم لم يستسلم ، فبدأ معركة اخرى فى مداخل الاسكندرية لمقـــاومة قوات نابليون ، وأصيب كليبر ومينو ، ولكنه استطاع أن يهزم الثائرين وحمل إليه محمد كريم ، وحاول نابليون إغرائه وكسبه إلى صفه ، بأن أطلق سراحه . ورد إليه سيفه . ودعاه إلى أن يكون نصيراً له .

ولكن أنى لمحمد كريم ، أن يخون وطنه ، لقد عاش أيامه يغذى حركة المقاومة بكل قوة ، بالأسلحة والمال ، هناك فى الصحراء بعيداً عن العيون ، كان كريم يعمل ، دائبا لا يتوقف فى سبيل إعداد المجاهدين وتقديمهم إلى صفوف الجهاد .

ولم يقف الجهاد عند هذا الحد ، بل تزعم محمد كريم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السلبية عندما عول كليبر على احتلال دمنهور إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل ، وقرب الماء ، ولم يجد الفرنسيون رجلا واحدا يعاونهم أو يقدم لهم شيئا . ولم يكن من نصيب الحملة إلا الهزيمة والعودة من منتصف الطريق .

لم ينم محمد كريم لحظة منذ احتل الفرنسيون مدينته المحبوبة الاسكندرية ، ولم ينم عنه الفرنسيون الذين عرفوه فى كل خطوة ووراء كل حركة ، الرجل الذى رفض أن يسلمهم المدينة دون دفاع والذى دافع عنها حتى نفذ آخر سهم فى كنانته .

وظل كريم يخطب فى الناس ويثير الأهلين وينظم من عربان البحيرة فرقا للمقاومة ، كانت تغير على فرق الجيش الفرنسى وتنال منها ، وتلحق بها الخسائر

. . .

كان محمد كريم من الرجال العصاميين الذين كونوا أنفسهم ، بدأ حياته

قبانيا يزن البضائع فى الأسواق . واستطاع بأمانته وخلقه أن يصبح فى وقت قصير من كبار الأغنياء وأن يصبح حاكم الاسكندرية وإليه مقاليد شئونها ، فأحسن تصريفها ، وحسن اتصاله بالأشراف والأجانب .

ولم ينكص محمد كريم على عقبه ، ومن مثله وفى غناه كان يستطيع أن يكسب ود المتسلطين الجدد ليحتفظ بمنصبه ومكانه وماله وجاهه . ولكن كريم رفض ذلك كله ، وآمن بوطنه ، وقدم ماله كله فى سبيل مقاومة المستعمرين . وظل يشد أزر المجاهدين ويملأ قلوبهم بالحماسة ويمدهم بالأسلحة والمال حتى ضاق به الفرنسيون وظنوا أنهم يستطيعون به تحطيم الحركة ، والحصول على ماله . فقبضوا عليه وأودعوه السجن ثم نقلوه إلى القاهرة .

وبعد محاكمة صورية أصدروا عليه الحكم بالإعدام إلا إذا افتدى نفسه بثلاثين ألف ريال . ورفض كريم المساومة وقال : إننى أضحى بنفسى فى سبيل وطنى .

وفى سجنه جرت الرسل بينه وبين نابليون يحاولون إغرائه بدفع الفدية ويطمعون فى أن يعرفوا منه مكان أمواله . ولكن شيئاً من ذلك لم يرد الرجل عن إيمانه بربه « إذا كان مقدراً لى أن أموت فلن يعصمنى من الموت أن أفتدى نفسى بالمال . وإذا كان مقدراً لى أن أعيش فلن أدفع المال لأعداء بلادى » .

ولم ينقطع عنه فى سجنه أصوات أنصاره وأعوانه ، فقد كانوا يحيطون به لا يبرحون . كان الشعب كله من وراء محمد كريم . وحاول الشعب أن يجمع المبلغ الضخم . ولكن الفرنسيين أصروا على أن لا تزيد المهلة عن اثنتى عشر ساعة ..

وانقضت المدة ، ولم يكن هناك مفر من أن يقتل محمد كريم على الصورة التى رسمها الجبرتى فى أول هذا الفصل .

ومات كريم شهيداً دون أن يظفر منه الفرنسيون بما كانوا يطمعون ، يوم ردوا إليه سيفه ودرقته . فقد ظل خصما عنيداً لهم ما عاش . لم يخن بلاده ولم يتوقف لحظة عن الكفاح ، وجعل حياته وماله فداء وطنه .

وهو لم يكن مضطراً لذلك . وكان فى مقدوره أن يعيش . وأن يستظل بالعهد الجديد ويمضى معه ، ولكنه كان كبير القلب . لم يعبأ بأسرته ولا حياته وقدمها كلها فداء للحرية التى كانت تملأ قلبه من جميع أقطاره .

ولم يضع دم محمد كريم هدراً ، فقد كان النار المشتعلة التى ظلت تقلق الفرنسيين ما أقاموا إلى أن رحلوا . .

فى حياة « الجبرتى » رجل وحادث . أما الرجل فهو السيد مرتضى الزبيدى الذى كان سبباً مباشراً فى اتجاهه إلى تدوين التاريخ . أما الحادث فهو قتل ابنه « خليل » انتقاما منه ونكاية بتحريض من حاشية « محمد على » لأن رأى الجبرتى كان سيئا فى عهده وأعماله .

أشعل الرجل فى حياة الجبرتى الضياء الذى كتب اسمه بين عداد المؤرخين وحطم الحادث نفس الرجل وهو فى سن السبعين . وذهب بصره وطوى أوراقه وطعم أقلامه .

ولا شك أن عبد الرحمن الجبرتى مات محتسبا مجاهداً وكبا المجاهدين . فقد تره قلبه عن أن يقول غير ما يرى وما يؤمن به . ولم يقبل فى خلال حياته الطويلة أن يكون حاشية لأمير أو وال . فقد كان ثرياً ميسوراً . وكان غنى النفس زاهدا فى مطامع الدنيا . موفور الكرامة .

ولم يبال فى سبيل صدقه وصراحته أن يحفظ عليـــه الولاة أو يجلب العداوات . وليس يمكن أن يوصف الجبرتى على ضوء هذه الشمائل إلا بأنه رجل شجاع حر النفس . قد استطاع أن يعزف عن النفاق والمالئة والمداهنة لحاكم مستبد كمحمد على . وظل على موقفه منه إلى أن مات .

ومهما يقال من هنات فى طريقة التأريخ التى اتخذها الجبرتى أو فى أسلوبه فان هذا التاريخ صورة صادقه لعصره . كتبت فى وضوح وصراحة وبساطة بعيدة عن التعقيد أو التلفيق أو التزييف .

وهى إلى هذا رواية شاهد . كان يعيش فى محيط الحوادث ويدونها يوما

بيوم — يقول فى وصف طريقته فى التاريخ : « فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها على التواتر والاشتهار . وغالبها من الأمور الكلية التى لاتقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها فى « طيارة » حتى أقيدها فى محلها إن شاء الله عندتهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن . وضيق العطن .

وقد بدأ « الجبرتى » الكتابة التاريخية حين كلفه أستاذه السيد « مرتضى الزبيدى أن يكتب له «جذاذات» عن تاريخ الأعلام المائة من المصريين لعلمه أن له صلات برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . ورسم له الطريق حين قال : « عليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه ذكره ، عظم فضله ، وقد يثبت الفضل فى الصدور الوضيعة ، وتنشر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه والتنقير عليه . وذوو الفضل أقران فيه . لكنهم يتفاوتون فى درجاته ومراميه ؛ فإياك والإسراف وعليك القصد »

وعلى ضوء هذه القواعد بدأ الجبرتى يكتب . بل لا أكون مغالياً إذا قلت أنه جعلها نبراسه فى وضعه لتاريخه الكبير فيما بعد .

ويعد هذا العمل نقطة التحول فى حياة الجبرتى . فلم تكن كتابة التاريخ من هواية الجبرتى . لقدكان مغرما بالدراسات الفلكية والحسابية والهندسية فهو قد تلقى فى الأزهر علوم الفقه وبرع فيها ولكنه أولع بهذه العلوم الرياضية وبلغ فيها مبلغا مكنه من تحرير انحراف على انحراب القبلة لمسجد أبى هريرة بالجيزة . وعنى بأمور الموازين والقبانة .

ولكن فكرة أستاذه الزبيدى دفعتـــه فى طريق جديد ، فقد بدأ يقرأ كتب التاريخ كالطبرى وابن الأثير وابن إياس وحاول الكتابة التاريخية على طريقة وصف الحوادث وكتابة اليوميات .

وعاصر الجبرتى عصر المماليك الذى سبق الحملة الفرنسيه . كما شاهد هذه الحملة واشترك مع بعض رجال العصر فى مقاومتها . وشهد جانباً من الفتره التى ولى فيها محمد على أمر البلاد .

ومضى فى خلال هذه الفتره يدون « طيارات » بالأحداث والملاحظات التى تصادفه حتى صح منه العزم وهو على أبواب الخمسين فى أن يضع تاريخاً جامعا لهذه الفتره لجمع كراساته وأوراقه . وبدأ يدونها حتى جاءت على الوضع الذى نراه الآن من كتابه الذى يعد مرجعاهاما لهذه المرحلة من تاريخ مصر . وقد رجع الجبرتى إلى مصادر متعددة ، لا شك أنه بذل فى سبيل إعدادها الكثير من الجهد . سمع من أفواه الشيوخ ، ودرس نقوش أحجار المدافن ، وصكوك دفاتر المحاكم . ثم سجل ما وقع فى أيامه ، وتحرى الدقة فى تسجيلها ، وحرص على أن يشاهدها بنفسه وأن يتقصاها .

وقد صدق حين قال : « لم أقصد بجمع تاريخى خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعـــة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بنفاق . أو مدح أو ذم مباين للأخلاق . لميل نفسانى أو غرض جسمانى » .

وصدق « الجبرتى » فقد كان غيوراً على تاريخه ، وكان ينقله من مكان إلى مكان خشية الضياع أو الوقوع فى يد خصومه . .

والمطبوع منه الآن أربعة أجزاء ؛ أما الجزء الخامس الذى صور فيه أخطاء محمد على وصور الاستبداد والظلم التى شهدتها مصر فى أيامه فقد سرق عمداً وأعدم . وجزى عليه الجبرتى بقتل ابنه . فقد تأيد لكثير من المؤرخين أن مقتل « خليل الجبرتى » فى حادث شبرا قد اغتيل بإيحاء من محمد على الذى أزعجه ما كتبه الجبرتى عن حكمه .

لقد وقف الجبرتى من محمد على موقف الناقد لتصرفاته ؛ وسجل عليه أخطائه واتهمه بالظلم فى عبارته « فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه

العزم والرئاسة والشهامة والتدبير والمكانة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه ».

* * *

كان « خليل الجبرتى » يعمل فى وظيفة التوقيت فى قصر شبرا وقد أخذ عن والده علم الفلك وأحسنه . وكان والده قد كبر به السن ، وانتشرت أجزاء كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وقد تداول الناس ما ذكره عن محمد على فى الوقت الذى كان قد بسط يدة وتخلص من معارضته ونفى عمر مكرم إلى دمياط .

وبينما هو عائد ذات مساء إذ هاجمه بعض الأشقياء وأثخنوه جراحا ، ثم ربطوه برجل حمار . ولم يكتشف أمره إلا فى الصباح . ولم يلبث خليل أن مات متأثراً بجراحه .

وقد بلغ الحادث فى نفس الجبرتى مبلغاً من المرارة والحزن والألم . وهو فى هذه السن المتأخرة ، ولم يلبث أن مات محزوناً عليه بعد ذلك بثلاث سنوات وقد ذهب ضحية حرية رأيه وارتفاعه عن تملق الملوك والحكام .

أحمـــد عرابى

٢١ سبتمبر سنة ١٩١١

يعد عرابى فى نظر التاريخ المصرى الحديث أول من فتح الباب لتحطيم طغيان أسرة محمد على . فهو الذى ضرب أول معول ؛ ولكن الرجة الوطنية التى أصابت مصر أخرت تحطيم الصنم أكثر من سبعين عاما .

فهو أول مصرى فى الجيش طالب بحقه . وأول جندى وقف فى وجه الخديو يوم كان الخديويين أشبه بالآلهة .

وهو المصرى الأول الذى طالب بتسليم قيادة الجيش إلى المصريين بعد أن سيطر عليه الأتراك والأرناءوط .

ولأول مرة يجتمع عرابى مع الضباط للاتفاق على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية ومناصبة وزير الحربيه العداء

وليس أدل على قوه شخصية عرابى من هجوم الضباط على قصر النيل لتخليصه من الاعتقال هو وزملائه : على فهمى ؛ وعبد العال حلمى .

وعرابى أول من فكر فى اغتيال الخديو وأظهر استعداده لإسمـــاعيل راغب عندما عرض عليه هذا الرأى .

وفى تاريخ عرابى غير موقف ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ عندما حضر بالقوات إلى عابدين ووقف وقفته المشهورة مواقف أخرى . فقد حاصر العرابيون الخديو بالاسكندرية فى ٤٠٠ من فرسان الجيش المصرى ؛ وأزعج الخديو هذا الإجراء فأرسل من يسأل الجنود عن مقصدهم ؛ فأجاب قائدهم بأن لديه

أمر بالحصار . وكان الغرض من ذلك القبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة حتى لا يلجأ إلى الإنجليز .

وعرابى هو الذى عقد مجلساً عرفياً من كبار المصريين بلغ عدده أربعمائة عضوا من بينهم أمراء وشيخ الإسلام وقضاة مصر ومفتى الديار وكبار العلماء والرؤساء الروحانيين الذين اتفقوا جميعا على أن يحكم عرابى البلاد .

وحاول الخديو أن يعزل عرابى . ولكن جهدة ضاع عبثا ، فقد أقرت الجمعية العمومية عرابى وأذيعت فتوى شرعية من الشيخ محمد عيسى وحسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو من الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده .

ولقد كان عرابى سيد الموقف لولا خيانة على خنفس وسلطان باشا . .

والحق أنه ليس فى تاريخ مصر شخصية احتملت من عنت تزييف التاريخ فى خلال خمسين سنة ما احتمله عرابى . فقد رمى بالخيانة والجهل والغرور . ولم يقف فى صفه إلا كاتب أو كاتبين ، ولم يكن من اليسير تقدير بطولة هذه الشخصية فى الوقت الذى كان معدوداً من خصوم ذلك العهد الغابر والنظام البائد . .

ولا شك أن « عرابى » من الشخصيات الممتازة فى تاريخ مصر والشرق ، فهو أول من وقف فى وجه الحاكم الظالم ، فى ساحة قصره ، يطالب بحق الأمة فى الدستور والحكم الصالح ؛ وقفته التاريخية يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ .

كان عرابى شرارة التمرد على الأوضاع الظالمة ، ولم يكن التصدى لمثل هذا العمل الخطير يسيراً أو لاهيناً ، فانه مقاومة لكل القوى المسيطرة على الدولة إذ ذاك .

* * *

لم يكن « عرابى » من قبل الحركة العرابية ؛ إلا جندياً يحس بما يحس به

الجنود من الحيف الذى يسلطه الضباط الشراكسة والأتراك على الجنود المصريين ، وتلك الامتيازات التى يحصلون عليها فى الترقى والرتب العسكرية .

غير أن طابعه العربى الأصيل ، أو البدوى على وجه التحديد ، واتصاله بالأزهر فى شبابه لأمد لم يزد على الأربع سنوات . واقتراعه فى العسكرية نفراً ، كل هذه العوامل قد كونت شخصيته فيما بعد ؛ وكانت بعيدة الأثر فى وجهته وخطته .

وقد ظل عرابى يرقى رتب الجيش فى سرعة تدل على نبوغه وذكائه ونجاحه فى عمله العسكرى ؛ بالرغم من الظروف التى كانت تحول دون رقى المصريين وتبريزهم ، بل أنه حدد موقفه من المعركة التى أثارها بعد سنوات طويلة حين ارتطم مع اللواء خسرو باشا الشركسى مما أدى إلى تقديمه إلى مجلس عسكرى .

غير أن ترقى عرابى هذا توقف بعد ذلك إذ ظل تسعة عشر عاما فى رتبة القائمقـــام . وقد وصف عرابى السر فى هذا إلى أن الرتب العسكرية تكاد تكون وقفاً على مماليك وأبناء مماليك العائلة الخديوية .

ومن هنا ؛ واستجابة لهذه الروح من التذمر ، التى ملأت نفوس الضباط المصريين ، اندلعت الحركة العرابيه فى صورة واضحة ؛ وقد كان عرابى زعيمها لما عرف عنه من قدرة على الخطابة ولباقة وفهم لمجريات الأمور .

وفى هذه العبارات الآتية ما يدل على هذه المقدرة : « . . . إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة « الهيكسوس » والأشوريين والفرس . حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان . وهذا قبل الإسلام وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفـاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين ؛ من العرب والترك والأكراد والشركس ، وكثير

ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلها فى أوائل هذا القرن من زمن بونابرت ، وحيث أنى أعتبر نفسى مصرياً فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا ؛ حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل ،

* * *

كان عرابى شخصية جذابة ؛ لها صفات الزعماء الذين يؤثرون فى الجماهير والناس . وقد أكسبه موقفه فى عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨١١ تأييداً شعبياً واسع النطاق . فقد كان خطيباً ساحرا يؤثر فى الناس ؛ وكان قديراً على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث ؛ وإن كان قد قصر به تعليمه فى مطلع الشباب ؛ إلا أن خبرته فى الحياة ومطالعته قد أكسبته الكثير مما يحتاج إليه الزعيم .

وعندما وقف عرابى فى وجه الإنجليز كانت الأمة كلها من وراءه ولولا خيانة بعض أنصار الخديوى ، ونقض بعض الخطط لانتصر عرابى . ولما ختم حياته على هذه الصورة . ولكن حسبه أنه عمل ووقف فى وجه التيارات الضخمة التى تجمعت عليه . ومنها الانجليز والخديو وبعض عملاء الدول الأجنبيه .

* * *

وانتهى أمر عرابى بعد الحكم عليه بالإعدام إلى النفى فسافر إلى جزيرة سيلان حيث أمضى هناك تسعة عشر عاما ؛ ولما عاد عرابى إلى مصر تجنبه الناس وأصدقائه القدامى .

وقد أجهد عرابى فى منفاه متاعب المناخ والجو والغربة ؛ ولكن إيمانه بالله قد أمده بالصبر حيث كانت أسرته معه . ولا شك أن الخلاف الذى

وقع بين الزعماء فى منفاهم كان مصدره ضيقهم بالاعتقال وتأثر أعصابهم بطول البقاء ؛ فضلا أن منهم من توفى هناك ؛ كما أصيب البارودى بالعمى وعاد عرابى إلى مصر فى عام ١٩٠١ وكان قد غادرها فى عام ١٨٨٢ .

ولم تكن الفترة التى أمضاها فى مصر بعد وعدته إلى وفاته فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ سعيدة ولا راضية ؛ فقد ظل محزوما من أملاكه ، كما كان موقف الحكام منه قاسياً . فقد زار الوزراء جميعا فى بيوتهم فلم يرد له أحد منهم الزيارة وكانوا حريصين على ألا يلقونه . فاذا التقى بهم كانوا غاية الحذر فى الحديث معه . . ويغلب أن كرومر قد أصدر أمره للوزراء بأن لا يتصلوا به .

وظل عرابى يعيش هذه الفترة ضيق اليد . وأجرى محاولات متعددة لإعادة أملاكه دون جدوى . وقد كان تزايد أعداد أسرته من عوامل إحساسه بالجو الخاص المحيط به .

ولكن طبيعته الصوفية وروحه الزاهدة كانت عاملا فعالا فى اتجاهه نحو العزلة والصلاة وقراءة القرآن .

ولطالما حاول أن يزيل الإحساس الذى كان يغمر بعض النفوس بالنسبة له ولحركته بعد أن لوث الاحتلال كتب التاريخ والصحف باتهامه بأنه كان أحمقا ، أو عاصيا أو أحد دعاة الفتنة ، ولذلك فقد عكف على كتابة مذكراته وأوصى أن تذاع بعد وفاته ليفهم الناس حقيقة موقفه ، وليفهموا أنه الفلاح المصرى الأول الذى دعا إلى الحرية . وأنه كان أول صيحة فى الشرق صاحها وطنى فى وجه الحاكم المستبد .

عبد الله نديم

١١ أكتوبر سنة ١٨٩٦

« ما رأيت مثل النديم طول حياتى من حيث توقد الذهن . وصفاء العزيمة وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب وإن كتب » .

هذا النديم فى رأى من ؟ فى رأى جمال الدين الأفغانى الرجل الدقيق الذى لا يقول كلمة دون أن يعنى كل حرف فيها . هذا رأيه فى الرجل الذى بدأ حياته بدكان يبيع فيه المناديل . ولكن لا بأس فان الخبرة الضخمة التى حصل عليها من الحياة ، هى التى أعطته هذه الشخصية القوية .

يقول عن نفسه : « أخذت من العلماء وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء . وداخلت الحكام . وعاشرت أعيان البلاد . وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة . وبم يتألمون وماذا يرجون . وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين . وألمت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين . وقرأت أفكارهم — واختلطت بأكابر التجار . وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة والسياسة . وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا . واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها . والحكمة والتاريخ والأدب وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة . واستخدمت فى الحكومة زمنا . واتجرت برهة . وفلحت حينا . وخدمت الأفكار بالتدريس وقتا . وبالخطابة والجرائد آونة . واتخذت هذه المتاعب رسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى تحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا . وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء .

«صورتى تريك هيئة أبنـــاء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين . . »

لقد تنكرت الأيام لعبد الله نديم حتى عاش حياته شريداً لا يقر ، هذه الحياة التى يستطيع صاحبها أن يقضى عشر سنوات منها متخفيا ، قد غير اسمه وشكله ومظهره ، وهو قد تنكر فى زى الدراويش ، والأرصاد مثبوتة حوله فى كل مكان . وهو مهدد فى كل لحظة بالقبض عليه . وليس له مورد ، وإنما يعيش فى ضيافة الناس ، أولئك الذين آووه وأطعموه !!

أى شقاء أشد على النفس من هذه الصورة المتجهمة للحياة ؟ يقضيها رجل دعا إلى الحرية وأحبها وجرد قلمه لها ، فلا يرى فيها بصيص الحرية أو ضياءها حتى تفيض عليه بعد فيعاد إلى أولى الشأن فاذا به يفتتح صفحة جديدة من الحياة ، لا تقل قسوة . فهو يؤمر بأن يخرج ، فيختار « يافا » ويسافر إلى الحجاز ثم يعود إلى القاهرة ويصدر مجلة « الأستاذ » .

ولا يلبث قليلا حتى يحس الإنجليز بأن صوته قد علا ، وأن الناس أخذت تذكر خطيب الثورة العرابية ، فيطلبون إليه الخروج مرة أخرى فيذهب ، ثم لا يلبث أن يعود ليسافر من الاسكندرية إلى الآستانة .

وهناك يمضى بقية حياته ، ويتصل بجمال الدين الأفغانى ويقاسى ألوان الصراع مع أبو الهدى الصيـــادى . ولكن أين قلم عبد الله الذى تعطل ومواهبه التى حبست .

* * *

كان عبد الله منذ أول شبابه أديب ، ووطنى ، كانت فى روحه الثورة ضد الظلم - وكان قلبه ولسانه من أدواته القوية فى هذه المعركة التى قد امتدت طوال حياته . ولقد اشترك منذ وقت باكر فى جمعية مصر الفتاة الأولى ووجد

مجاله الحيوى على أوسع نطاق عندما اندلعت الثورة العرابية . فقد ساهم فيها مساهمة فعالة . وكان عاملا قويا من عواملها . خطيبا يملأ قلوب الناس بالايمان وكاتبا ينشر صحيفته « الطائف » فى قلب المعسكر .

كان عبد الله لسان الثورة وقلمها . يدعو إلى الشورى ويطالب بالإصلاح وقد كان دعامة كل حفل . وكل بلد . ويتحدث عن الحكومة النيابية ومزاياها وحقوق الأفراد . ويدعو إلى إنشاء بنك مصرى يحمى الأهالى من استغلال المرابين .

وصحفه وكتاباته تحمل روح الجرأة والدفاع عن الحق . وفى التبكيت والتنكيت(١) والطائف والأستاذ لم يكن إلا داعية الحرية الذى لا يلبث حتى يثير عاصفة . وهو أول من كتب بأسلوب يمزج بين الجد والهزل . وقد مكنه من امتلاك ناصية البيان والخطابة صحبته لمحمود سامى البارودى ومحمود صفوت الساعاتى وإبراهيم اللقانى والشيخ على أبو النصر . حتى قيل أنه خطب فى اجتماع خمس مرات . كان يتخلله خطب الآخرين ؛ وأخلص للثورة فكان موضع ثقة عرابى ؛ وقد لازمه فى كفر الدوار والتل الكبير .

فلما أخفقت الثورة لم يتنكر لها . وظل مؤمنا بمبادئها . واستطاع أن يختفى عن الأنظار عندما صدر الأمر باعتقاله . وقد وصف هذه المرحلة من حياته بقوله : « خرجت من مصر مختفيا فدرت فى البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص . وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ؛ من قولى أنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى وأصطلح لحيتى اصطلاحا يوافق الدعوة أيضا . فأطيلها فى مكان عند دعوى

(١) صدرت فى ٦ يونيه ١٨١١ .

المشيخة وأقصرها عند دعوى السياحة ـ مثلا ـ وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية ، وأسودها فى عزبة .

وأقام فى بلدة العتوة بالغربية ، فى ضيافة بعض كرام أهلها ثلاث سنوات تزوج خلالها وضاع خلال تنكره هذا محصوله الأدبى كله الذى أنشأه فى تسعة عشر عاما . وكان لا يلبث أن يخف عنه الطلب . ويأمن الإقامة فى قرية حتى يوالى المطالعة والقراءة . . « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية وحاله صافية رائعة . لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار . ولا أتألم من طول المدة ووقع الشدة لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت خفت الأحوال وحسن الحال . فترانى فكرى كليمى وقلبى نديمى . تارة أشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول وأجمع عقائد أهل السنة . بما تعظم بها لله المنة . وحينا أشتغل بنظم فرائد . فى صورة قصائد ووقتا أكتب رسائل مؤتلفه فى فنون مختلفه . وآونة أكتب فى التصوف . . وقد تم لى عشرون مؤلفا بين صغير وكبير . فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة . أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم » .

ولم يلبث ن عاد إلى الحرب حتى عاد إلى مهاجمة الإنجليز فى عنف فأخرج وأعيد فأخرج . ثم استقر فى تركيا . حيث اتصل بالسيد جمال الدين . وانتهت أيامه بمرض السل الذى قضى عليه فى ١١ أكتوبر ١٨٩٦ وهو فى حدود الرابعة والخمسين .

وقد وصفه أحمد تيمور بأنه كان شهى الحديث . حلو الفكاهة . إذا

أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته فى أواخر إقامته بمصر فرأيت رجلا فى ذكاء إياس . وفصاحة سحبان . وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه . ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا .

***

. . . ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلب الأحوال بالمترجم ، وما ذاقه من حلو اللسان ومره ، وما قاساه مدة الاختفاء ثم النفى حتى مات غريبا حق له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه .

ـ. أنا أسعى للعفو عنك
ـــ هذا أمر مستحيل
ـــ أنا لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك !
ـــ لا أوافق .

وانصرف رسول المعتمد البريطـــانى وترك محمد فريد فى السجن يمضى الشهور الستة التى حكم عليه بها لأنه كتب مقدمة ديوان « وطنيتى » للأستاذ على الناياتى وقال فيها : « إن على الشعراء أن يستعملوا مواهبهم الربانيـــة العالية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء وتملق الأمراء والتقرب إلى الوزراء . فالحـكام زائلون والأمة باقية . . »

وخرج محمد فريد من سجنه ليـكتب فى حماسة . ويواصل الـكفاح . دون أن يبالى شيئاً . .

كان ذلك فى سنة ١٩١٠ وكان الخديو ينعم بسياسة الوفاق مع بريطانيا فلما تحولت عن هذه السياسة فى يونيه ١٩١١ أرسل عباس إلى محمد فريد يقول له إنه يريد أن يتعاون معه ، لمقاومة اللورد كتشنر ممثل بريطانيا الجديد .

وأجاب فريد فى صراحة وجرأته : « إننى على استعداد لأن أتعاون مع أى مصرى ، غير أن الخديو لم يقدم لبلاده ما تنتظره . . ويوم يقف الخديو فى وجه بريطانيا سيجدنى فى جانبه من غير أن يطلبنى أو يدعونى ، ولـكنى لا أريد أن يـكون الحزب الوطنى وسيلة يلوح بها للانجليز حتى يعودوا إلى سياسة الوفاق » .

ومضى رسول الخديو ، ومضى محمد فريد يكتب ويخطب ويدعو الناس إلى الدستور ، ويحرضهم على إرسال العرائض إلى القصر مطالبين به ، مؤمناً بأنه لابد من وضع حد لاستبداد عباس وطغيانه ، وكان إصراره على دعوته هذه قد هيأ له نخاً : إذ عمدوا إلى محاولة اغتياله أو سجنه أو التخلص منه بأى وسيلة ، ورؤى أخيراً تقديمه إلى التحقيق والمحاكمة .

يقول محمد فريد فى مذكراته : « .. وقصصت على الإخوان ما دار فى التحقيق ، فتقرر بالإجماع سفرى إلى خارج القطر ، وبعد الغداء ذهبت إلى نادى الحزب الوطنى . وذهب اسماعيل لبيب بك إلى محل كوك فوجد الوابور لروسى « أولجا » مسافراً إلى الآستانة وبيريه فى اليوم التالى . وفى الساعة الثامنة مساء قصدت منزلة . وحضر أحمد بك لطفى المحامى ونصحنى بالسفر . لأن الحكومة تنوى القبض على فى الصباح . وأنها طلبت ذلك من على ماهر . فامتنع ريثما يطالع الأوراق . وأنه يخشى أن تؤخذ الأوراق وتسلم لغيره من ضعاف العزيمة . فيأمر بالقبض . فأسررت إلية بالأمر . وأخبرته أنى مسافر فى الغد . وطلبت من زوجى أن تحجز الجرائد عن الأولاد فى الصباح حتى لا يطلعوا على تفصيلات استجوابى . وقبلت زوجتى القضاء بالرضا وشجعتنى على السفر وتحمل مشاق النفى .. »

وسافر محمد فريد من مصر . بلاده التى أحبها وعاش لها ، ظهر ٢٥ مارس سنة ١٩١٢ ولم يعد .. نعم عاد بعد ذلك جسداً هامدا . أعاده أحد التجار المصريين على حسابه ليدفن فى الثرى الذى أحبه ..

وعاش محمد فريد مهاجرا مغتربا فقيرا . يتنقل من تركيا وألمانيا وبلاد أوربا . يحن إلى مصر ويدعو لها . ويمضى أيامه وساعاته ولحظاته ذاكراً لها منافحاً عن حقها فى الحرية والاستقلال والجلاء .

لقد ضحى فريد بكل ما يملك فى سبيل مصر . إذ كانت ثروته عندما اتصل

مصطفى كامل ألف ومائتى فدان . وبضع عمارات . وبضعة ألوف من الجنيهات ولما غادر مصر كانت كل هذه الثروة قد أنفقت فى الحركة الوطنية . ولم يترك لأولاده وأهله شيئا . ولكن هل أضعف الاغتراب عزيمته .. أو ألان قناته ؟ أبداً .. بل زادته الهجرة إيمانا وقوة . وأمده البعد عن الوطن بالجلد والثقة بالمبادىء التى آمن بها .

وكثيراً ما بات على الطوى أو تبلغ بقليل من الزاد . ولكن عزيمته لم تهن .. وأرسل إليه الخديو وهو فى أوربا يدعوه إلى العودة للتعاون معه فكان رده هو هو : « على الخديو أن يقف فى وجه بريطانيـــا أولا . وأن يضع لشعبه دستورا وأنا معه » وأرادت بريطانيا أن تنتهز فرصة ضعفه . لعلها تجد وسيلة لكسب هذا الرجل . واتصل به رسولها وقال له : « إن كلمة واحدة تعيده إلى مصر معززا مكرما » ورفض فريد أن يقول « كلمة » يكسب بها هو وتخسر مصر .

.. واستقبل خريف حياته مريضا مجهدا . تغشاه الغاشية . فما أن يفيق حتى يسأل عن مصر . ويردد قوله : « أرجو أن أعيش حتى أرى وادى النيل دولة مستقلة » .

وأضرمت الثورة فى مصر سنة ١٩١٩ ، وملأ الفرح قلب فريد . فقـــد تحققت دعوته . ومضت الصحف الأوربية تشيد بالوطن الذى استيقظ ليطالب بحقه . ولكن مصر قد نسيت « فريد » البطل الذى وضع بذور الثورة فى نفس الشعب . وأرسل برقيته : « نحيى فيكم الوطن الغائب ونرجو لكم كال التوفيق » . فلم يتلق رداً . ورفض فريد أن يدعو لنفسه . ولم يحزن لأن الثوره تغاضت عنه . ورضى عن مصر التى حققت أمله . وانفجرت تدافع عن تعاليمه .

.. وغلب المرض على فريد . فاعتكف فى غرفته الحقيرة . فوق سطح

أحد المنازل فى براين وقد تناثرت من حوله مظاهر الفقر . فى ملبسه ومظهره وحاجاته . وكان ماء الرشح ينساب من جوفه . وأنشب المرض كما أنشب الفقر أنيابه فى الرجل العظيم .

وقدمت عليه وفود الحركات الوطنية من الهند وإيرلندا يعرضون عليه الذهاب إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح فاعتذر فى رفق وقال لهم : « اذهبوا إلى سعد فى باريس . إننى أريد أن أكون جندياً كهؤلاء الجنود المجهولين الذين يستشهدون فى ميدان القتال لا يطمعون فى مغنم ولا ينتظرون الجزاء »

ونقل إلى مستشفى « لسجارن » حيث أجريت له عملية جراحية واخرج من جوفه تسعة لترات من ماء الرشح . وقيل له أنه فى حاجة إلى عملية جراحية أخرى بعد أيام . ولكنه لم يلبث أن علم بمؤتمر لوسرن . حتى حمل جسمه المريض إليها . ومضى يكتب ويكتب طوال الليل . . ويصور آلام بلاده بقلم من نار . .

وطلعت أضواء فجر ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩ . وهو مازال مكبا على مذكرته وما كاد الضياء يملأ الوجود حتى كان فريد يسلم الروح . وكانت مصر هى آخر كلمة نطقها هذا القديس .

وكتب فى مذكراته قبل ذلك بأيام : « إنى وأولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر . لقد قضيت بعيدا عن مصر سبع سنوات . فاذا مت فضعونى فى صندوق واحتفظوا بى فى مكان أمين حتى تتاح لى الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز الذى أفارقه وكنت أود أن أراه »

وانتهت حياة محمد فريد .. الحياة الحافلة الطويلة . . المليئة بالجهـــاد والكفاح .. افتتح حيادته بخطوه تدل على مدى الحرارة المنبعثة من قلبه لوطنه.

كان وكيلا لنيابة الاستئناف عندما نظرت قضية المؤيد فى إذاعة برقية عن حملة دنقلة . وكان له موقف وطنى أدى إلى نقله إلى نيابات الوجه القبلى . ورأى فريد فى ذلك ما يمس استقلال القضاء فاستقال من منصبه واشتغل

بالمحاماة سنة ١٨٩٧ . غير أنه رأى سنة ١٩٠٤ ان المحاماة تشغله عن الجهاد فأراد أن يتفرغ له . ثم عاد إلى المحاماة سنة ١٩١١ بعد الحكم فى قضية كتاب وطنيتى ليعوض بعض ما خسر من المال . وحوكم للمرة الثانية على أثر خطبته فى المؤتمر الوطنى سنة ١٩١١ واستجوب فى فقرات من خطبته اعتبرت تحريضا على كراهية الحكومة وصدر الحكم عليه فى ٣٠ أبريل سنة ١٩١٢ بالحبس سنة مع الشغل غيابياً وكان فى أوربا فأرسلت إليه ابنته تطلب إليه أن يعود حتى لا يتهم بأنه تخلف حتى لا يسجن . وقد عاد فريد فلما حكم عليه بالسجن رفض أن يلتمس العفو . ولما سافر متنكراً إلى تركيا رفض مكافئة السلطان له بتعيينه واليا فى إحدى الولايات وقال كلمته المعروفة : « إننى ما خرجت من بلادى للبحث عن وظيفة ولكن لأجاهد فى خدمتها وأسعى لتحقيق أمانيها حتى أموت .

وكان يضع على صدرة شارة مكتوب عليها « مصر للمصريين » وقد أرسل إليه سعيد حليم لينتزع هذه الشارة فرفض فلما هدده بالنفى قال : إن جميع البلاد تتساوى عندى مادمت قد حرمت الإقامة فى مصر .

وكان فى منفاه لا يأكل إلا مرة واحدة فى اليوم وقد سكن عرفة منفردة بالدور الخامس فأصيب بمرض الاستسقاء الوبيل .

وأمضى ستة أشهر وهو يعانى آلام المرض . وكان يغمى عليه فاذا أفاق سأله عن أخبار مصر وكيف حال الثوره فيها .

وكان يهتف دائما بقوله : « إننى لا أجزع من الموت فان الموت حق لابد منه ولكنى أجزع أن أموت قبل أن أرى مصر حرة مستقلة » .

هذا هو القديس الذى ضحى بكل شىء وصمد فى وجه العواصف والمغريات ولم يقبل فى حق مصر مساومة ولم تهن من عزمته الغربة ولا المرض . . فظل قوى العارضة حتى النفس الأخير . .

امـــين الرافعى

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧

« .. كان معروفاً أن قرار الحماية سيصدر قبل إعلانه بمدة ، وكان محتما على الصحف أن تنشره عند صدوره . وأعلن المرحوم أمين بك الرافعى رئيس تحرير جريدة الشعب فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ أنه سيحتجب فى ذلك اليوم ، وأنه سيعود بمشيئة الله الى الظهور . وقد اتخذ رحمه الله هذا القرار على أثر مداولة قصيرة بينه وبين عبـــد الله بك طلعت مدير الجريدة وبينى . فاتفق ثلاثتنا على وجوب وقف صدورها . وكان الغرض من هذا الوقف أن لا ينشر فى « الشعب » إعلان الحماية المشئوم والبلاغات التى تستتبعها الحماية . وكان هذا الاحتجاب هو أول احتجاج من مصر على الحماية البريطانية . وقد وقع فى الوقت الذى بلغت فيه صحيفة « الشعب » ذروتها من حيث الانتشار والرواج والمكانة الصحفية .. فكان إيقاف صدورها تضحة مالية كبيرة ... »

***

هذا الخبر الذى نقلناه من كتاب ثورة ١٩١٩ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى يرسم صورة واضحة المعالم لشخصية الرجل الذى يعد بحق من مفاخر الصحافة والوطنية فى مصر .

كان أمين الرافعى مؤمنا بقلمه ووطنيته . وقد ضحى فى سبيلها بكل شىء ، وقد رفض أن يكتب فى صحيفته بلاغ الحماية وقرر تعطيلها . وكسر قلمه ، راضيا بما يترتب على ذلك من سجن واعتقال . ولم يلبث أن كان من صفوة الفوج الأول من المعتقلين فأمضى مدة الاعتقال راضيا .

فلما خرج من الاعتقال أعد مذكرة ضافيه قوية العبارة بسط فيها المسألة المصرية وترجمها إلى اللغة الفرنسية وقدمها لمعتمدى الدول فى مصر وأرسل صورة منها إلى الرئيس ولسون ورؤساء الحكومات المشتركة فى مؤتمر الصلح . وقد عدت هذه المذكرة مرجعا فى دراسة المسألة المصرية وهى أول مذكرة سياسية وضعت فى مصر بعد الهدنة .

* * *

وموقفه من سعد زغلول يعطى صورة أخرى لهذا الرجل النبيل . فهو صديق سعد وصفيه ، ولكنه مستقل الشخصية لا يقبل أن ينافق أو يمالىء . فلا يلبث أن يختلف معه فى مبدأ المفاوضات . ولكنه يظل الخصم الشريف الذى يثق به سعد . فليست الخصومة أو الصداقة الشخصية رائده ، وإنما رائده المصلحة الوطنية الكبرى التى هى فوق الأشخاص . وآية ذلك أنه ما كاد سعد أن يعتقل ، حتى كان أمينا هو أول المدافعين عنه والمطالبين بالإفراج عنه على الرغم من اختلافه معه فى الرأى .

ومذكرات أمين الرافعى السياسية فى نقد الدستور تعد من أقوى ما كتب فى هذا الباب حتى كان يصفها سعد بقوله : « إن أمينا كان يستملينى ما يكتبه » وقد أداه فقهه الدستورى والقانونى والسياسى أن كان أول من نبه الزعماء والأحزاب إلى أن قرار حل مجلس النواب يعتبر باطلا لأنه لم يحدد فيه موعد الانتخاب والتاريخ الذى يجتمع فيه المجلس . وما دام البرلمان لم يدع فان من حقه أن يستأنف اجتماعه .

وقد ظل أمين ينافح عن هذا الرأى فى صحيفته « الأخبار » منذ أول نوفمبر سنة ١٩٢٥ إلى ٢١ من نفس الشهر وهو ينشىء الفصول الضافية عن وجوب انعقاد البرلمان من تلقاء نفسه يوم السبت ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ وقد اجتمع أعضاء البرلمان فعلا فى فندق الكونتننتال فى هذا اليوم .

وعاش أمين حياته كلها فى سبيل مبـــادئه ، فى سبيل الشرف والأمانة الصحفية ، كان يهز الرأى العام كل يوم من منبره سواء أكان العلم أم الشعب أم اللواء أم الأخبار . وأدته شجاعته أن يجهر بالخصومة لسعد فى أوج قوته وأن يعطف عليه وهو فى الأسر . وظل قلمه طوال حيـــاته عفيفا نقيا . كان يعادى ويصادق ، دون أن يورط قلمه فى العثار ولا فى النفاق .

وترجع قوة أمين الرافعى إلى النزعه الصوفية التى كانت تملأ نفسه ، فقـد نشأ فى بيئة كريمه متدينة . فصدر عنها وهو يحس بأن الحياة فـكرة ، فلم تشغله زخارف الحياة . وكان زاهداً فى المطامع التى يتهالك حولها الناس .

ولذلك رفض كل العروض المغرية التى قدمت له ، وتردد فى قبول لقب البكويه حين أنعم عليه به وكاد يرفضه . ولطالما تقدم له من حاول أن يغريه بالمال من الزعماء ولـكنه كان متماسكا فقد آثر أن يتحمل الفقر والاضطهاد ويتعرض للأخطار صابرا متجلدا . وقال كلمته المعروفة : « أنا لا أقبل أن أساوم فى ذمتى أيا كان الرقم ثمنا لقبول المساومه . إذهب لمن أرسلك وقل له لقد عرفتنى بالأمس وسأجهلك اليوم !! » .

وعرضت عليه كبرى وظائف الدولة فرفضها وكان جوابه : « لا تفسدوا على إيمانى ، أنا لم أخلق لهذه الوظائف » .

. . .

عمل أمين الرافعى فى فجر حياته مع مصطفى كامل فى اللواء . ثم ولى صحف الحزب الوطنى بعد ذلك . واتصل بالحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، ثم أصدر الأخبار حيث كانت صحيفة الـكفاح الوطنى ، فلما مال سعد إلى المفاوضات وتحولت الحركة الوطنية إلى قضية توضع موضع المساومة ، خاصم سعدا ووقف أمامه فى قوة ، وهو أول من دعا إلى مقاطعة لجنه ملنر ، وعندما وضع الدستور كانت كتاباته من البحوث الدستورية الهامة فى هذا الصدد .

وعاش أمين الرافعى فقيرا ومات فقيرا ، ولـكنه ترك اسمه دويا يعد رمزا على الوطنية الصادقة والصحافة الرشيدة .

وهو يصور نفسه حين يقول :

« يرى المؤمن الثابت العقيدة أن عقيدته مقدسة لا تحتمل تفريطا ولا زعزعة . وأن لها من ضميره حارسا قويا . فاذا وسوس له الشيطان أن يهمل هذه العقيدة على أي صورة من الصور . كان صوت الضمير وحده كافيا لأن يقطع على الشيطان وسوسته ويرده مدحوراً ، وإذا ما تقدم خصوم العقيدة الثابتة بأموالهم الوفيرة وهباتهم العظيمة ووعودهم الخلابة ، كي يلعبوا بالعقول ويزعزعوا الإيمان وجدوا من يقظة ضمير المؤمن أكبر مخيب لآمالهم . لأن هذا الضمير الخالص الذى لا يخضع للماديات ولا يتأثر بأثرها المفسد لا يلبث أن يهيب بصاحبه : إياك والانخداع بما يعرضون عليك مهما عظم شأنه فان كنوز الأرض لا تغسل شرف الإنسان . ومتى استطاع المرء أن يحتفظ بشرفه فكل ما يفقده بعد ذلك لا يقاوم له وزن . لأن الحياة الشريفة يمكن احتمالها مهما بلغت مرارتها . أما الحياة المجردة من الشرف فانها لا تساوى قلامة ظفر . وليست أيام الجهود والتعب والألم أسوأ أيام الإنسان ويكفى صاحب المبدأ تشجيعا أن ينال شيئا من المكافأة المعنوية بأن يرى مبدأه يصيب بعض الفوز » .

ولم يكن أمين الرافعى إقليميا ، فقد وطد صداقته بالكثير من الشخصيات البارزة فى أوربا خلال أسفاره الطويلة إلى لوزان وباريس .

وكان موضع تقدير كبار السياسيين الأوربيين أمثال بير لوتى ومدام جوليت آدم .

وكذلك كانت حياة أمين الرافعى غنية خصبة بالحياة والحيوية والكفاح فى سبيل الوطن والحرية . عاش مجاهداً مناضلا ومات فقيرا فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧ فى سن الواحد والأربعين .

عبد العزيز جاويش

٢٥ يناير ١٩٢٩

ولد من أسرة مغربية بمدينة الاسكندرية فى ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ ، وتعلم فى الأزهر ودار العلوم وسافر فى بعثة إلى إنجلترا ، وعمل أستاذا بجامعة اكسفورد .

رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو ١٩٠٨ بعد وفاة مصطفى كامل . وقدم مرتين للمحاكمة .

أبعد إلى تركيا سنة ١٩١٢ واشترك فى جمع التبرعات وتهريب الذخائر والقواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالى .

وسافر سنة ١٩١٤ إلى إنجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامى وقصد إلى ألمانيا وتركيا والشام .

ثم عاد إلى مصر سنة ١٩٢٣ .

* * *

حياة يمكن تلخيصها فى أنها كتابة حرة جريئة واعتقال وسجن ومحاكمة وتكرار للسجن والمحاكمة فى سبيل مصر .. فقد بدأ عبد العزيز جاويش كفاحه كاتبا على صفحات اللواء فى مايو سنة ١٩٠٨ حيث أخذ يحمل حملات قوية على الاستعمار وأذنابه والقصر ورجاله . وهاجم الخديو وسياسته وتصدى لدنلوب وسياسة المعارف وأرق مصطفى فهمى . وحمل على مشروع مد امتياز قناة السويس وتميز عهده فى تحرير اللواء بالثورة العنيفة والجرأة الواضحة مما استدعى أن تعود الحكومة إلى قانون المطبوعات القديم .

وكان طبيعيا أن يقدم إلى المحاكمة وأن يسجن . ولكنه كان صلب العود فلم يثنه ذلك عن إيمانه بوطنه مما حمل الشعب على أن يقدم له وساما فى حفل تكريم أقيم بفندق شبرد فى ٢١ نوفمبر ١٩٠٩ عقب خروجه من السجن .

وظل عبد العزيز جاويش يخرج من السجن ليعود إليه . وكثرت الإنذارات وقرارات تعطيل اللواء ، ولما ضاقت به أرض الوطن هاجر إلى تركيا ليواصل كفاحه . ولكن تركيا كانت قد تآمرت على القبض عليه ، وإرساله معتقلا إلى مصر لتسليمه إلى حكومة الاحتلال . وقد ظل معتقلا حتى أواخر سنة ١٩١٢ فلما أفرج عنه سافر إلى سويسرا ليلحق بقديس الوطنية محمد فريد وظل هنـــاك حتى شهد وفاته .. وعاد إلى مصر بعد أحد عشر عاما سنة ١٩٢٣ .

عاد سراً واختفى عند الحاج أحمد رمضان زيان ، ولم يلبث أن بدأ يكتب من مخبأه فى الأخبار وكانت مصر على وشك إجراء الانتخابات الأولى فرشح نفسه فى دائرة الجمرك بالاسكندرية .

ولما وقع حادث الاعتداء على سعد زغلول اعتقل مرة أخرى ، وكانت المدرسة الزغلولية قد بسطت سلطانها فلم يعد هنـــاك مجال للكفاح الوطنى الشريف فتحول إلى العمل الاجتماعى والدينى فكان دعامة من دعائم جماعة الشبان المسلمين حتى ختم حياته فى ٢٥ يناير ١٩٢٩ .

* * *

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشؤوم والعدوان فأزعج نفوسهم . وأحرق حصادهم . فلـــا هموا بصيانة أرزاقهم قيل أنهم مجرمون . وسيقوا فى السلاسل والأغلال . فصلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها رئيس المحكمة المخصوصة من مكامنها فى أجسامها . وقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم . والغاصب القاهر القائم فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا .

سلام على أولئك الذين وقف المدعى العمومى فثار فيهم ثوران الجبارين ثم انثنى على رقابهم فقصمها . وعلى أجسامهم فمزقها . وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين . قام المدعى العام مقام الشهود . وطلب من قضاة المحكمة الظالمة أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين إلى هيكل الاحتلال فما لبث رئيس المحكمة وزميلة قاضى دنشواى ، أن استهوتهما الأموال . واستغوتهما المناصب . واسترهبتهما عظمة الاحتلال . فأنطقهما بذلك الحكم الجائر ، لرغب فى الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجب » .

« نفذ الحكم بما جرى به القضاء المسطور والقدر المقدور وضجت الأرض شاكية إلى باسطها ظلم الإنسان . وما كان دمعا ما سال من مآقى البائسين ، ولكنه ذوب القلوب من فظاعة الحكم وهول التنفيذ . ولا زفيرا وشهيقا تنفس المتنفسين ، وإنما كان وهج النار الملتهبة فى الصدور من الأسى والفزع . مشانق منصوبة . وأرض بالدماء مخضوبة ، وأيد بالسلاسل مغلولة . وأرجل بالأصفاد مكبولة . ودموع مرسلة . وأبناء يرون كيف تنتزع أرواح الآباء ونسوة يخدشن الوجوه . ويشققن الجيوب . والدنيا كلها فى مأتم لمصابهن ، فما هى مهمة الصحافة الوطنية فى هذه الحال ؟ لا شك فى أن واجب الصحفى أن يذكر الحكومة بفظاعة هذا القانون الجائر . وأن يرفع الصوت عاليا مدويا بأن بقاءه وصمة عار . . »

* * *

بهذه العبارات النارية التى كتبها « عبد العزيز جاويش » فى اللواء لمناسبة

ذكرى حادث دنشواى فى ٢٨ يونية ١٩٠٩ مهاجما بطرس غالى وفتحى زغلول وهما من قضاة دنشواى . وقد كانا فى ذلك الوقت من كبار المسئولين إذ كان بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة رئيسا للحكومة وفتحى زغلول أحد قضاتها وكيلا للحقانية .

ولكن هل خرج عبد العزيز جاويش من السجن ليعتزل أو ليخفف لهجته ؟ كلا . . فقد حمل وسام الشعب واندفع ليصاول . . وكتب مقدمة كتاب وطنيتى الذى أصدره السيد على الغاياتى سنة ١٩١٠ فدخل السجن مرة أخرى .

وقد عاس عبد العزيز جاويش ثائراً صادق الوطنية . هو كتلة من الأعصاب والعاطفة . وكان يستمد حماسته السيأسية من إيمانه الدينى .

ولم يدع عبد العزيز موقفا من المواقف الجلل دون أن يعلن فيها رأيه قوياً مدوياً . كان هو الصوت المدوى عندما بعثت الحكومة قانون المطبوعات وكتب يرثى القلم فقال : « أيها القلم : لو كنت سيفا لأغمدتك فى صدور من يحاربونك . أو سهما لأنفذتك فى أعماق قلوبهم . ولو كنت جواداً لوجدت لك فى ميادين النزال مجالا للكر والفر . ولكنك ذلك العود الذى أيسر ما ينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراه أو بالأصابع فيكسره . فليكن أيها القلم ما شاءوا لك . إما نائما إلى حين وإما ميتا أبد الآبدين . فقد تركت عيونا لا يغروها النوم . وقلوبا لا يملكها اليأس . وأيدياً لا تخاف السلاسل والأغلال . وأرواحا تقوى بالحرية والاستقلال . . »

* * *

كانت هذه المواقف سبباً فى اضطهاد عبد العزيز جاويش . فقد كان قلبه من نار .

وقد عاش عبد العزيز فى أوربا شريداً لا يملك شيئا ، ولم يترك لعائلته شيئا ، حتى اضطرت أن تبيع كل ما تملك من أثاث . ولم يأبه لذلك ، وإنما مضى يخطب فى سبيل مصر ويدعو لها .

لقد فر الشيخ عبد العزيز من الآستانة ـ وهو مصاب بالحمى الإسبنيوليه ودرجة حرارته ٤٠ ـ مع رفاقه من المصريين فى باخرة أقلتهم إلى روسيا ثم استقلوا من الشواطىء الروسية قطاراً من قطارات الحيوانات وقضوا خمسة عشر يوما فى هذه العربة بين الخنازير والروائح الكريهه . وكان معه فى هذه الرحلة : محمد فريد وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد وفؤاد سليم . وكانوا قد اضطروا بعد أن نفذ المال منهم أن يلجأوا إلى الإحتطاب فى الغابات والجبال لولا أن أنقذهم أحد أصدقاء عبد العزيز بأن اقترض لهم مبلغاً من المال .

* * *

لقد بدأ الشيخ عبد العزيز جاويش جهاده باكراً . واشتغل فى فجر حياته مدرساً للغه العربية فى جامعة إكسفورد . ووضع كتابه المعروف « الإسلام دين الفطرة » ، وقد ترجم إلى الإنجليزية .

وكانت لعبد العزيز مواقف فى زلزال سينا . وفى الحركة التعاونية ، وفى الإصلاح الاجتماعى .

عبد الرحمن فهمى

عملاق ثورة ١٩١٩

.. وانبثقت شرارة الثورة فأسفرت الطبيعة المصرية الحرة عن أمجد خفاياها .. وكان من أروع هذه الأمجاد « عبـــد الرحمن فهمى » الرجل الذى خلفه الوفد المصرى وحده فى الميدان حين ارتحل ـ برياسة سعد زغلول ـ يناشد الضمير العالمى احقه المقدس فى الحرية والكرامة والاستقلال .

وقاد عبد الرحمن فهمى حركة المقاومة الشعبية ، ونظم المقاطعة الإجماعية التى بهرت أنظار العالم وأطاشت أحلام المستعمرين !

وحين تنكر رجال السياسة الدولية لمبادئهم .. وأوشك الزعماء المصريون أن يدركهم اليأس . أبرق لهم عبدالرحمن فهمى ـــ بالشفرة الوطنية ـــ قبيل مجىء لجنة ملنر أن يبقوا وهو الكفيل بحفظ الروح الوطنية فى عنفوانها وبان يرد لجنة ملنر على أعقابها خائبة .

وبر عبد الرحمن فهمى بوعده وتلق المستعمرون ضربة ترنحت لها رؤوسهم فدبروا مؤامراتهم الخطيرة ، وساقوا عبد الرحمن فهمى وأركان حربه إلى المحاكمة فى أكبر قضية وطنية عرفتها مصر .. وهى القضية التى أسميت « قضية الاغتيالات السياسية » .

ـــ هل رأيت هذه الأوراق (كشف بأعضاء الجمعية) ؟

ـــ نعم ..

ـــ هل قرأتها ؟

ـــ لا . لأنى أعرفها وقد وجدت عند (لبان السيد) وقد كان ذلك بحضورى

— هل تعرف جمعية اسمها «جمعية الانتقام» ؟

— نعم، وكنت عضواً من أعضائها !

— متى تكونت الجمعية ؟

— بعد وصول لجنة ملنر ، جاء جواب للطفى المسلمى من حامد المليجى بالاسكندرية ثم وصل ونزل فى لوكاندة النيل ، فاجتمعنا باللوكاندة وفكرنا فى تكوين الجمعية ، أنا ولطفى والمليجى ومحمود عبد السلام .. وبعدها ، قال لنا حامد ولطفى : إن توفيق صليب انضم للجمعية ، وكان غرض الجمعية تهديد الخونة .

— هل نفذ هذا الغرض ؟

— نعم ، كان لطفى يكتب كتبا على ورق منشورات وترسل لسعيد باشا وعدلى باشا ورشدى باشا ويوسف وهبه باشا وعبد الخالق ثروت باشا ، واللورد اللنبى والسير فالنتين لمشيرو ويحيى ابراهيم باشا والكولونل سيمز وخلاط بك والذى كان منوطا به توزيع هذه المنشورات هو محمود عبدالسلام

— ما هو غرض الجمعية الثانى ؟

— كان غرض الجمعية الأصلى تخليص مصر وإلقاء خطب وتوزيع منشورات ولكن بعد حادثة شفيق باشا ، عندما ألقيت قنبلة عليه ، قابلنا الشيخ محمد يوسف وقال : لماذا تضيعون أنفسكم باشتغالكم بالأوراق الأحسن أن تلجأوا إلى وسائل جمعية التدخين الإرلاندية ، وفى اليوم التالى ذهبت مع عبد السلام لمقابلة الشنتناوى بمنزله فى غرفة فوق السطح وتكلمنا عن هذا الموضوع ، وسألناه هل يستطيع الحصول على قنابل ، فأجاب بأنه مستعد لأن يعمل كل شىء وأن ينضم إلى الجمعية ، وفى الليلة نفسها ذهبنا إلى قهوة مع محمود عبد السلام وهناك تعرفنا بحلمى الجيار بواسطة حافظ جودت .

— هل اشترك حلمى الجيار فى الاجتماع ؟

— أول مرة قابلته بقهوة الجندى ، ثم اعتدنا الذهاب إلى لطفى المسلمى

وفى أول مقابلة تكلمنا معاً فى حكاية إسماعيل سرى باشا وقد قال لى : ألا ترى ما عملنا من الاستعدادات مكنت الطالب الذى رمى عليه القنبلة من الهرب ، وفى اليوم التالى أخبرنى لطفى المسلمى أن حلمى انضم للجمعية ، وفى اليوم التالى اجتمعنا فى منزل لطفى ، أنا والشنتناوى ومحمود عبد السلام وتوفيق صليب وحلمى الجيار وكامل جرجس عبد الشهيد ومحمود عبد الرحمن ، ويحتمل أن كامل أحمد كان هناك وعبد الحليم عابدين كذلك .

ــ ماذا كان موضوع بحثكم فى هذا الاجتماع ؟

ــ لما كنا نتكلم قال الشنتناوى : أريد أن يكون لى علاقة بالمنشورات ، ولا أشتغل بها فإذا كان عندكم شىء مهم تعالوا لمنزلى ، يعنى إذا كان ضرب رصاص أو رمى قنابل ، وقد قال توفيق صليب : إن من يريد مشترى أسلحة فأنا مستعد أن أساعده ، وقد قسمت الجمعية إلى ثلاثة أقسام : قسم للخطابة والنشر ، وقسم لتوزيع الأسلحة ، والثالث لإلقاء القنابل ، وقد اختص لطفى المسلمى بقسم الخطابة والنشر .

واختص بتوزيع الأسلحة توفيق صليب ومنير جرجس ، والقسم الثالث أى إلقاء القنابل حسن الشنتناوى وحلمى الجيار وآخرون لا أعرفهم .

ــ كيف حصلوا على المال ؟

ــ أخذوا نقوداً من مدكور باشا وعبد الرحمن فهمى بك .

ــ كم أخذتم من عبد الرحمن فهمى بك ؟

ــ كان أكثر النقود التى أخذناها منه من فئة خمسة جنيهات أخذها كلها محمود عبد السلام ، وكانت له غرفة خاصة بلجنة الوفد الموجودة فى منزل سعد باشا .

ــ ماذا كانت وظيفتك فى الجمعية ؟

ــ كنت أجمع الأخبار وأحمى لطفى وعبد السلام من الجواسيس «ضحك اشتركت فيه المحكمة »

ـــ متى ذهبت لمنزل عبد الرحمن بك فهمى ؟

ـــ فى شهر جمادى السابق لشهر رجب وقال عبد الرحمن بك أن البلاد يجب أن تطهر من الخونة .

ـــ هل سمعت شيئا عن شخص مخصوص ؟

ـــ كنت جالسا مع ناشد غبريال بقهوة الشيشه فجاء توفيق صليب ومحمود عبد السلام ومعهما شخص ثالث اسمه فؤاد ، وبعد أن قالوا ليلتكم سعيدة وجلسوا قالوا إن هذا الشخص ـ فؤاد ـ فدائى ، وقد اتفق على أن يرمى قنبلة على نسيم باشا ، والتقميت بحسنى الشنتناوى . ونحو الساعة العاشرة ذهبت إلى منزل توفيق بك شهاب الدين وأخبرتهم أن بعضهم ينوى قذف الباشا بقنبلة

ـــ فى إحدى الأوراق التى ضبطت بمنزل لطفى المسلمى وجد اسم منسى بتار

ـــ نعم أعرف عسكريا أستراليا من الذين هربوا من الدردنيل ، وكان يعرف اللغة العربية جيداً ، وقد قدم إلى القطر المصرى فى إحدى الليالى وقد قابله لطفى المسلمى وتكلما معـــا باللغة الإنجليزية وقال لى لطفى يوجد عسكرى أسترالى من الفارين من الدردنيل يطلب ٥٠ جنيها مقدما من أصل ٢٠٠ وقد قبل أن يضرب اللورد اللنبى ويوسف وهبه باشا بمسدسه .

* * *

من هذه العبارات التى رواها (عبد الظاهر السمالوطى) شاهد الملك تتكون الخطوط العامة للمؤامرة التى دبرها الإنجليز لعبد الرحمن فهمى بك . . بعد أن عجزوا عن إيقاف جهاده .. واتهامه ! وهذا الذى رواها وقال إنه كان ضمن أعضاء الجمعية وخانهم وأفشى سرهم ، لم يكن إلا جاسوساً مأجوراً للاستعمار الذى أغراه بتلفيق هذه الاتهامات لمحاربة الحركة الوطنية ثم وضع لها لافتة ضخمة أطلق عليها « قضية المؤامرة الكبرى »

لقد كانت دار عبد الرحمن فهمى بك بالقصر العينى من منتديات الثورة ، بل من معاقلها المنفردة .. التى نبتت فيها بذور الحركة ، وأسست أهدافها ، ونظمت خططها .

فاذا قرأت تاريخ الثورة المصرية ١٩١٩ وهالتك الأسماء .. اللامعة البراقة ، فلا تصدق . لقد كان وراء هذه الأشباح التى ظهرت على المسرح .. عملاق ضخم ، هو عبـــد الرحمن فهمى ، الذى لم يكن يعرفه إلا القليل .. والذى قاد حركة المقاومة الشعبية الضخمة بعد الثورة .

.. لم تكن الثوره التى اشتعلت فى مارس ١٩١٩ وانتهت فى مايو ، هى كل شىء .. كان ذلك هو اللهب المتصاعد ، فلما خبا ، بدأ العمل المنظم الهادىء ، الذى لا يعرف المظاهرات ولا التجمعات ولا الهتافات ، بدأت المقاومة التى كان لها أبعد الأثر فى الأحداث التى حققها من بعد .

كانت النشرات والصحف السرية ، وكانت الأحداث المتعددة . . المنتظمة المتوالية . .

.. النار التى تحت الرماد ، وكان وراءها عبد الرحمن فهمى .

ولمـــا عجز الإنجليز عن إيقاف نشاطه ، استدعاه اللورد اللنبى وأبلغه أنه مسئول عما ينشر فى الصحف من منشورات تثير الخواطر ، وحمله تبعة ما يحدث من الحوادث المكدرة ، وطلب إلى رئيس لجنة الوفد ووكيلها مغادرة القاهرة فلم يأذن له .. بل طلب إليه أن يبقى فى القاهرة تحت المراقبة الشديدة .

ولـكن .. لم يغن ذلك كله شيئا .

وهنا ابتـكر الإنجليز هذه الطريقة العجيبة فى الاتهام .

وأعادوا المحكمة العسكرية .. وقدموا إليها .. عبد الرحمن فهمى بك . . ومعه سبعة وعشرون من الشباب .

وشكلت للمحاكمة ، محكمة عسكرية عليا مؤلفة من خمسة ضباط .

وفى ٦ أكتوبر صدر الحكم ، وكان كما توقعه عملاق الثورة عبد الرحمن فهمى ، حكم عليه بالإعدام . . فاستقبل الموت بالابتسام . . واستهان به ، كان حريصا على الموت فوهبت له الحياة . . وعدل الحكم إلى ١٥ عاما ، ثم أفرج عنه فى ربيع سنة ١٩٢٤ . . كما أفرج عن جميع المتهمين معه .

. . ذلك هو البطل عبد الرحمن فهمى بك . . بطل الثورة من وراء سطور الكتب ، وعملاق الحركة من خلف الضجيج والعجيج .

سيد درويش

هى عادة الشرق التى لا تتخلف أن يعيش العبقرى مغموراً ويحيا مظلوما . . فإذا قضى ورجع إلى الدار التى لا مطمع فيها ولا أمل .. ذكره الناس وأشادوا به وخلدوا ذكره وسارت آثاره فى الناس مثار الأمثال على كل لسان .

. . هكذا كان سيد درويش يعيش الحياة الضيقة ويتناول الرزق المحدود ومن وراء ذلك الواقع المر ، يعيش القلب المضطرم بالفن يرسل الألحـــان والموسيقى والأنغام .. فلا يجد لها صدى ويرددها فلا تلقى سميعا !

ومضى الرجل ينفق من أعصابه ودمه وروحه ، لا ترده الشدة ولا الحاجة عن إيمانه بالفن حتى انتهى أمر دنيا، . ثم جاء اليوم الذى عرف فيه الفن قدره وآثره فأخذ الناس يذكرونه ومضى النقـــاد يمجدونه وبدأ الـكتاب يخلعون عليه آيات التقدير والثناء .

والحق أنه إذا ذكر فن الموسيقى والغناء وما وصل إليه من دقة وسلاسة وصفاء ، فلا شك أن سيد درويش فى مقدمة من عبد الطريق ومهد السبيل ووضع الأساس .

نقل سيد درويش الغناء من السجع والتقليد إلى البساطة والتجديد . . وأعطى مقطوعاته روحا من الحرية والطلاقة والإشراق فتحت آفاقا جديدة من الفن والغناء .

وأدخل إلى الغناء التعبير النفسى واتسمت ألحانه بالمرح والسرور بعد أن كانت الألحان القديمة تحمل معنى الحزن والـكآبة .

وقد وقف نفسه على فنـــه وأخلص له . وكـانت آذانه تلفظ الأصداء البعيدة لتحيلهـا موسيقية حتى ليروى عنه أنه كـان يبيت على شاطىء البحر

ليالى عمر يرقب الموج ويستمع إلى هدير البحر وأصداء الرياح .

وقد أعانه على الإبداع أنه نشـأ فى الوسط الشعبى فانطبعت فى نفسه ملامحه ومعالمه .

وقد أحب فى مطلع شبابه فسق الحب فنه رحيقا من الذوق والحنين . . وتدفقت من أعماق نفسه عوامل الطموح التى جعلته يرق ويتطلع ويجيد . وقد منحت الطبيعة سيد درويش الصوت الجهير والحنجرة القوية والجبين المشرق . فكان ذلك من أسباب نجاحه وخلوده .

ولد سيد درويش بعد الاحتلال بعشر سنوات فى حى كوم الدكة ، فما أن بلغ مطلع الشباب حتى اندلعت ثورة ١٩١٩ فكان قيثارتها التى أبدعت ألحان الوطنية فجرت على كل لسان وتحرك بها كل فم .

وأحب تلاوة القرآن وكان صوته جميلا . وكان قد كلف بأذان الفجر فى حيهم . فلما بدأ يغنى كان يضع كلمات أغانيه وألحانها وموسيقاها ثم يغنيها فكان يدفع إليها من روحه طابع النفس الحساسة والروح الدافعة والطبيعة الحية التى تهتز للجمال .

وكانت أغنياته تصل إلى أعماق ا الحياة الحيوية الخالصة :أغنيات البنائين والحمالين وسائقى العربات وسقائى الماء والباعة المتجولين وسماة البريد ، فاذا غناها أحسست أنك تعيش فعلا مع هذه الطوائف وتحس باحساسها .

وكانت هذه هى علامة الخلود .

وقد اتسع له العمل فى المسرح أن يطوف بفلسطين وسوريا ولبنان . . فأكسبه ذلك طرافة فى الذوق ، ولطافة فى الحس ، ورقة فى الشعور ، وتجربة وخبرة لأغانى هذه الأقطار . وكان الشيخ سيد قد انتقل فى هذه الفترة إلى

القاهرة ولكنه ظل اسكندريا صميما يحمل ذلك الطابع الذى يفتنك فى أبناء الثغر .

وقد أتيح له فى خلال السنوات الست التى قضاها فى القاهرة أن يضع عشرون أوبرا كانت كلها من أبدع آيات الفن . ولعله هو أول من اقتبس من الأوبرا الغربية على اعتبار أن الموسيقى لغة عالمية .

ولم يعط الزمن « سيد درويش » من العمر ما يمكنه من أن يتم رسالته ، فقد مات فى الحادية والثلاثين شأن العباقرة . ولو طال به العمر لملأ الدنيا فنا وخلف مئات من القطع الموسيقية الرائعة .

وإنه ليكفيه أنه ألهب الشعور الوطنى إبان ثورة ١٩١٩ فكان عاملا قوياً من عوامل التأثير الجماهيرى الضخم الذى ما زال يشهد له به كل من عاصر الثورة من طوائف الشعب.

لقد شارك فى ثورة ١٩١٩ كبطل من أبطالها ، كان يندس بين المتظاهرين ليغنى لهم أغنياته الحماسية ، كل يوم لحن جديد ، كان صوته الجهورى وكلماته الثائره تملأ قلوب الشباب .. فيندفعون ليأخذوا رصاص الإنجليز فى صدورهم

قوم يا مصرى مصر أمك تناديك
خذ بناصرى نصرى دين واجب عليك
أوع مجدى يروح هدر قدام عينيك

ومن إبداع سيد درويش لفنه ما يرويه عنه بديع خيرى عندما قدم له زجلا عن السقائين قال : فاستصحبنى معه ثلاث مرات فى الفجر إلى إحدى الحنفيات العمومية فى جهة اسمها « حيضان الموصلى » بناحية الأزهر واندمج مع السقائين يتودد إليهم ويستمع إلى مناداتهم عن قرب ، فجاء لحن السقائين

من أروع ألحان سيد درويش وقد فعل مثل هذا عندما وضع لحن المراكبية إذ كان يذهب إلى إمبابه ويجالس أهل هذه الحرفة حتى تشرب روحهم .

وقد عاش سيد درويش فقيراً ولكنه كان عزيز النفس ، فقد ظل لا يجد مكانه الحق . بينما حاربه الملحنون المحترفون . وبالرغم من الفقر حرص على أن لا يقف موقفاً مهيناً أو يضحى باصالة فنه فى سبيل لقمة العيش .

طلعت حرب

« إنها دنيا جهاد ، دنيا تمر وتحلو مراراً . وتقبل حينا وتدبر أحيانا ، فلا تجزعوا إذا أمرت أو أدبرت . ولا تطمعوا إذا احلوت أقبلت واشكروا الله على كل حال ولكل شيء قيمة . للاخفاق درسه وعظته . وللنجاح حلاوته وبشراه . فأحسنوا كل ما يوكل إليكم من جهد الطاقة وأتقنوه قدر الاستطاعة »

هذه هى الكلمات الأخيرة التى ختم بها طلعت حرب حياته بعد أن اعتزل العمل فى البنك الذى أنشأه وأذاب فيه عصارة عمره . تعطى صورة نفسه . صورة الرجل المجرب العميق التجربة الذى عرف الحياة فزهد فى الحياة . الرجل الذى بدأ صغيرا ثم بلغ القمة . وفتح لمصر باباً جديداً من أبواب النهضة والاستقلال والمجد لم يسبقه إليه سابق . فهو رائد الاقتصاد المصرى الخالص لا شك فى ذلك ولا ريب . وأن كل من جاءوا بعده تلاميذ له وأتباع .

وكأنما قد تفتح خاطر طلعت حرب منذ شبابه الباكر إلى هذا الأمل . فظل يعيش له . والأمل يغمر نفسه . لا يذهب ولا ينطوى سنوات وسنوات .

فقبل إنشاء البنك بأكثر من خمسة عشر عاما . كانت فكرة المصرف الوطنى قائمة فى نفسه ومتمكنة وواضحة . فقد أصدر عام ١٩٠٧ كتاباً كشف عن حاجة البلاد إلى بنك وطنى بمال المصريين تعمل فيه أيد مصرية وتستخدم فيه اللغة العربية . وفى كتابه هذا نبه الأذهان إلى الأموال الوفيرة العاطلة التى يستثمرها الأجانب فى غير صالح مصر والمصريين لتعزيز الاقتصاد القومى .

وظل طوال هذه الفترة يبشر بالفكرة فى أوساط الأثرياء ويدعو إلى دعوته ويناقش ويقنع حتى جاءته الفرصة التى طالما ترقبهـــا . كانت هذه الفرصـة هى ثورة ١٩١٩ وما تلاها من اتجاه وطنى انتهى بحركة المقـاطعة للبضائع الأجنبية !!

وهنا أعلن طلعت حرب افتتاح البنك فى مايو ١٩٢٠ .

وخطب فى المؤسسين قائلا لهم : إن البنك لم يقم فى مصر إلا ليسد النقص الظاهر فى مرافق البلاد الاقتصادية وليقيم بناء الصناعات . وأنه سيعتمد فيها على ثقة المصريين فى البنك وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض»

وقد دفعت حركة المقـــاطعة المصرف المصرى إلى الأمام فانتقلت إليه أموالهم من البنوك الأجنبية . واستطاع طلعت حرب أن يسير فى محيط الاقتصاد الذى كان يسخر من رأس مال البنك القليل الذى لم يتجاوز ثلاثة أرباع المليون بحذر وقوة ولباقة حتى استطاع بعد سنوات أن يركز اسم مصر فى الميدان .

وبدأ بعد خمس سنوات فى إنشاء الشركات . وفى خلال هذه الفترة لم لم يكن يحصل على مليما واحداً أجراً له . ولولا أن حملة الأسهم ألحوا عليـه أن تـكون له مكافأة عن هذا الجهد الشاق الذى يبذله فرضى أخيراً ولكنه رفض أن يأخذ مليما واحداً عن الأعوام الماضية .

فاذا ذهبنا نستعرض عمل طلعت حرب فى الميدان الاقتصادى وجدنا آثاراً ملموسة قوية من أهم نتائجها حماية الثروة المصرية من الانهيار ورعاية الأسر والمحافظة على البيوت .

وكانت له جولة فى أنحاء البلاد يكررها سنويا للتعرف إلى أحوال عملائه وتطورات حياتهم وأعمالهم . وكان يعرف أزماتهم ومراكزهم كما يعرفونها

هم تماما ، وكان حدبا عليهم يؤجل لهم ويخفف عنهم . وكان إلى ذلك يقظا يحيط مشروعاته بالحراسة الروحية . وقد نجحت مساعيه في بريطانيا حين أحست مصانع الوطن هناك بالخطر نتيجة لإنشاء شركة الغزل ، ولم يقف عمله في ميدان واحد بل استوعب كل الميادين : الطيران والقطن والكتان والحرير والأسماك والرخام والبن والسينما ووسع نطاق عمله في سوريا ولبنان والحجاز . وقدم خدمات للمصريين والعرب لا تحصى . وأنشأ مدرسة من الشباب المثقف الذى أصبح يجيد صناعة البنوك .

والحق أن طلعت حرب صنع هذا الهرم الضخم من البنك وشركاته دون معاونة . فقد وقف منه كل من فؤاد وسعد زغلول موقفا سلبيا .

وهو أول من فتح باب التصنيع لمصر حين أنشأ مصانع المحلة وكان وراء مجد طائفة من الشباب اللامع أمثال بدرخان وسالم ، وقد أعد المصريين للصناعات وأرسلهم بعثات إلى أوربا . ومصر الصناعات ووحد بين البلاد العربية قبل أن تتجه الساسة إلى هذا الهدف البعيد .

فاذا عدنا إلى شخصية طلعت حرب وجدناه إنسانا ممتازا له خلق وشخصية واضحة أبرز ما فيه بساطته وتواضعه . وهو إلى هذا أديب تبدو بلاغته في بياناته الاقتصادية . فقد بدأ حياته كاتبا وله مؤلفات في نقد قاسم أمين . وله مكتبة ضخمة فيها نفائس من كل علم . وقد استوعب كثيراً من الآثار الأدبية وكان تلميذا لحفني ناصف . وقد اتصل بالصحافة حينا وكتب في الجريدة وأحب الشعراء والأدباء وكان معنيا بتكريمهم . وله جولات في الموسيقى والفن والسينما وكان صديقا حميما للطائفة من قادة الفكر كشوقى ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعمر لطفى .

وكان كلفا باللباس العربى والطراز العربى في البناء على الصورة التى بنى بها بنك مصر ، وقد رغب في أن يجمع محفوظات حفنى ناصف وآثاره ليذيعها في الناس ، وكتب شعر حفنى ناصف بخط يده ما تزال موجودة عند بعض الأدباء .

وقد عرف بالوفاء وطيبة النفس ، وكان إلى ذلك قوى الإيمان بالله ، حريصاً على التقاليد قوى الذاكرة ، حاضر البديهة قل أن ينسى إنساناً التقى به مرة واحدة . يفرق بين العمل والقرابة . وله صبر وجلد فى العمل لا يبارى

وقد ظل قويا لامعاً حتى جاءت أزمة سنة ١٩٣٩ حين تألبت عليه السياسة والاستعمار فأخرج من البنك الذى أنشاه وهو فى أوج قوته حتى أنه كان يقول : لقد مت ولم أدفن !

وكان لطلعت حرب أمل ، هو حصر سندات الدين المصرى فى أيدى المصريين حتى تتحرر البلاد وقد تحقق أمله بعد موته .

مختـــار

عندما هرب محمود مختار من قريته وهو فى سن السابعة عشر إلى القاهرة كان يكتب الخط الواضح فى حياته كلها ويرسم مستقبله كله . فقد أتيح له بعد،أن يدخل مدرسه الفنون وأن يسافر إلى باريس ثم يعود ليصنع مجده .

ولعل هذه الفكرة الوطنية التى عاشت قوية فى ضميره حتى أيدعها فى هذه االوحات الرائعة ترجع إلى اتصاله بمصطفى كامل وارتباطه بالمعانى القويةالتى آمنت بها هذه المدرسة فظلت مداداً للثورة سنة ١٩١٩ التى اشترك فيها مختار وقبض عليه وسجن .

فقد انطلق فى حماس مع المتظاهرين واندمج فى حركة الطلبة ويوم العمال . وقد دفعه حماسه عندما شاهد حكمدار القـــاهرة الإنجليزى وهو يدهم جموع المتظاهرين فى ميدان المحطة أن انقض على حصانه وضربه بقوة فهوى به إلى الأرض فألقى القبض عليه .

فلما سافر إلى باريس واحتجبت عن عينه صورة مصر بدأت تعيش فى خياله حقيقة واقعة كانت مصدر الوحى فى التمثال الذى أقامه هناك لمصر الثائرة وهى تتأهب لاستلال السيف من غمده وتتهيأ لنضال أعداء الوطن .

وكان محمود مختار قد ولد فى قرية نشأ بريف مصر حيث ملأت نفسه الطبيعة الريفية الجميلة فى هدوئها وصمتها وبساطتها . فكانت عنصرا فعالا فى تكوين استعداده الفنى بالإضـــافة إلى ما تحمله الحياة الريفيه نفسها من عناصر أخرى منها قصص الأساطير وشاعر الربابه وموسيقى الساقيه وشاطىء الترعه وشجر الجميز . . كل هذا الذى انطبع فى خيال مختار فصبه بعد ذلك فى تماثيل رائعة ما زالت تأخذ مكانها فى تطور الزمن .

وفى باريس أحب مختار . وكانت عاطفته عاملا من أسباب نجاحه . أحب « مارسيل » التى سعدت روحه بعد أن عاش فى صراع بينها وبين أختها الأخرى مما سجله فى مذكراته حيث يقول « كنت أسكن بولفار رسباى بحى مونبار ناس وأتناول طعام الغذاء عند عائلة متوسطة المال . مكونة من سيدة كبيرة لها بنت فى العشرين وأخ وابنة أخ فى الثانية والعشرين . وكانت بنتها جميلة المحيا حقاً أما بنت أختها فليست من الجمال فى شىء . ولكنها كانت مع ذلك تنتصر فى كل مجال بما حباها الله به من ذكاء وخفة روح . فقد كانت ممتلئة حيوية وفطنة .

وجعلت ألاحظهما وأدرسهما كفنان ، وكثيرا ما وجدت جمال النفس ينتصر على جمال الجسم . وهذا مما يثبت بداهة ، ما يجب على الفنان عندما يريد تصوير إنسان : أن يتغلغل فى قراره نفس الشخص الذى عليه تصويره أو تمثيله . . فن القواعد المعروفة والتى كانت تدرس لنا أن الشبه وحده لا يكفى للدلالة بل هى الروح والخلق التى يجب نزعها وإخراجها على وجه الشخص ، فلما شرعت فى عمل تمثال لكل منهما جاء عاملان حالا دون الوصول إلى النتيجة التى كنت أنشدها . وربما كانت الخيرة فيما وقع . وأنا الآن وقد فاتت نزعة الشباب ذلك لأنى كنت متحمساً فعلاً للنتيجة . ولكن ترى هل كان تكوينى يومئذ يمكننى فعلا من الوصول إليها . . ؟

أما العامل الأول فهو أنى كنت قد بدأت أميل إلى التى كانت غير جميلة فجعلنى هذا الميل أراها أجمل مما هى . وكان العامل الثانى إعلان الحرب الكبرى فنزحت العائلة عن باريس إلى مسقط رأسها فى الأقاليم . . »

وعاد مختار إلى مصر حيث بدأ يقيم تمثال نهضة مصر سنة ١٩٢٨ ثم رجع مرة أخرى إلى باريس حيث أمضى هناك ثلاث سنوات صنع فيها عددا

ضخما من التماثيل عرضها فى معرضه بباريس .

وكان أمام مختار عملا كبير ما زال ينتظر هذا الفنان البارع لولا أنه مرض وتجمدت يده ، فعــــاد إلى مصر حيث مات فى مصر فى ٢٧ مارس ١٩٣٤ ، وهناك على الشاطىء الآخر كانت تقف مارسيل لتبكى حبها الذى ذهب .

كانت مارسيل هى مصدر الوحى لهذا الفنان الذى جدد الفن المصرى وبعثه قوياً حياً وترك فيه آثاراً لا يقوى الزمن على إنكارها .

ولم تزل تماثيل الفلاحة وطارق وأبو الهول حية تدفق بالحياة .

تراجم شرقية

إقبال
جناح
غاندى
طاغور
أتاتورك
تولستوى

اقبـــــال

الشاعر الذى اهتدى إلى طوبيا ــ الباكستان ــ ومات قبل أن يراها حقيقة واقعة .. لا أعتقد أن شاعراً عقد رؤيا وتحققت على أوسع نطاق كما وقع لحلم إقبال . إن جناح قد سار على هدى إقبال و نفذه على الطبيعة ، ذلك الأمل الذى نظمه الشاعر الكبير . وكان جناح يشيد باقبال ويقول : إنه دليلى ورفيق .

دعا إقبال إلى الباكستان عام ١٩٣٠ وجاءت الرابطة الإسلامية التى يتزعمها جناح عام ١٩٤٠ تنادى بتحقيق حكم الرائد الأول .

ولست أرى فى تاريخ الشرق كله شاعراً أفلح فى أن يكون سياسياً كما أفلح إقبال ، ذلك لأن بين السياسة والشعر مدى واسعاً ، السياسة بأساليبها الواقعية ومناوراتها وعواصفها ، والشعر بموسيقاه وفنه وروحانيته .

عمل إقبال فى حزب عصبة مسلمى الهند . ورأس مؤتمره المنعقد فى « الله أباد » عام ١٩٣٠ ووضع أسس باكستان فى الخطاب الذى افتتح به المؤتمر حيث قال : « أود أن أرى البنجاب وولاية الحدود الشماليه الغربيه والسند وبلوخستان دوله واحدة مستقلة » .

ولد إقبال عام ١٨٧٦ وسافر إلى أوربا عام ١٩٠٥ فتعلم القانون فى بريطانيا ودرس الفلسفة فى ألمانيا ومع أنه نشأ فى بيئة مترفه فانه بلغ فى الفهم إلى أعماق ضمير الإنسانيه واهتدى بالقلب والعقل معاً .

ولعل من أسرار حياة إقبال التى دفعت به هذه الوجهة الإسلاميه الخالصه ما ذكره من توجيهات والده قال : « عودنى أبى تلاوة القرآن الكريم بعد

صلاة الصبح فى كل يوم . وهو كل ما رآنى سألنى ماذا أصنع فاجيب بانى أقر القرآن . فيقول كلمته الخالدة : « إقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك » .

يقول اقبال : « منذ ذلك اليو بدأت أفهم القرآن بروح جديدة ، وقد كان ملهمى فى كل ما نظمت .

عندما عاد اقبال من أوربا عمل محاميا ، ولكن الأدب والشعر الذى أحبه دفعه عن ميدان القانون الى ميدان الأدب . وبعد أن كان ينظم باللغة الأورديه بدأ ينظم بالفارسيه نظراً لأنها اللغه التى توصل الى أكبر عدد من المسلمين ، وكان آخر شعر قاله قبل وفاته فى ١٢ ابريل ١٩٣٨ يحمل معنى ايمانه : « أريد أن أقول لكم ما علامة المؤمن ،انها بسمة على شفته عند الأجل المحوتم »

* * *

ان حياة اقبال فصولا وجيزة . حياة سهلة مبسوطة لا عقد فيها ولا مفاجئات ، ولكنها غنية خصبة عميقة الغور ، انه ولد فى البنجاب . وتعلم ووصل فى الثقافة الى درجة عاليه ، فلما رحل الى أوربا وحمل الدكتوراه فى الفلسفة وعاد منعه ضعف قوه ابصاره من العمل فى الحكومه فاندفع الى الهدف الذى وطد نفسه له وهدته فطرته اليه وهو الشعر الإسلامى . ان بيئته الإسلامية التى ربى فيها ، وهذا الفهم العميق الذى أهداه اليه والده عندما قال له كلمته الخالدة : « اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك » تدل على مدى خصب البيئة الأولى للعمل الروحى ، وللاتجاه الإسلامى الخالص ، فلماذهب الى أوربا زادته معرفته بها قوة على رغم فكرته وتكوين عقيدته التى عاش لها طوال حياته . وهو الإيمان بالشرق .

لقد درس كل فلسفات الغرب وثقافته . ثم آمن أخيراً بأننا نستطيع فى الشرق أن

فاخذ ونستطيع أيضا أن نعطى وأن لدنيا الكثير وأننا يجب أن نؤمن بأنفسنا . وعاش فى معانى القرآن والروحية وحاول محاولة صادقة أن يمزجها بالحياة والحضارة والفكر ونجح فى محاولته إلى حد كبير .

نعم آمن إقبال بالشرق وجعل الروحية الإسلامية مادة شعره فهو شاعر « إنسانى » أولا وقبل كل شىء يؤمن بعالمية الحضارة . ويرى أن من حق الشرق أن يأخذ منها خيرها على أن يحتفظ بمقومات شرقية فى حدود « ضبط النفس » و « طاعة الشريعة » و « التقرب إلى الله » ثم هو إلى ذلك شاعر الحب الإنسانى الرفيع المنزه عن الشهوة والهوى ، الحب الذى يعز الشخصيه الإنسانية ويقوم الذاتيه الفردية . وشعره ينتظم الفلسفة والتصوف والحكمة فى مزاج معتدل وفى صياغة موسيقية عذبه . وهو يؤمن بأن الفن للحياة خالصا .

ويصور الدكتور هيكل ، مذهب اقبال فى نظريته الذاتيه التى آمن بها ودافع عنها بقوله : « الذاتيه عنده هى الروح المنشىء الذى أودعه الله الانسان وجعل العمل والدأب قيه وسيلتنا إلى انتشار هذه الروح فيما حولنا وإبراز ما تنطوى عليه نفوسنا من قوة وخير وكما ينمو جسمنا حتى يبلغ تمامه ، وكما تزدهر الشجرة وتثمر . كذلك يجب أن تنمو الذاتيه حتى تبلغ كمالها . ويجب أن تزدهر وتثمر وهى لا تنمو بحكم الطبيعة كما ينمو الجسد ، بل هى تنمو بالسعى والعمل الدائب الذى لا ينقطع . ونموها وازدهارها وأثمارها هو الذى يجعل للحياة قيمتها وهو الذى ينشىء فى الحياة جديداً . وهو الذى يضفى علينا القوة ويجنبنا تحكم الغير فينا . أما القعود عن العمل فيجعلنا عالة على غيرنا نتسول من فضله ونصبح أذلة له . ونفقد بذلك حريتنا .. »

وهدف إقبال فى مذهبه هذا هو أن يتحرر الشرق من سلطان الغرب وسيطرته الفكرية ، وقد صور إقبال رأية فى الحضارة الغربية فقال : « إن

الأفكار السياسية لأمم الغرب أحدثت انقلابالم يقتصر شره وشرره على الهند وحدها بل اندلع لهيبه وأحاط بالعالم الاسلامى كله . ويود شباب المسلمين اليوم تطبيق هذه المبادىء وإقرارها فى حياتهم العملية وهم منساقون إلى ذلك مسرعين دون أن يتبينوا البواعث من العلل والأسباب التى حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادىء ، وكان على هؤلاء الشباب أن يذكروا أن قيـــام المسيحيه بأوربا فى بداية أمرها كان يرتدى مسوح العزلة والرهبانية . ثم تبدلت الأمور فاتخذت الكنيسه شكل الحكومه المتجبره ومظهرها فى الدولة مما نشأ عنه قيام مارتن لوتر بثورة ضد الكنيسة ، على أن هذا الثائر لم ينشد بثورته إصلاحا سياسيا أو إحداث انقلاب وتغيير يمت إلى هذا المعنى بصلة ما اذ ليس للسياسة ولا لأنظمة الحكم أى ارتباط بأصول المسيحية . ولو تتبعنا الأمر على جليته لالتمسنا المعذرة للوثر ، على أننى أعتقد شخصياً أن لوثر نفسه ما كان يتوقع أن تكون نتيجة ثورته هذا الانقلاب الفكرى الجرىء الذى انتهى إلى تعددالمذاهب الخلقيه فكل ماصنعه باقامة ثورته أن مزق رباط الوحدة وفتح ثغرات جديدة فى دنيا المسيحيه وأصبح أنصاره أنفسهم شيعا وأحزابا يصعب حصرها على المتتبع ، ومن ثم أخذت الأمم المسيحيه تنفصل عن كل كل معنى إنسانى فى الإخاء والاتحاد ، وانزلقت إلى مضايق الحقوق القوميه والإقليمية والعنصرية والطائفية على أساس تفهم الحياه وتركيب معظمها على هذا الوجه وحده .

ولذلك ليس بمستغرب أن نرى انهيار صرح الأخلاق التى نادت بها وصايا المسيح فقد ذهبت كأن لم تكن بالأمس . وحلت مكانها فى حياة الأقوام أنظمة السياسة الجديدة وانحصر أمر الدين بأعماله ومعاملاته فى حياة الفرد داخل نفسه وفى حدود ذاته دون أى اتصال بالحياة الدنيويه ، ولكن

الإسلام يقرر أن الإنسان وحده كاملة دون فصل فى الأحكام والمصائر بين المادة والروح إنما هى أجزاء متعددة لكل واحد . . »

هذه هى روح الفلسفة « الإقباليه » وهو خلاصة المعنى الإسلامى الأصيل الذى ظل مطوياً من تضاعيف التقاليد والأوهام التى حملها الفقهاء والصوفية لحقيقة الإسلام حتى ناء بها .

جاء إقبال ليكشف عنه ، فكان رمز الانطلاقه الروحيه الخالصه لفجر جديد فى الشرق الإسلامى . .

جنــــاح

من ذا الذى يذكر الشرق فى دفعته القوية نحو مجده ولا يذكر علماً من أعلام الكفاح فى سبيل هذه السيادة والعزة ، هو محمد على جناح الذى كون دولة ضخمة دون أن يريق نقطة دم حتى استحق أن يطلق عليه لقب القـائد الأعظم والذى ما زال فى باكستان الرائد الأول لكل فروع النهضة وخيوط الأمجاد التى تتدافعها أيدى قادته لتصل به إلى القمة .

ولست هنا أريد أن أكرر ما نشرته الصحف والكتب عن جناح وجهاده السياسى الضخم فى سبيل إنشاء الباكستان . ولكنى هنا وفق منهاج الكتاب أدرس نفسية هذا الرجل . هذه النفسيه القوية المصممه التى صمدت للأحداث حتى استطاعت أن تحقق هدفها .

لقد أجمع خصوم جناح وأصدقائه على أنه كان قوى الشخصية باهر الشمائل وأنه كان طموحاً نزيهـــاً مستقيماً على حظ من الشرف الشخصى عظيم كما قال الدكتور كرشنالال أحد خصومه ـ الذى سجل فى كتابه عن الهند والغرب أنه لا يوجد رجل بذلت بريطانيا لإغرائه ما بذلت ما بذلت لإغراء جناح وكسب معونته فرفض جميع المغريات ومضى على نهجه فى الاستقلال » .

والحق أنه لم يتفق لرجل فى مثل ثراء جنـــاح أن يشغل نفسه بالعمل السياسى وأن يرهق نفسه بهذه المهام الخطيرة المجهدة ، لولا أنه كان يؤمن فى قرارة نفسه بوطنه وأخوانه الذين كانوا فى حاجة إلى أن يتحرروا وأن يحققوا أملا يملأ نفوسهم . ولذلك وضع كفايته وأعصـــابه وماله وجهده فى هذا السبيل مخلصاً ، وظل يدفع هذا الجبل الضخم مع إخوانه حتى زحزحه من

مكانه ، فذهب الليل والظلام ، وكشف عن الصباح والنور .

ولا شك أن محمد على جناح قد أعطى الشرق كله درساً فى الخلق . فقد كان الساسة يفصلون بين السياسة والخلق ، ولكنه جمع بينهما وربط بين الدهاء واليقظة والحرص وهما من صفات السياسى . وبين الخلق المتين والكلمة الصادقة والعهد الوثيق الذى لا يتخلف ولا يهن ما دام صاحبه قد أعطاه .

ولو كان غير جناح لما استطاع أن يصمد أمام إغراء بريطانيا ، لولا أنه كان يحمل نفسا عازفة عن الزخارف والألقاب والمطامع ، وكان غنيا بطبيعته الأصلية عن كل إغراء .

وقد جمع جناح بين خصلتين قل أن يجتمعا لإنسان هما الإيمان بالمثل العليا والتقيد بالنزعة العملية . وكما كان مؤمنا إلى أبعد الإيمان بدعوته متحمسا لها . كان لا يهمل الوسيلة إلى دراسة كل شىء والنظر فى كل أمر والاستماع إلى كل رأى . ويدل هذا ولا شك على قوة النفس وسلامة الفطرة .

وعرف جناح بحربه لسياسة العاطفة وإيمانه بمخاطبة عقول الجماهير بالحقائق المحسوسة لا بالألفاظ المثيرة التى تطير فى الهواء ولا تخلف وراءها فى أعماق النفس شيئا . وقد عرف عنه الاعتزاز بكرامته واحترام نفسه إلى أبعد حد .

ولقد كان لجناح داره الفخمة فى نيودلهى ، وكان محامياً ناجحاً بلغ ما تقاضاه من الأتعاب فى إحدى قضاياه مليون روبيه أى ما يساوى ثمانية آلاف من الجنيهات . وكان أنيقاً يلبس البدلة الإفرنجية البيضاء .. وقد تعلق بريطانيا وانضم إلى حزب المؤتمر الوطنى الهندى ، ثم أنشأ الرابطه الإسلاميه ، وقد قاسى الاضطهاد وسجن .

واتدأحب جناح ووجد هذه العاطفة الحلوة فعاش معها فى عش الزوج سنوات كانت من أسعد سنوات حياته العامرة بالكفاح والمتاعب .

ومن أبلغ مظاهر نفسيته أنه رفض أن يحصل على مرتب مدى ولايته للدولة ولا عن أسفاره إلى أوربا فى سبيل الدفاع عن قضية بلاده .

وقد تمتع بثقة غاندى وإعجابه حتى أنه هو الذى لقبه بالقائد الأعظم ؛ وكان سكرتير الحزب المؤتمر ، غير أنه لم يلبث أن عارض سياسته التى تهدف إلى عدم استعمال العنف وانشق عنه واحتضن مطالب المسلمين . وكان قد تبين لجناح بعد كثير من المتاعب أن الهندوس يتوقون إلى فرض سيطرتهم على المسلمين وأنه لا سلم ولا استقرار إلا إذا انفصل المسلمون فى كيان خاص .

وفى عام ١٩٤٠ نادى جناح بوجوب تأسيس دولة الباكستان فلقى معارضة الهندوس والبريطانيين جميعا ولكنه كان موقناً بأن هذا هو الحل الوحيد لاقرار السلام . وقد أنكر جناح أن العصيان المدنى يصلح وسيلة للكفاح وكان يقول بسلوك الطرق الدستورية القانونية حتى أنه لما قيل أن فى الهند الحكومة البريطانية وحزب المؤتمر صرخ بكل صوته قائلا : « ان فى الهند طرفا ثالثا هو الشعب المسلم » .

غاندى

٣٠ يناير ١٩٤٨

« ان ايمانى بالهندوكيه لايتسم بسمة الطائفيه ، وانما يشمل خير ما أحطت به من فضائل الاسلام والمسيحيه والبوزيه والمجوسيه ، ان الحق هو عقيدتى والبعد عن العنف وسيلتى ، ولقد كفرت بشريعه السيف الى غير رجعه »

سافر غاندى فى شبابه الى انجلترا ليدرس القانون ، وعاهد أمه على ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقرب امرأة ؛ ثم عاد الى أفريقيا فراراً من فشله ثم أقام فى ناتال .

وهنـا بدأ له الطريق الذى سار فيه إلى نهاية حياته ، ووجد مفتاح دعوته فقد كـانت أفريقيا تفرق بين البيض والملونين من سكانها .

وذات يوم كان يحمل تذكرة فى الدرجه الأولى ، فلما كان بالقطار أمره المفتش أن يدع مكانه حتى لا يضايق البيض الجالسين معه ؛ وأن يذهب إلى عربة الدرجة الثالثة ، فلما رفض غاندى انتزعه من مكانه قسراً وألقى به على رصيف المحطه حيث أمضى ليلة قارسة البرد فى حالة نفسيه أليمة .

فلما قص أمر ذلك على بنى وطنه ، قالوا له : انهم يعاملوننا بأقسى من ذلك .. هنا تفتحت نفسه الى هذا الحق المهضوم الذى يجب أن يكافح لاسترداده ومنذ اليوم بدأ يعمل ليرد الكرامه لبنى وطنه . وجرد نفسه للدفاع عن هذه الكرامه .

واستجابت طبيعته النفسيه التى قرأت المسيح الى أن عدم التعاون من غير عنف هو خير وسيلة يسلكها لهذه الغاية ، وبدأ العمل الايجابى بأن

أنشأ للهنود قرية فى مكان عملهم وعاش معهم فيها وأنشأ لهم جريدة تنطق بلسانهم يدافع فيها عن الحق الطبيعى لهم ، وكان يهتدى فى تجربة هذه القريه بالأسس التى دعا اليها تولستوى .

وقال غاندى : أن الهنود لن يتعاونوا مع الحاكمين اذا لم يعترفوا لهم بحقهم فقبضت السلطات البريطانيه على مئات الألوف منهم فلم يهن عزم غاندى حتى اضطروا الى مفاوضته .

وعاد غاندى الى الهند فى أوائل القرن العشرين ليكرر نفس التجربة فى الوطن الأكبر ، فلما لم تحقق له بريطانيا ما يريد ، بدأ بعد الحرب الأولى : يقاطع تجارتها ويدعو الى المغزل ليحرر الهنود من السيطرة الاقتصادية وكان يؤمن بالتعاون من غير عنف ، كما عمل فى نفس الوقت على تحرير الهنود من الصراع الطائفى فبدأ يحرر المنبوذين الذين يبلغون عشرات الملايين .

وبدأ معركة الملح فدعا الى الزحف فانضم له ألوف الألوف ، وظل يسير هو وأتباعه مسافه مائتى ميل حتى وصلوا الى داندى على ساحل البحر . وخاض فيه باقدامه ، وبعد أن ملأ دلوه من مائه ، قفل راجعا الى الشاطىء ليقطر ما حمله من ماء ويستخرج ما به من ملح .

وقد ألقت بريطانيا فى هذه الحركة باكثر من مائتى ألف فى أعماق السجون ، ولكنه انتصر اخيراً وألغى قانون احتكار الملح .

وعندما وقع الخلاف بين الهندوس والمسلمين فرض على نفسه الصيام حتى الموت ، وآل على نفسه ألا يرجع عن ذلك الا اذا انتهت الاضطرابات ولم تمض أيام حتى كف الفريقين ، وقد جعل من هذا الصوم سلاحه من كل خلاف بينه وبين المستعمرين فكان وسيلة لتحقيق مطالبه والنزول على رأيه .

وفى حياة غاندى أكثر من امرأة ، فيها آنى بيزانت الجميلة التى وجهت

زعامته الانطوائيه إلى زعامة كفاح ، وسارجيني نايدو التي سحرته ببساطته فقد كانت شاعرة مشبوبة العاطفة مرهفة الخيال .

وبعد : فهذه هي قصة غاندي الإنسان .

كان غاندي نموذجا جديدا غير مسبوق في دنيا الزعامة والبطولة في الشرق كان أشبه بالأسطورة الخرافية ولولا قرب العهد به لظن ناس أنه من الشخصيات التي يرسمها الشعراء .. الرجل الذي أدخل إلى أساليب السياسة : المغزل والشاة والمقـــاومة السلبية والزعيم الذي أحاطه جو من الغموض والسحر . نزع الملابس الأوربية واكتفى بالإزار الأبيض يستر به كاهله . ويسكن في كوخه المبني من القش . طعامه من لبن الماعز . والخضر المسلوق .

لم يشرب الخمر ، ولم يذق اللحم ولم يقترب الزنا . تزوج في سن الثالثة عشرة ، وأنشأ صناعة المغزل وعممها في أنحاء الهند ، وابتدع فكرة الصوم في سبيل الوصول إلى مطالبه ، ونقل من تولستوي الدعوة إلى المقـــاومة السلبية ، وأخذ من المسيحية روح التسامح والسلام .

ولا شك أن هذا الأسلوب الذي ابتدعه غاندي ، كان بعيد الأثر في إيقاظ الشعب ، وأنه استطاع في خلال أربعين سنة . أن يبعث هذه الأمة حتى تستطيع أن تقف في صف الدول [illegible] في العالم وبعملها [illegible] في الشرق [illegible] بعيدة الأثر .

[illegible] في أشـــد صوره [illegible] بالشرق في صوره الهندوكية وتقاليدها وطقوسها وعاداتها [illegible] يتعصب لها .

وصفه أحد حكام الهند البريطانيين بقوله : « ليس في مظهره شيء خارق ، فقد جاء في إزار أبيض . وعلى رأسه غطاء منسوج باليد ، عاري الساقين ، حافي القدمين ، فكان أول ما خطر لي حين دخل إلى الحجرة أن

منظره ومحياه لاشيء فيهما يلفت النظر .

ولكن ما أن فتح فمه وتكلم ، حتى تغير هذا الرأى كل التغيير ، فهو رجل مستقيم لا يحاور ولا يداور ، ولغته الإنجليزية ممتازة ، وهو يحسن التعبير بها عن نفسه ، مع حسن وزن الكلمات التى ينتقيها لعبارته ، فهو رجل لا ترى فيه موضعاً للتردد ، وفى كل كلمة ينطق بها تحس نبرة الصدق والإخلاص إلا فى بعض المسائل السياسية .

أما عقيدته الدينية فهى راسخة كل الرسوخ ، وهو مؤمن إلى حد يقرب من التعصب الأعمى .

* * *

لا شك بأن غاندى زعيم شعبى بكل معنى الكلمة ، قد درس بيئته دراسة نفسية بعيدة المدى ، وقد مكنه ذلك من أن يتسلط عليها فتؤمن به ، ويجمع من حوله لأول مرة فى تاريخ الهنـد الحديث ، الهندوس والبراهمة والأنجاس .

فهذا المظهر الغريب الذى ارتضاه لنفسه ملبساً ومأكلا ومحياه ، ليدل على المقدرة الخارقة فى الوصول إلى قلوب الناس .

فهو الذى يحرق ملابسه الإفرنجيه ويدعو على ضوء الحريق إلى أن يستعاض عنها بنسيج من إنتاج المغزل اليدوى العتيق ، ويقول لأتباعه « اخلعوا عنكم هذا الرجس » .

وكان يركب الدرجة الثالثة بعد أن تكون قد نظفت وخصصت له بكاملها وعندما سافر بالباخرة إلى لندن ، ركب مع حاشيته فى الدرجة الدنيا على سطح الباخرة ورفض أن يحقق ضد الدوسنطاريا ، كما رفض أن يشرب اللبن لأن

الأهالى أرهقوا البقر والجاموس ، وكان يكتب خطاباته على ظهر أوراق الإعلانات التى كانت تأتيه فى البريد .

وأقام مزرعة على نسق مزرعة تولستوى ، بها صومعة مكونة من مجموعة من الأكواخ .

وقد كان واسع الدعاية لوطنه ودعوته ، فقد كان أسلوبه فى الصوم والعصيان والمغزل من الرؤى التى كانت تثير الناس فى كل مكان .

فلما سافر إلى انجلترا عام ١٩٣١ ليحضر مؤتمر المائدة المستديره ، كان ينتقل من الخان الذى نزل فيه حيث يعقد المؤتمر فيمشى خمسة أميال فى قلب المدينة والناس يحيونه ببشاشه ، ويتحدثون عن نبى الهند .

*

ومن أخطر مواقف غاندى التى هزت الامبراطورية الزحف إلى البحر لإخراج الملح عندما أعلنت بريطانيا احتكار بيع الملح فى الهند .

وقد ظل غاندى يمشى ثلاثة أسابيع وخرج الناس وراءه بالآلاف ؛ فلما وصل الى الشاطىء كان وراءه خمسين ألفاً بعد أن اعتقل فى مراحل الطريق أكثر من مائة ألف . ولما وصل الى البحر التقط قطعه من الملح ، فكان ذلك ايذانا بدعوة الهنود الى استخراج الملح ، وبذلك كسر قانون بريطانيا وحطم احتكارها .

ومن أقوى الآثار التى وصل اليها فى تحويل العقليه الهنديه رفع لعنة النجاسه عن المنبوذين وكفل المساواة التامه لهم ؛ وقد نجح غاندى فى أن يفتح معابد البراهمه للأنجاس اعلاناً بزوال اللعنه عنهم فى كلكتا وبنارس ودلهى .

وكان الصوم عند غاندى سلاحاً رهيبا بعيد الخطر ، طالما استعمله لردوع

بريطانيا أو ردع خصومة أو تأديب أنصاره .

ويقول : « ليس صومى إلا محاولة منى لتذكير الناس بما فعلوا من هول فيردوا الله إلى قلوبهم التى أخرجوه منها »

* * *

ودخل غاندى السجن مرات ، وكان سجنه من آيات قوة دعوته . وكان يرحب بالسجن ويقول : « ينبغى أن نوسع أبواب السجون لتستقبلنا أفواجا فطريق السجن والاضطهاد هو طريق الحرية والنصر . فينبغى أن ندخل السجن فرحين . . . »

وعندما كان مسجونا كانت جماهير كبيرة تتجمع فى المساء أمام سجنه لتؤدى لزعيمها واجب التكريم . تقف الساعات الطوال كأنما هى أمام معبد من المعابد ، فاذا أعلن الناقوس بدء الزيارة ، ارتفعت من الواقفين موجات الفرح والدعاء .

وقد استطاع غاندى أن يحتل فى قلوب الناس منزله أعلى من منزلة الأنبياء وبدأ أن يكون إلها - بل هناك معبدان فى الهند أخذ الناس يعبدون فيهما غاندى وهو حى .

ولست تستطيع أن تحدد بالضبط أسلوب دينه أو دعوته ، فهو يأخذ من المسيحية أن لا تقاوم الشر بالشر ، وكان يبارك على لاعنيه . وهو يدعو إلى « اللاعنف » ويبقى بعد ذلك متعصباً لهندوكيته فى أدق دقائقها ويقول : « إن دينى يزودنى بكل ما أحتاج إليـــه لنضوجى الداخلى ، لأنه يعلمنى الصلاة . ولكنى أرجو أن يستكمل كل إنسان غيرى نضوج نفسه عن طريق ديانته ،

إنى مقتنع بأن الله يوما من الأيام سيسألنا عن قيمتنا . وعما نفعل ، لا على الإسم الذى نطلقه على وجودنا وأفعالنا . . »

* * *

ولما كانت البقرة من عوامل الصراع العنيف بين المسلمين والهندوس فقد وقف يقول : « إنى مع إصرارى على حماية البقر من الذبح على اعتبار دينى . لا أرى معنى لاستنكار ذلك والثورة له حين يقترفه المسلمون ، فى حين لانحرك ساكناً لذلك البقر الذى يذبحه الإنجليز فى كل يوم ، فكل شغب يقوم بسبب ذبح المسلمين للبقر ، إنما هو لهو فارغ ، وجهد باطل ، لم يؤد إلى استنقاذ بقرة واحدة . ولكنه أراق دماء بشر وأخوة . وجعل بين الإخوة دما وثأراً وأحقاداً

ولطالما ندد غاندى ببريطانيا وقرعها بعباراته النارية الساخرة . . « لئن كان هناك إله فى السماء حقاً لتسألن أمامه إنجلترا عما اقترفت فى حق الإنسانية بأعمالها فى الهند . تلك جريمة لا تعدلها جريمة فى التاريخ البشرى قاطبة . . »

فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ انطوت حياة هذا الرجل الذى شغل الأذهان قرابة نصف قرن . فهو قد عاد من إنجلترا عام ١٨٩١ بعد أن حمل أعلى شهاداتها فى القانون فسافر الى جنوب أفريقيا ، وهناك وجد مجال المدرسة التى مهدت له الدعوة الكبرى فى الهند . فقد وجد الهنود هناك يضطهدون فأمضى بضعة وعشرون عاما وهو يتحدث عن الأجناس الملونة ، ولقى فى سبيله عنتاً كبيراً . فلما عاد إلى الهند عام ١٩١٢ ، بدأ نضاله على هذه الصورة المثيرة التى صورنا ، وأعلن أول حركة للعصيان المدنى ومقاطعة البضائع الأجنبية فى باردولى عام ١٩٢٢ ، ودخل السجن فأمضى فيه عامين وخرج عام ١٩٢٤ وقد هز الهند وهز بريطانيا .

وأقام غاندى الصلوات والأناشيد والابتهالات فى كل مكان ، وجعل الدين أساس دعوته السياسية .

وجعل الشاه والمغزل رمزاً للهند الجديدة .

ولم يمت غاندى إلا بعد أن حقق لبلاده أوسع ما كانت تتمنى من أمل فى سبيل الحرية . وقرب بين البراهمة والهندوس والمنبوذين حتى كادت أن تلغى ما بينهم من فوارق ظلت قائمة آلاف السنين ، واستحق من أجل ذلك أن يعبد وأن يقول عنه مؤرخ غربى : « إن غاندى هو المسيح عاد إلى الأرض » .

طـــاغور

« أنا رجل صوفى وجهادى الأكبر فى الحياة هو البحث عن الجمال المطلق الذى يهدينى إلى الله . وقد أبصرت هذا الجمال فى السماء الصافية والزهرة الناضرة والجدول الرقراق . والعذارى الحالمات الساحرات . ولكن النشوة العلوية لم تهز قلبى . ولم تفتح مغاليق بصرى إلا عندما استطعت الحياة فى جنة المعانى الماثلة فى وجوه الأطفال . وفى الحق أنى لم أسعد ولم يتصل ضميرى العاجز بضمير الله إلا يوم أدركت أن الطفل هو المثل الأعلى ، وأنه فى هذه الفانيه رسول الله .. »

فى هذه العبارات الشعرية يصور طاغور مفتاح حياته ، ويرسم صورة نفسه بعد أن بلغ القمة ووصل إلى جادة الحياة وماتت من حوله المتاعب والأهواء واستراح من عناء التصعيد فى سبيل المجد .

لقد بدأ طاغور حياته على نحو غريب ، ولعل أهم ما يميز طفولته هى العزلة . لقد كان أبوه كثير التغيب فلم يره إلا لماما . ولكنه عندما كان يحضر يملأ الدار بوجوده . فترك فى حياته أثراً عميقاً لا تقوى الأيام على محوه . وماتت أمه وخلفته فى رعاية خدمها . فكان كثيراً ما يأوى سحابة نهاره من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس إلى نافذته يرسم فى مخيلته ما يجرى فى العالم الخارجى . فأغرم بالطبيعة من عهد لا يكاد يذكره « آه . . لقد كان صوابى يطير جنونا حينما كنت أتأمل كسف السحاب تعلو فى السماء بعضها بعضا . فأحسست ـ حتى فى تلك الأيام الباكرة من حياتى ـ أن معى رفيقاً يلازمنى وزميلا لا يفارقنى ، ولقد كان لى أبداً زميلا عطوفا مخلصاً . وإن كنت لم أعرف ماذا أسميه ، وبماذا أناديه »

لقد هام بالطبيعة هياما شديدا وكانت له الطبيعة صديقا محبا لا تفتا كل يوم تعرض له عن لون من الجمال جديد » .

ولد فى كلكتا عام ١٨٦١ من أسرة برهمية ونشأ فى أحضان الزهد وكره المدرسة ونفر من الاستمرار فيها ، وأحب الموسيقى والشعر وعاش فى الهند حتى بلغ سن الواحد والخمسين . وهنالك جدد روحه وافتتح آفاقا جديدة فى حياته عندما ذهب الى باريس وطاف أوربا وأمريكا حيث أمضى سبع سنوات وقال يصف هذه المرحلة فى حياته : « عندما عبرت الاطلانطيق وقضيت على ظهر السفينة غرة العام الجديد أدركت أن مرحلة جديدة فى حياتى قد حلت . وهى مرحلة الرحالة المسافر .. »

وقال : « انه جدد شبابه فى العقد الخامس وكون رأياً جديدا وأضاء جوهر عقله فى هذا السن وخرج بدعوة جديدة هى « توحيد العالم » جعل قوامها الدعوة الى تجارة عالمية واسعة النطاق فى القلوب والعقول وفى التعاطف والتفاهم . وقال : هناك من يتعلق بالجديد الى حد ينكر على الماضى آثاره ، ويعتقد أن تراث الماضى ليس الا افلاساً . وأن أسلافنا لم يتركوا لنا رصيداً أولئك الذين يرفضون أن يصدقوا أن الجيش الذى يزحف الى الأمام يعتمد فى غذائه على المؤخرة » .

ودعا الى مقاومة عزلة الثقافة وقال : « إننا فى زمن تنهار فيه كل الحواجز ولن يبقى من الثقافة الا ما يتفق مع أسس الثقافة العالمية . ودعا إلى ادماج حضارة الشرق فى حضارة الغرب .

وأبرز معالم حضارته التى سيطرت على أدبه هو حب الطبيعة ، ومن أبرز آثاره فى هذا الميدان ديوان « البستانى » وهى ملحمة تصور حبه للطبيعة ، وادراكه لجمال الحياة وفيها يصور نفسه ويرسم عواطفه .

« أيها الشاعر .. لقد أقبل المساء وابيض نورك ، فهل أنت فى خيالك

وعزائك تسمع إلى رسالة من عالم غير عالمنا » .

« .. وغرب القمر . وأقبل الظلام . وسمعت خرير المياه ولم أر شيئاً غير هذا . ولكن الريح عصفت بشدة كأنها تريد أن تطفىء ضياء النجوم فى السماء خشية أن يفضح نورها ما يحدث على الأرض . ثم اختفت رفيقتى التى كثيراً ما لعبت فى جنبات صخرى وغابت عن عينى ولكن لم أر إلى أين سارت»

« .. كنت كلما أشرق على يوم جديد من أيام الخريف أخف إلى الحديقة فى اللحظة التى أنهض فيها من سباتى . فيبدو لى كأن عبق الأوراق والحشائش وقد بللها الندى بعطره . يعـــانقنى بعنف شديد . وكان الفجر وقد جللت حواشيه بالذهب النضار أشعة الشمس المتيقظة يطالعنى بوجهه ويحيينى من خلف أوراق النخيل المرتعشة . كانت الطبيعة لى كالطفل يقابلنى بيد مقبوضه ويسألنى كل يوم بثغر باسم : ما الذى تظننى قد جمعت يدى عليه ؟ ولم يكن من المستحيل أن تضم قبضته كل عجيب فى الدنيـا وغريب . . . »

« .. ألا فانصت يا فؤادى لأسرار الوجود . فهذه زهرة السوسن ما اصفرت وجناتها إلا لما بهـا من حب وهيام بذلك العمر المنير . وهذه زهرة اللوتس ما ابتسمت بثغرها الحلو وأسفرت عن خدودها الناعمة قبل طلوع إلا لتحى الشمس منبع الحياة وسر الوجود .. »

وعاش طاغور إلى أن بلغ سن السبعين وهو مشبوب العاطفة مثله فى ذلك مثل جوته وولز . وكان يقول : « إنى لأرقب قلوب العاشقين من الشباب حين تلتقى . وأعين المحبين حين تتبادل النظر وتتطلع إلى الموسيقى تعبر عن مشاعرهم وتخرجهم من صمت رهيب »

وكان يرى أن كشف الحب جريمة لا تغتفر . وكانت صيحته « اكتموا الحب فى صدوركم حتى تذهبوا إلى قبوركم » .

وكان المرأة فى حياته أثر . أى أثر . وهو الذى يقول « فى عالم الروحانيات يتلقى الرجل الوحى من المرأة . سواء أكان فى حالة وجدان تام أم وجدان غير تام . وذلك الوحى يفتح له منافذ الروح فتتدفق منها العواطف والمشاعر » .

وهو يرى أن المرأة هى موجهة الروح . مستفزة العـــاطفة . الباعثة على النشاط . وهى التى تؤكد فى نفسه كل شعور وإحساس . ويقول « والمرأة لا تكمل إلا بالحب والعواطف » .

وقد كان أدب طاغور موضع إعجاب الدوائر العالمية وتقديرها . . فأحرز جائزة نوبل وكرمته المجالات الأدبية وعدته رائداً شرقياً كبيراً فى الأدب الإنسانى .

أتاتورك

قالوا نسترد الامبراطورية العثمانية سالف مجدها ، وقال أتاتورك . لا أؤمن بجامعة إسلامية ولكن أؤمن بتركيا .

وبعد أن تخلص من اليونان وألقى بهم فى البحر قال : سيحارب بعضنا بعضاً ، ويأكل فريق منا الفريق الآخر .

وأقام الحكومة الوطنية الإقليمية فى أنقره وبدأ فى صراع حكومة الآستانه

ولما اشتد ساعده قال : « إن السلطة شىء والخلافة شىء آخر ولا بد من الفصل بينهما ، وبعد أن مضى الزمن ألغى الخلافة والسلطنة جميعا وقال إنها من مخلفات التاريخ التى لا يسوغ لها البقاء .. ولما رأى المناورات تحاك حوله أوقف الدستور وتولى هو جميع السلطات .

ونظر إلى تركيا وقال ليست هذه تركيا التى أريدها . إنى أريد تركيا لا تتعصب لشىء . وخلع الأتراك الفيلق ولبسوا القبعة . ومزق حجاب المرأة . وأبدل الحروف العربية . وقضى على التكايا والدراويش وأصحاب الطرق . .

وعمد إلى تتريك كل شىء حتى التاريخ .

كانت تركيا العثمانية مشدودة إلى الماضى والأوهام والخرافات . . فكان لا بد من ضربة قاصمة لتفصل بين أمس واليوم .

حقا لقد كان مصطفى كمال هو الاستجابة الطبيعية لاستبداد عبد الحميد وجبروته وظلمه ، فقد كان رد الفعل لذلك الجو النفسى والسياسى الذى خلفه طاغية العثمانيين فى مدى أربعين عاما .

جاء « أتاتورك » ليفتح أبواب تركيا على مصاريعها جميعا للحضارة الحديثة بل ويحملها عليها حملا ، وبالقوة . وبعد أن كان عبد الحميد يحارب أقل مظاهر هذه الحضارة ، ويغلق كل باب فى سبيل كل كلمة أو آلة أو أداة .

لقد عاش « أتاتورك » فى هذا الجو الرهيب الذى فرضه عبد الحميد على البلاد ، وأمضى سنوات شبابه وهو يرى وطنه مكبلا بالقيود والأصفاد التى فرضها هذا الخليفة المتسلط . وهو يعيش فى وكره « يلدز » بين أكداس من التقارير السرية والخزعبلات والأوهام التى يثيرها له رجال الدين .

ولذلك فقد بدأ منذ أن تبلورت هذه الحقائق فى كيانه يؤلف الجمعيات السرية ويجمع الشباب القوى المتمرد على مهاجمة عبد الحميد . وتصوير طغيانه وكبته للحريات بعبارات تلهب القلوب وتملأ النفوس ثورة وتمرداً .

وكانت جمعيته السرية الأولى ، هى نواة الإنقلاب الضخم والثورة العاتية التى أحدثها بعد ذلك بعشرين عاما ، والتى حولت تركيا تحولا جباراً فأخرجتها فى لحظات من وضع إلى وضع مغاير تمام المغايرة .

ولم يكد « أتاتورك » أن يضع يده على تركيا ويتخلص من جنود اليونان ويلقى بهم فى البحر حتى أعاد بناء وطنه من جديد على صورة سريعة وغريبة وجريئة .. فقد كانت تركيا رأس الدول الاسلامية . ومقام الخلافة ، ومركز السيطرة الدينية على الشرق كله . تعيش فى جو مضطرب مزعزع ، فقد أصبحت الخلافة عشا من أعشاش الاستعمار ، ووكرا من أوكار الدول الأوروبية الطامعة فى الاستيلاء على تراث تركيا ، حتى وصفت بأنها دولة الرجل المريض ..

ولكن « أتاتورك » حولها فى سنوات قليلة إلى دولة أوربية تلبس القبعة ، وتكتب من الشمال وتقف فى صف الدولة الحيه .

لم يكن أتاتورك يؤمن بالخيال ولا بالوهم . وإنما كان يقيم سياسته الجديدة على أساس العقل والواقع ، ولذلك سرعان ما أعلن مخالفته للسياسة التى جرت عليها تركيا خلال سنوات وسنوات . والتى كانت سببا فى هزيمتها فى الحرب العالمية . فقد أنكر أتاتورك ما كان يدعو إليه عبدالحميد من دعوة إلى الجامعة الاسلامية .

وأخذ يدعو إلى القومية التركية الخالصة . وقال فى هذا : « إننى لا أؤمن بجامعة إسلامية . بل لا أؤمن بجامعة تركية . ولكنى أنوى أن أسير وفق خطة سياسية ثابتة . وجهتها تأمين حياة الوطن واستقلاله داخل هذه الطبيعة ولن تؤثر على سياستنا الحماسة . وسنستبعد الأحلام والأشباح إلى الأبد .. »

ووقف أتاتورك على السبورة يعلم بنفسه أبناء وطنه اللغه التركيه الجديدة ويكتب من اليسار الحروف اللاتينيه الجديده . وفى كل مكان كان أتاتورك يطلب سبورة ، وطباشير المساجد ، والقهاوى ، ودور اللهو .

وألغى الحريم ، ونقل المرأة إلى الضوء ، وقذف بها إلى الشارع وحارب الدراويش فألغى التكايا والأوقاف . وأزال قدسيه « يلدز » فأصبحت نادياً من النوادى .

وضرب ضربته الكبرى بالغاء الخلافة . الخلافة التى استولى عليها العثمانيون منذ أربعمائة عام . وأصبحت وقفا عليهم . وظلت القسطنطينية معقلها طوال هذه القرون الاربع . وكسبت بها هيبة الدول فى الغرب . . والسيطرة على الشرق الإسلامى كله ، وطرد أتاتورك السلطان فى الوقت الذى

كان فى نظر الناس هو ظل الله فى الأرض .

ومضى العلماء يدرسون رأى أتاتورك ، واستمرت المناقشات ساعات طوال ولم يجد أتاتورك بداً من أن يحسم الأمر فاقتحم عليهم الغرفه وقال : « اسمعوا ليست السلطنة من المنح التى تمنح بالنقاش على اعتبار أنها من ضرورات العلم إنما السلطنه تؤخذ قوة واقتداراً ، لقد سيطر آل عثمان على الشعب التركى زهاء ستة قرون . أما الآن فها هو شعب يثور فى وجه مغتصبى حقوقه ويسترد منهم حقه المهضوم . هذا أمر مفهوم وليست مسألة ترك السلطات للشعب . . مسألة اليوم فهى مفروغ منها ، وإنما مسألة اليوم هى تقرير هذه السلطات . وهذا التقرير لا شك واقع . وإلا فمن المحتمل قطع بعض الرؤوس .

أيها السادة . إن السلطه يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى . سواء وافقتم أو لم توافقوا فسوف يتم ذلك »

كان ذلك فى سنة ١٩٢٢ ، ومر عامان . وفى ٣ مارس ١٩٢٤ طلب أتاتورك من الخليفة أن يغادر تركيا قبل فجر اليوم التالى وبذلك تخلص من الخلافه نهائياً .

* * *

ونقل أتاتورك العاصمة إلى أنقرة . وجعل من استانبول مدينه أثريه يكفيها ما حفظ لها التاريخ ، من صور النصر والهزيمة . وحرر تركيا من كل قيد كبلها به الماضى البعيد والماضى القريب . حررها من الاحتلال بأن قذف بآخر جندى فى البحر ، وحررها من معاهدة سيفر . وحررها من الجامعة الاسلاميه والامبراطورية العثمانية والخلافة .

وحررها من الرجعية فى شتى صورها ومظاهرها . دفعها فى قوة

وطفر بها . ونقلها من طرف الجناح إلى طرفه الاخر . حتى أصبحت فى عداد دول البلقان لا فى عداد دول الشرق .

حررها من الامتيازات الأجنبية ، وأسس الجمهورية ، ووضع لها دستوراً وحررها من الطربوش والعمامة والزى الشرقى . وقال : العمامة لرجال الدين ، والقبعة للجميع .

ونظر إلى كل الأمور من وجهة النظر التركية وحدها . وقال : « علينا أن نعيش ضمن حدود بلادنا أمة صغيرة متماسكة . ودولة ناجحة موفقة »

وأخذ المدنية الغربية كاملة . نقل شرها وخيرها على السواء . وألغى المظاهر الدينية التى كانت سائدة فى تركيا ، فقد كان يؤمن أن هذه الطقوس بالإضافة إلى الخلافة هى السبب الأول فيما أصاب تركيا من نكبات .

وأنشأ « أتاتورك » الحزب الواحد . وحكم به تركيا وقتاً . ثم عاد فاذن فى إنشاء حزب معارض .

وكون الجيش ، وعمم التعليم . ولم يمض قليل حتى كان ٩٠٪ من سكان تركيا متعلمين

وعلق المعارضين على حبال المشانق .

* * *

ووقف أتاتورك بعد هذه المعركة الطاحنة ليقول : « ثمة اثنان أسمهما : مصطفى كامل ، أحدهما الواقف أمامكم . مصطفى كمال اللحم والدم الذى سيذهب بعد حين ، ولكن هناك مصطفى كمال آخر لا أستطيع أن أسميه « أنا » لأنى لست أنا الذى أشخص هذا الكمال . إنما هو أنتم وجميع الحاضرين هنا الذين يطوفون البلاد من أدناها إلى أقصاها ليبثوا ويدافعوا عن المثل الجديدة . إنى أعيش لهذه الأحلام ، وهى أحلامكم . وعملى فى الحياة أن أحقق هذه الأحلام »

من هذه الحلقات السريعة تبدو صورة أتاتورك على حقيقتها . هذا الرجل العسكرى الجبار الذى آمن ببلاده . وآمن بنفسه . وأقدم على إخراج دولة من نطاق الظلم والاستبداد والرجعية إلى حياة جديدة ، أخرجها بقوة وعنف وسرعة ، وانتقل بها فى سنوات قليلة فحولها من الشرق إلى الغرب . ومن الاستبداد إلى الحرية ، ومن جمود الوراثيات إلى صراحة الحضارة .

هذه الطبيعة الانسانية القوية الضخمه ، كونها عوامل متعددة ، فيها تلك الصورة التى رسمها فى شبابه عبد الحميد . وهو يكتم أنفاس تركيا . ويجعلها مبادته لقناصل الدول ويسد أبوابها دون الحضارة ، ويحول بينها وبين كل جديد . .

وكونها عسكرية صارمة عاش فيها . مضطهدا أو شبيها بالمضطهد من زملائه ورؤسائه . فهو عنيد الرأى . لا يعرف المداورة ولا أناقة العبارة . وهو صريح يقول كل شىء ولا يبالى . وينقد فى عنف . ويناقش فى حرارة . وكان هذا مصدراً من مصادر متاعبه . ولكنه كان فى نفس الوقت عاملا فعالا من عوامل نجاحه .

كان أتاتورك يحب الحياة الجديدة ويؤمن بها . وكان فى نفسه عقدة نفسية ضخمة ضد الدراويش . ويا ويل الدراويش من أتاتورك . هؤلاء الذين كانوا يعيشون وراء عبد الحميد ووراء خلفاء بنى عثمان ولذلك سرعان ما سحقهم وحطم تكاياهم . وسحق سلطانهم الوهمى الذى تسلطوا به على الناس .

وقذف بالمرأة فى محيط الحضارة الأوروبية وانتزعها من حياة البيت . . لقد سحق عالم الحريم أيضاً . هذا العالم الذى أنشأه الخلفاء فى قصورهم وملأوه بالجوارى الشركسيات . واليونانيات . وتعلمت المرأة التركية الرقص ولبست الملابس الأوربية واشتغلت فى كل عمل .

ولم يكن أتاتورك سعيدا فى حياته الخاصة . تزوج مرتين ولم ينجح فى إحداهما . لم تدع له متاعب الحرب - إلى أن أخرج اليونان - فرصة لحياة طيبة وشغله بعد ذلك : إنشاء الأمة الجديدة . السبورة التى كان يقف عليها ليعلم الأتراك اللغة اللاتينية . جولاته فى أنحاء تركيا لإنشاء الحزب الجديد كل هذا لم يدع له فرصة لحياة بيتية سعيدة . وكان يقول « إنى أحب دائما أن أعيش وحيدا » لقد عاش أتاتورك حياته كلها لفكرته التى استطاع أن يحققها على أوسع نطاق ويصل بها إلى أبعد مدى . ونسى أن كان قد فى سبيل ذلك نفسه وعواطفه وحياته الخاصة .

تولستوى

— ١ —

انقلب الابيقورى إلى زاهد . والأديب إلى مصلح ، ورجل الفن إلى داعيه وكتب اليه ترجنيف يقول : « عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقة . اسمع توسل رجل يموت » ، ولكن تولستوى لم يسمع .

وقد وصف نفسه فى إعترافاته بقوله : « كانت تقوم أحلامى على مشاعر أهمها حبى لتلك المرأة الخيالية التى كنت أحلم بها على وتيرة واحدة والتى كنت أتوقع أن ألقاها فى أى لحظة فى أى مكان ما وثانيها محبتى أن أغدو محبوباً فقد رغبت فى أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى . ورغبت أن أخرج باسمى فأجد من الناس جميعا ما يدل على اهتمامهم بما أخرج به . وأراهم يحيطون بى فيسمعونى شكرهم إياى على أمر ما . وثالثها أملى فى حظ عظيم غير عادى . وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بى على الجنون . ورابع مشاعرى وهو أهمها . كان إحساس باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم ولكنه كان ممتزجا بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن »

وقد ربطت الصداقة بينه وبين ترجنيف ، غير أن امرأة فرقت بينهما ؛ وأوقعت الخصومة ، فقد كان يحبها ترجنيف ويبغضها تولستوى . فتقاطعا أكثر من عشرين عاماً من أجلها .

فلما ألمت بتولستوى الأزمة النفسية وتحول عن طبيعته وأهدافه الأولى بدأ جريئاً غاية الجرأة فاتهم الأغنياء بأنهم لصوص . واتهم ذوى المتعة بأنهم أشقياء لأن خطاياهم تعذب أجسامهم ، واتهم العلماء بأنهم مهرجون لأن العالم

ليس فى حاجة إلى علومهم . واتهم الفنانين أنهم مفسدون لأن فنهم قائم على الضرر ، وقال للحكام انهم طغاة لأنهم يسلبون الحريات .

« قلت لنفسى الآن أنطلق . ولسوف أمتحنك بالمرح ، وإذن فلتنعم بمختلف المتع . فكان ذلك باطلا كذلك . وقلت عن الضحك أنه جنون . وعن المرح ماذا يجدى . حاولت أن أنعش نفسى بالخمر ، وحاولت أن أتمسك بالحماقة حينما كانت ترشد قلبى . حتى أستطيع أن أرى ما فائدة بنى الإنسان من العمل تحت السماء كل يوم من أيام حياتهم .

وقمت بعمل كثير . شيدت لى بيوتاً ، وزرعت الكروم . وأنشأت الحدائق والبساتين وغرست فيها الشجر من كل الثمار . وحفرت البرك أروى من مائها الغابة التى تنمو بها الأشجار . واستخدمت الخدم والإماء . وولدت الخدم فى بيتى ، وامتلكت قطعان الغنم والماشية . وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادر الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم . وظفرت بالمغنين والمغنيات وبكل ما يلهو به ابن آدم ، كآلات الموسيقى وما إليها . وهكذا كنت عظيما وتوفر لى ما يتوفر لكل من سبقنى بيت المقدس وبقيت حكمتى معى . ولم أحرم عينى من كل ما اشتهتا . ولم أبعد قلبى عن أى لون من ألوان السرور . ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداى . وإلى الجهد الذى بذلت ، فرأيت أن الكل باطل يبحث على سحق النفوس . وليس من ورائه جدوى تحت الشمس » .

ولذلك زهدت الحياة . أجل لقد كرهت كل عمل مارسته تحت الشمس ، لأنى رأيت لا بد تاركه للرجل الذى يخلفنى » .

هكذا أخذ تولستوى عبارة الكتاب المقدس وضاع فيها عاطفته وعواصف روحه حينما ألمت به محنته .

هذه المحنة التى مرت بهذا الفنان فى سن الخمسين فهجر الأدب الخالص إلى الفلسفة والدين والروحية الخالصة ، وتحول من المعانى القريبة الملموسة إلى المعانى البعيدة الغامضة .

كيف تحول « تولستوى » وهو القوى البنية الغنى الذكى الذى يعيش حياة رخية ، وله ضيعة زاهرة ومال وفير ، وله زوج وبنون ؟

ماهو الأمر الخطير الذى غزا هذا القلب فدفعه عن الأدب إلى التصوف وحوله من دنياه المترفه وحياته الابيقوريه ، إلى الفلسفة ، حيث لا يجد فى أفلاطون ولا شوبنهور ولا بسكال ما يقنعه أو يرضيه ، ثم لا يجد أمامه إلا الإنجيل .

بدأت هذه الأزمة عند تولستوى على صورة سؤال معقد : « لماذا أعيش ما السبب فى وجودى . ما الغرض منه ، وما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحس بها فى دخيلة نفسى ؟ » .

وتوارد الخاطر عليه فى نومه . ويقظته ، حتى عاد كأنمـــا هو شبح مخيف يطارده . وضاقت الدنيا فى وجهه . وفترت لذة الحياة فى نفسه ، ولم يعد يهتز ـ وهو الشاعر الفنان ـ لجمال الحياة ولا يحس العاطفة ، ومضى كأنما زوجته وأولاده غرباء عنه .

« ماذا دهانى . ما هذه الكآبة التى عرتنى بغير سبب ؛ ما هذا التبرم وما هذا الانزعاج . إنى لم أجد فى الحياة متعة أو أشعر فيها بما يهز منى الحس والعاطفة لقد باتت زوجى غريب عنى . وتخلى عنى أبنائى غير آبهين ، وأمسى العمل إلى نفسى بغيضاً ممجوجا .

وسرعان ما تحول تولستوى خلقاً جديداً ، هذه الانتفاضة الروحيه دفعته إلى حياة أخرى . احتقر المجد والشهرة الكاذبة وبدأ ينظر إليها على أنها من الخدع والأكاذيب « فكرت فى الفن والشعر ؛ ولكنى سرعان ما أدركت أن ذلك خداع . واتضح لى أن الفن زينة للحياة ومما يغرى بها . بيد أن الحـ فقدت جاذبيتها عندى . وإذن فكيف أستطيع أن أجتذب الآخرين . و

كنت فيما مضى لا أحيا حياتى الخاصة ، وإنما أحمل على أمواج حياة أخرى ولما كنت أعتقد أن للحياة معنى فان انعكاس الحيـــاة فى الشعر والفن بكل ضروبه ؛ كان يدخل السرور إلى قلبى فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة الفن . ولكنى لما بدأت أبحث عن معنى الحياة وأحسست بالضرورة إلى ان أحيا حياتى الخاصة . أصبحت تلك المرآة بالنسبة لى غير ضرورية . زائدة عن الحاجة » .

وتحول رجل الفن إلى مصلح دينى ..

ثم انتقل مرحلة أخرى فأصبح داعية اشتراكيا .

وكتب له صديقه ترجنيف يقول : « عد إلى الأدب موهبتك الحقيقية . اسمع توسل رجل يموت » ولكنى تولستوى كان قد آمن باتجاهه الجديد وألح على نفسه فى الذهاب إلى أبعد مدى .

ومضى تولستوى يقول : « اللهم هبنى إيماناً قوياً أملأ به قلبى . وأهدى به غيرى » وكان فى فجر شبابه قد هجر الكنيسه والصلاة والصوم ؛ فبدأ يقارفها مرة أخرى . ويقصد إلى المعابد والأديرة وأخذ يفسر الإنجيل من جديد .

ولم يعجب هذا أسرته . ولم يعجب الدولة ولا الكهان . فصادرا كتابيه « اعترافاتى » و « عقيدتى » فقد طالب بالعودة إلى المسيحية الأولى . وألح على كلمة « الإنجيل » يقف عندها . ويدعو إليها . واتخذ نفس الأساليب التى مضى عليها من قبل لوثر وكلفن فاختلف مع الذين آمنوا بالدين على أنه طقوس تقليديه موروثه . فأصبح فى نظر الدولة فوضويا . ثائراً بل مارقا .

وتحول تولستوى مرة أخرى . فاتجه إلى الاشتراكية ودعا إلى المساواة الاجتماعية .

« .. قبل أن نمد أيدينا لمعونة الفقير . ينبغى أن ترفع المعاول ونهوى بها

على هذا الحائل القائم » .

* * *

وبدأ الفارق ضخما بين تولستوى قبل محنته هذه وبعدها .

كان فى شبابه منحرف العقيدة الدينية « .. إن العقيدة الدينية التى لقنتها منذ الصغر اختفت عندى كما اختفت عند غيرى . إذ بدأت فى سن الخامسة عشرة أقرأ كتب الفلسفة » ويرسم تولستوى حياته الأولى فى هذه الصورة « لست أستطيع أن أعود بذاكرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت والألم النفسى الشديد . فلقد قتلت الرجال فى الحروب وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كى أقضى على حياتهم . وقامرت وخسرت . واستغللت مجهود الفلاحين . وحكمت عليهم بمختلف العقوبات . وعشت عيشة إباحية وخدعت الناس . واقترفت كل الآثام : الكذب والسرقة والزنا بكل ضروبه وشرب الخمر واستخدام العنف أو القتل » .

أين هذا من ذلك الايمان الجديد . حين تحول إلى منفذ لفكرته . فتنازل عن حب الصيد . ولم يأكل اللحم إشفاقا على الحيوان . ولم يعد ينتقل فى قطار أو سيارة . وحول كل ما يدره قلمه عليه من ربح إلى جمعيات الإحسان . . وأخذ يفلح أرضه بيده وارتدى الثياب الخشنة وأخذ يدعو إلى خطر الهوة بين الطبقات ويهاجم الملكية .

وتحول فى الأدب نفس التحول . فبعد أن كان الفنان المتجرد لفكرته بدأ يرى الأدب شيئاً آخر . يقول فى مذكراته عن حياته الأولى « .. فى غضون ذلك شرعت أكتب مدفوعا بالغرور والطمع والكبر وفعلت فى كتبى ما فعلت فى حياتى . فلكى أظفر بالشهرة والمال . ومن أجلها كنت أكتب . كان لزاما على أن أخفى الخير وأظهر الشر . وهذا ما فعلت »

ثم أنحى باللائمة والتقريع على زملائه وأدباء عصره حيث قال « معتقدات

هذه الفئة من الناس - أقصد زملائى - فى الحياة . كانوا يعتقدون أن الحياة فى جملتها تتطور . وإننا نحن رجال الفكر نلعب أكبر دور فى هذا التطور . وأن الفنانين والشعراء من بين رجال الفكر هم أصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا فى الحياة أن يعرف الناس . فان سأل سائل ماذا أعلم وماذا أستطيع أن أعلم . أجابوه أن هذا بناء على نظريتهم - أمر ليس من الضرورى أن يعرف .. فالفنان والشاعر يعلم غيره دون أن يشعر بذلك »

ثم فقد روح الطموح التى تملأ روح الأديب ولم يعد للمكان الذى ينتظر أن يصل إليه . أى خطر فى نفسه « فكرت فى الشهرة التى تجلبها لى مؤلفاتى ، حدثت نفسى قائلا : « حسناً . إنك ستصبح ابعد صيتا من جرجول او بوشكين او شكسبير ، او موليير ، او ارفع ذكراً من كتاب العالم طراً . ولكن اى طائل لك من وراء ذلك ؟ »

تولستوى

— ٢ —

حياته العاطفية

أنكر تولستوى ماضيه وتحول عنه فى كل شىء ، وتأثرت علاقاته فى محيط الأسرة بهذا التطور ، فبدأ يتحول عن زوجته وزهد فى علاقته بها . لقد أحب تولستوى سونيا -وهذا اسمها- وأعجب بخفة روحها ورآها تقبل على القراءة وتملأ البيت بهجة وشبابا وضحكا وصياحا .

كان فى الأربعين من عمره وكانت فى السادسة عشره ، وتزوجا ، وعاشا سعيدين : ومضى هو فى مؤلفاته وكتاباته ومضت هى ترتب القصر وتنظمه وتفرض سلطانها على ضياعه وأملاكه .

وكانت خير عون له على التأليف ، فأخرج للناس آيات من روائع الفن . فظهر اسمه ولمع ، ودوت شهرته فى كل مكان . وكان لزوجه فضل أى فضل . فقد أعانته على التفرغ للدرس ويسرت له أسباب الحياة . ولم يمنع هذا من أنه كان يشعر بالملل وأنه يميل إلى التغيير والتجديد .

وكانت زوجته تفرح وتسر . عندما تعلم أنه بدأ عملا جديداً . لأنها تقدر مواهبه الأدبية تقديراً كبيراً . وكانت إلى ذلك تسهر الليالى وهى تعيد كتابة قصصه . حتى تجعلها صالح للنشر .

غير أن الأمر تحول بعد ذلك تحولا خطيراً . إذ ما لبث القصصى أن تحول عن الكتابة إلى القراءة . ومن الأدب إلى الفلسفة . وأكب على دراسة

الأناجيل ثم أخذ فى دراسه اللغة العبرية ليزداد تعمقا فى البحث .

وبلغ تولستوى سن الستين ، يزيده الشيب واللحية الكثيفة جهامه ووقاراً فى الوقت الذى كانت زوجته تتألق وتصل إلى أوج الجمال .

وانتقل تولستوى إلى دور المصلح الاجتماعى فأخذ ينشىء مذهبه الجديد ويحاول أولما يحاول أن يطبقه على نفسه . وإذا هو فجأة وبدون مقدمات يطلب من زوجته أن تنزل عن ضياعها الواسعة ، ليعيشا عيشة البساطة .

ولكن زوجته لم تقبل ، فمضى فى تنفيذ فكرته فقسم أملاكه وضياعه على أولاده وزوجته .

ووقف أولاده مع أمهم ضده ، ولم يقف بجواره غير ابنته « ماشا » التى رفضت نصيبها من الثروة وتطوعت للعمل لتكسب رزقها .

وبينا اسم تولستوى يدوى فى أنحاء العالم ، كان يمر بهذه المرحلة القاسية من الصراع بينه وبين زوجته .

ومن ثم بدات الحرب الخفية بينهما . وأخذت هى تتأهب لمعركة حاسمة ، وكان تلاميذه وأتباعه خصوما لزوجته ، وقد أدى اتساع الخلاف بينهما إلى فتور حبه لها ، وقد ضايقه أن رآها تسيطر على كل شىء فى الوقت الذى كان يدعو فيه الأغنياء إلى النزول عن أموالهم بمحض إرادتهم .

ومرت العلاقة بين الفيلسوف وزوجته بمرحلة غاية فى الحرج ، كان تولستوى قد بلغ سن الثمانين وقد أصابه شىء من خيبة الأمل والفشل فى تطبيق آرائه . إذ رأى نفسه عاجزاً عن تطبيقها على نفسه ، ورأى زوجته تقف فى وجهه وتقبض بيدها على كل شىء .

وصمم على الفرار ، وهرب فعلا .

ولكن زوجته لم تلبث أن لحقت به . وكان الرجل الكهل قد أضناه السفر فاصابته الحمى ، وظل أسيرها أياما وهو لا يسمح لزوجته أن تراه . حتى إذا

أصبح فى دور النزع الأخير سمح لها ، فدخلت عليه وهى تبكى ، وقبلت يده وهى تقول : غافر لى فقد أخطأت .

ولكن الرجل كان قد أسلم الروح .

* * *

غير ان لهذه القصة جانباً آخر . . فقد كان الرجل إلى سن متأخرة قوى الجسم ملىء بالحيوية . يلح عليه جسده ، فلم يكن يستطيع كثيراً أن يكبح جماح شهواته ، رغم أنه زوج وله أولاد .

وقد صور هذا المعنى فى قصته موت إيفـــان التيش « . . ولذلك لم يجد بوزدنشيف ملاذا له له من إفراطه فى إطفـــاء شهوته إلا الزواج ، ولكنه لا يصيب فى الزواج ما كان يتوق إليه من راحة ، ذلك لأنه فى الزواج بعض وطره أنى شاء فهو لا يخاف شيئا ، فما كان يخاف منه ، وهو أغرب من وساوس المرض أو مجازفات اللقاء ، وينتهى به الأمر إلى ان يباشر زوجه طلبا للمباشرة فى ذاتها كما تقضى به قوانين الطبيعة ، وبذلك تصبح الزوجة او يصبح الزواج أداة للعملية الحيوانيـــة فحسب ، ثم يحول الأمر إلى ذلك الزهد ، أو ذلك السأم الذى ينشأ عن الامتداد والإسراف وتفسد الحياة الزوجية. بهذا السأم وتدب الشكوك والوساوس وتسود الدنيا » .

وكتب فى هذا المعنى مرة اخرى « . . إن من أهم أسباب عدم السعادة فى الزواج يرد إلى الشباب يخاطون بما يلقى فى نفوسهم إنه شىء يجلب السعادة ، ولكن ما بين الزواج والسعادة فهو شفاء أبداً وهو ثمن الاستجابة للرغبه الجنسية ، وانا لنقاسى فيه بقدر ما وعدنا به أنفسنا من وعود » .

كان هذا الصراع بين حيوانيته وروحانيته قويا فى نفسه ، بعد أن تزوج وقد ألمح فى اكثر من مرة ان الزواج مما يعوق المرأ عن ان يبلغ اسمى ما يتوق إليه من كمال فى كل نواحى الحياة .

هذا فضلا عن أن افكاره ودعوته الجديدة ، كانت تحول بينه وبين نزعاته الجنسية نحو زوجته ، بعد أن اتسعت الشقة بينهما فى الرأى .

* * *

كان تولستوى اسعد زوج ، كان يحب فتاته ويعيش معهـــا على اسلوب العشاق لا الأزواج ، وكانت هى معجبة به كقصصى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه حين تحول مجرى حياته ، واخذ يدعو إلى فكرته واراد ان يطبقها على نفسه وبيته ، قاومت الزوجة وخاصمت ودبرت المكائد وعقدت المؤامرات

هكذا المرأة تدفعها غريزتها إلى ان تحتفظ بما فى يدها ، ولا تفرط فيه وتذود عنه . وهى لذلك لا تندفع كثيراً وراء الآراء الجديدة . وهى ايضا لا تؤمن بالانقلاب النفسى إذا ما اتصل بأمور حياتها وحياة ابنائها ومواردها .

ولكن تولستوى احس اخيرا بفشله فى بث رأيه ، هذا ما دعاه الى ان يهيم على وجهه حتى مات فى العراء وحيدا شريداً .

تراجم من الغرب

سافونارولا
لوثر
نابليون

سافو نارولا

٢٣ مايو ١٤٩٨

.. وانتهت حياة « سافونارولا(١) » كما انتهت حياة عدد كبير من المصلحين والدعاة والرسل ، قتل وحرقت جثته والقيت بقاياها فى نهر الأرنو . ثم لم تلبث أن تمر السنين حتى يتبين الناس صدق سافونارولا ويضعوه فى عداد القديسين والشهداء ، ويتداولوا آثاره وخطبه كأنما هى بقـــايا من الـكتب المقدسة جاءت بعد عصر النبوات . وقوى مركز أنصاره وسيطروا على مقدمات الأمور فى فلورنسا من جديد . وجاء مارتن لوثر فاهتدى به ، وسار فى نفس الطريق واستطاع أن يقطع طريقا مهدها له من قبل هذا الراهب الذى رفع إلى درجة القديسين .

* * *

لم يكن « سافونارولا » إلا راهباً كبير القلب ، قوى الايمان ، بعيد الهمة استطاع أن يؤمن بنفسه وبدعوة الناس إلى الحق الذى اعتقده . فقد رأى الفساد يستشرى فى فلورنسا فأراد أن يطهر النفوس من هذه الآلام والأغلال التى أحاطت بها ، فلما نجح فى دعوته ، قصد إلى هدف أكبر فدعا إلى إصلاح الـكنيسة وحمـــل على رجال الدين الذين كانوا قد اندفعوا وراء المغريات والمطامع ونسوا رسالتهم الحقة ، غير أن الأمر بدأ أشدخطراً عندما تناولت حملته هذه البابا الطاغية اسكندر بورجيا . فقد تحول الأمر فى غير مصلحة

(١) ولد سافونارولا عام ١٤٥٢ .

الرجل الذى أحبه الشعب الفلورنسى ، وزاد فى الوصول إلى النتيجة المحتومة إن سافونارولا لم يكن يؤمن بالمداورات السياسية وكان يجنح إلى الصراحة دون أن يبالى ما تأتى به من نتائج .

أمضى سافونا رولا ٢٤ عاما منذ بدأ حياته العملية إلى أن قضى ، وهو يدعو قويا مؤمنا ، مدفوعا إلى رسالته بأعصاب غاية فى الحماسة والجرأة والصلابة . وامتحن خلال حياته بألوان من المغريات والمزعجات فما استطاعت أن ترده او تحوله ، عن طريقه المرسوم .

ولقد كان حقا له وقد أخلص لفكرته أن ينتصر وأن يصل إلى الذروة . كان سافونارولا يؤمن بقوة موحيه ، ويحس كأنما تتراءى له الأحداث الغيبية وتجرى على لسانه الوقائع التى تضمرها الأيام .

وقد كان من أولئك الضامرين الناحلين الذى تعطى ملامح وجوههم صورة العزم المصمم والذى تبدو من وراء تقاطيعه الصلبة الصامتة قوة الإرادة والثقة بالنفس .. وكانت طبيعته الصوفيـــة الزاهدة ، وشعوره بالسخط والحزن يعطيان له صورة الصرامة .. وكانت الأحداث المتتابعة والمؤامرات السياسية والدماء التى كانت تراق نتيجة للصراع بين الحكام المستبدين ، كلها قد أشعلت فى نفس سافونا رولا النار ، وأحس بأن عليه واجبا يقتضيه أن ينزل إلى الميدان .

وبدأ يتحدث إلى الناس ، وكان حديثه من نوع جديد .

ولم يلبث أن اجتذب الجماهير .. ودعا إلى إعلان الندم ، والإنابة إلى الله والتحرر من الآثام !

وظل سافونارولا ينتقل فى البلاد داعيا ، رافعا عقيرته . وقد أكسبه إيمانه بفكرته قوة فبدأ صوته رهيبا وعباراته قاسية .

* * *

وحمل سافونارولا على الطغاة وقال : « إن الطغاة قوم لا يمكن إصلاحهم لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون النفاق والملق ؛ ولأنهم لا يردون الأموال التى اغتصبوها إلى أصحابها ؛ وهم يتركون أمور الدولة فى يد وزرائهم . ويشتدون على الفقراء ويتركون الأغنياء ويطلبون أن يعمل لهم الفقراء والفلاحون دون مقابل . ويشترون أصوات الناخبين ، ويفرضون الضرائب التى تثقل كاهل الشعب » .

وكان يوجه هذا إلى حاكم فلورنسا « لورنتزو » وبذلك قطع ما بينه وبين الطاغية الحاكم ؛ وقد حاول الحاكم إغرائه واسترضائه أو كسب صداقته فاودع الدير كمية من الذهب ، ولكن الراهب العنيد رفض الذهب ووزعه على الفقراء . وقال إن الرهبان يجب أن لا يكون عندهم ذهب !

ولم يلبث سافونارولا بعد أن اختير رئيسا لدير سان ماركو أن أصبح معقد آمال الشعب كله . ومضى يحارب فى قوة الفساد الذى يغمر فلورنسا فى قوة ، ويهاجم الميسر والربا والخمر .

وكان يتخذ فى الخطابة الأسلوب العاطفى الصرف ، الذى يتصل بالقلب ويصل إلى أعماق النفس .

وزاد فى قوة سافونارولا ، أن دعاة « لورنتزو » وهو فى النزع ليستغفر له . فلم يقبل منه إلا أن يتنازل عن الأموال التى اغتصبها لترد إلى أصحابها ، وغضب لورنتزو وتركه سافونارولا دون أن يمنحه الغفران .

وازداد اسم الراهب الثائر لمعانا وضياءاً ، واستقبل فى رحلاته الى البندقية وبيزا وبولونيا على صورة لم تسبق لداعية سواه . واختير على أثر ذلك رئيسا لدير سان ماركو . وكان هذا ازدياداً لسلطانه ومكانته . وسرعان ما قام بالإصلاحات التى كان يرجو أن يحققها من زمن فباع أغلب ممتلكات الدير

تنفيذاً لقاعدته التي ترى أن الرهبان ليسوا في حاجة إلى ممتلكات . وبدأ يوجه الرهبان إلى نظام فيه تقشف وخشونة .

وواصل سافونارولا حملته على الأمراء .

« إنهم أدنياء سفلة يعيشون في قصورهم وينعمون بملاذهم ويمصون دماء الشعب . وبلاطهم بؤرة للوحوش من كل نوع . الذين يهرعون إلى قصور الأمراء لكي يشبعوا لذاتهم الوضيعة ، فهناك الفلاسفة والشعراء المنافقون ، يمدحونهم ويتغنون بمجدهم الكاذب وبثرواتهم الزائلة ويرجعون بأنسابهم إلى الآلهة » .

وحمل على رجال الدين :

« هؤلاء الذين ينادون بحياة الطهر والورع ، مع احتفاظهم بالعاهرات من النساء ويحضون الغير على الصوم . وهم يتناولون أشهى الأطعمة ، وقد أصبحوا يعظون لإدخال السرور على نفوس الإمراء ، ولكي ينالوا منهم العطاء والمجد لا لكي يبثوا تعاليم الأخلاق والدين بين الشعب . وهم قد حطموا الكنيسة الصحيحة وشيدوا بدلها كنيسة باطنة ملوثة . وأخضعوا الكنيسة للتخمين واحتفظوا بالمظاهر والطقوس وحدها » .

وانتقل سافونارولا إلى ميدان السياسة ، وقال : « إن حكم الطغاة في ايطاليا يؤدى دائماً أسوأ النتائج ، وأن أفضل نظام يلائمنا هو الحكومة الوطنية الشعبية . وويل لفلورنسا إذا اختارت طاغية يستبد بالسلطة فيها »

ومضى يدعو إلى الإصلاح ، كان يريد أن ينشأ المجتمع النموذجي في فلورنسا ليطبقه بعد في إيطاليا كلها ، على أن يقوم ذلك على أساس جديد « لا يكسب أي شخص أية فائدة بغير إراد الشعب كله . الذى له الحق وحده في اختيار الحكام وإصدار القوانين » .

وعلى ضوء دعوته نظر الدستور الجديد وأنشأ مجلس السينوريا ، وبذلك سيطر سافونارولا على الشعب والحكومة .

وهنا بدأ الراهب الثائر يواجه أضخم معارضة خصومه القدامى ومن بينهم الرجعيين والعبيد . ولكنه مضى في طريقه لا يبالي لرسي قواعد النهضة الجديدة « يا أهل فلورنسا ، إذا أردتم أن تكونوا أحراراً فلتحبوا الله أولا ، ثم ليحب بعضكم بعضا ، ولتحبوا المصلحة العامة ، وإذا تم لكم هذا الحب ، فستكون لكم الحرية الصحيحة . والحب يؤدى إلى الاتحاد . . وحيث يكون الاتحاد يكون الله فهناك كل قوة وكل فضيلة » .

وتحول شعب فلورنسا ، فاصبح شعبامثالياً ، تحول الناس من اللهو واللذات إلى الجد والعمل . ورفع الفقراء رؤوسهم .

وهنا بدأ المديتشى استرجاع سلطـــانهم فى فلورنسا ، وتكتل أعداء سافونارولا .. هؤلاء المعزولون عن الحكم . ومعهم الذين ضايقهم الجو الجديد بما فيه من كرامة وسلامة واستقامة ، فأثاروا البابا على سافونارولا .

غير أن الراهب الثائر لم يكن لبقاً ولم يستطع أن يكسب البابا إلى صفه ، فزاد من اوهام اسكندر بورجيا وهو المعروف بالظلم والطغيـان ، وصدق ما أوعزوا إليه به من أنه يطمع فى أن يضع يده على السلطة المسيحية كلهـا !

ودعاه البابا إلى مقابلته ، فرفض المقابلة ، فقد كان يعرف أنه إنمـا يريد اغتياله ، ومضى سافونارولا يهاجم رجال الدين ، ولم تفلح حيل البـابا الذى عرض عليه قبعة الكردينالية فرفضها .

وبلغ الحنق بالبابا أن عزل سافونارولا وألغى منصبه الدنى .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أن خصومه ذهبوا معه إلى أبعد مدى فقد دعوه إلى تجربة النار ، وتقدم خصمه فرنتسشكودى بوليـــا يطلب إليه أن يدخلاالنار سوياً . وستأكل النار من برى الله فساد تعاليمه ، ورفض سافونارولا ولكن أنصاره تحمسوا للتجربة ، وكانت هذه التجربة نهاية الراهب فقد فشل

فيها تحت تثيراً عوامل خارجة عن إرادته .

وهنا سقط سافونارولا فى نظر أنصاره ، وفى نظر الناس جميعاً .

وحمل إلى السجن ، وبدأت محاكمته وتعذيبه .

وصمد « سافونارولا » فى المحاكمة ، فقد كان ما زال قوى الثقة بالنفس وحكم عليه بالإعدام شنقاً ثم الحرق .. فى ميدان السيشوريا .

ولم يكن هناك من يدافع عن الراهب المؤمن .

ولكن تعاليم سافونارولا .. استيقظت بعد ذلك وعاشت . وصحح التاريخ حكمه على الرجل الذى فشل لأنه خائن .. ووضع امام اسمه كلمة « قديس »

أعدم سافونارولا فى سنة ١٢٣٧ ، وبدأ لوثر دعوته سنة ١٥١٧ ، وكان بينهما ثلاثمائة سنة . ولكن لوثر كان تلميذ سافونارولا . وقد نجح فيما اخفق فيه استاذه . وحمل اسم الدعوة الإصلاحية التى فتحت امام اوربا باب النهضة « الرينسانس » . ولكن هل وجد « لوثر » الطريق امامه مفروشا بالورد . . ؟

لا .. لقد اباح المجمع الكنسى دمه ، فاختفى سنوات ، حتى خف الطلب عنـــه . وصنع المذهب الجديد جوا من الصراع ، وانتهى هذا الصراع الى الحرب بين دول اوربا .

وامتدت هذه الحرب ثلاثة عشر عاما . ولكنها انتهت بانتصار المذهب الجديد . ولم يمت لوثر الا بعد ان توطدت دعائم فكرته .

* * *

كانت صكوك « الغفران » هى مفتاح كفاح لوثر ، وهى النقطة التى بدأ منها الثورة . فقد زار مدينة وتنبرج فلقى هناك راهبا يدعى « وكلف » يبيع صكوك الغفران لحساب البابا ليو العاشر الذى كان فى حاجة شديدة الى المال لتشييد كنيسة القديس بطرس فى روما .

ووقف لوثر يعارضه ـ يعارض هذا الراهب . ونشر فى الناس رسالة طويلة بين فيها خطأ الكنيسة وطلب اليه المناقشة فاختفى . واحس البابا بمدى الخطر الجديد الذى يكمن وراء دعوة لوثر فارسل اليه بعض الرهبان ليناقشوه فى سلطة البابا وعصمته من الخطأ . ومدى حقه فى اعفاء المذنب من طائلة العقـــاب .

وكانت الكنيسة اذ ذاك قد بلغت حداً مكن الرهبان من التسلط على الناس وادخل البابوات فى روع الجماهير أنهم اصحاب السيادة الفعلية على جميع أمراء البلاد .

وقد افسد هذا عقائد الناس . ودفعهم الى الاهتمام بالطقوس الدينية والحج الى المدافن وتلاوة الأدعية التى لا يفهمونها وفرض رجال الدين سلطانهم على الناس وعاشوا ينعمون بحياة البذخ والفساد والترف .

وكان لوثر قد عزف فى شبابه الباكر عن دراسة القانون واتجه الى قراءة التوراة ومؤلفات القديس أوغسطين ومضى فى دراسة اللاهوت ثم عين استاذاً للعلوم الدينية بجامعة وتنبرج . فلما زار روما ورأى الفساد المنتشر فيها بين رجال الدين صح منه العزم على ان يجهر بدعوته . فبدأ بمهاجمة صكوك الغفران ثم وقف فى وجه البابا الذى لم يجد بداً من ان يصدر امرا بحرمانه من حقه الكنسى .

ولكن لوثر اخذ هذا الأمر وحرقه فى السوق العامه على مرأى من جميع الناس . واستفحلت الثورة التى اعلنها وانضم اليه الأمراء الذين احسوا ان انتصار دعوة لوثر سيمكنهم من التخلص من جور الكنيسة وضرائبها . . وسيحررهم ويرد لهم املاك الكنيسة الواسعة .

واستطاع لوثر بقدرته على الخطابة ، وبلاغته ، وإيمانه بدعوته من إيقاظ شعور القومية فى الألمانيين مما بدأ خطيراً فى نظر الامبراطور شارل الخامس الذى خشى أن يعارض هذا الشعور .

ورفض لوثر أن يقبل رأى مجمع ورمس الذى طلب إليه ان يرجع عن رأيه بلا مناقشة . وطلب أن يتحدث ويناقش . ولكن عجز رجال المجمع عن الوقوف فى وجهه كان عاملا جديداً من عوامل النصر .. واعلن لوثر انصكوك امرآ الغفران والبابوية كلهـــا بدعةمستحدثة لم تكن معروفة . فأصدر المجمع يتضى باباحة دمه باعتباره مجدفا .

واختفى لوثر فى احدى قلاع سكسونيا وأمضى ، سنوات يترجم التوراة إلى الألمانية .

ثم خرج لوثر حيث انضم اليه بعض الفرسان فقاد الثورة ضد الكنيسة ، واشتد طعنه عليها . ودعا الفرسان والأمراء إلى القيام بالإصلاح ، وطالب أن يكون رجال الدين خاضعين للسلطة المدنية .

غير أن الثورة حاولت أن تنحرف عن طريقها حين ثار الفلاحين الذين أرادوا أن يخرجوا على النظم الاجتماعية تخلصاً من مظالم الأمراء واصحاب الأملاك .

ونهب الفرسان الكنائس والأديرة واستولوا على أملاك الكنيسة .

وبرز مذهب « البروتستانت » وازداد الصراع بينه وبين الكاثوليكيه ، وانضم الامبراطور إلى الحزب القديم . ودخلت فلورنسا الحرب فى صف اللوثيرين فهزم الامبراطور واضطر أن يقبل الصلح ، الذى أعطى الأمراء حق تقرير المذهب الذى يتبع فى أماراتهم وأن ترد للكنيسة روما كل الأملاك .

وفى خلال ثلاثة عشر عاما لم يستطع الامبراطور ان يفعل شيئا ، فقد كان مشغولا بالحرب مع فرنسا وتركيا . وكان يخشى أن يؤدى الأصلاح الدينى إلى انقلاب سياسى .

وبذلك استطاع « لوثر » أن يحقق دعوة سافو نارولا . وان يسيطر مذهبه على اوربا كلها بل العالم المسيحى .

* * *

كان لوثر غاية فى الجرأة فى كل خطواته التى اتخذها . فلم يكن من الطبيعى ن يقف إنسان فى وجه البابا ويحرق خطابه ويناصبه العداء ، ويحمل على

الكنيسة ورجالها بهذه القوة ، إلا إذا كان قوى الايمان . صلب الإرادة ، واسع الإدراك .

وهنا يبدو امتياز لوثر عن سافونارولا ، فقد استعان بالأمراء ضد الكنيسة . فكان هذا منه منتهى اللباقة والحنكة السياسية وهو ما لم يفعله استاذه ورائده . وتعد ترجمته للانجيل عملا غاية في الخطر حتى وصف بأنه جرأة لم يقدم عليها أحد من قبل . فقد كانت هذه هذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها الإنجيل من اللغة اللاتينية .

نابليون

حياته كأى صورة من صور الحياة التى تجرى عليها سنن الكون ، ترق وترقى حتى تصل إلى ذروة بقوة ، ثم يخترمها النقص وتتعاورها الزلازل ، وتتصل بها عوامل النقص ، حتى تنطفىء الشعلة ويذبل نورها ، وهى لحظة واحدة يتحول فيها الإنسان العبقرى البطل من القوة الخارقةالتى ترهبالناس وتهز العروش ، إلى أسير ذليل ، وإلى مهزوم محمول بالباخرة لا حول له ولا قوة .. ما أشبه حياة نابليون بالقصة الخيالية ، أو الا سطورة الممتعة . ذلك الضابط الكورسيكى القصير القمىء ، الذى يتاح له فرصة يضرب الثائرين ويحصدهم بالمدافع فى قلب باريس فى عهد حكومة باراس ، فيلمع أسمه لمعاناً خاطفاً ويعين قائداً للحرس الوطنى .

ثم يتابع مظاهر الشهرة والظهور ، وتهيىء له الظروف الفرصة بعدالفرصة فيذهب إلى ايطاليا فيجتاحها ويعود منها مرفوع الرأس . ويقصد إلى مصرفيهز ويزعجها ، ثم يعودفيصبح القنصل الأول فى باريس ، ثم لا يلبث أن يعلن نفسه امبراطوراً ، ويمضى فيكتسح بروسيا والنمسا .. ويبيت فاذا هو سيد أوربا كلها . واذا هو الاسم الرهيب المخوف الذى يزعج الملوك والقادة . ثم يصل به الحظ الى أرفع درجات القوة والمجد والسلطان ، يثل العروش . ويلغى من القاموس كلمة المستحيل .

فاذا تم له الأمر . بدأ النقص يخترمه . وأخذ المجد ينحسر عنه . فاذا بدول أوربا كلها تحاصره وتتآمر عليه . ثم تأسرة وتنفيه الى جزيرة البا . فيظل هنـــاك يرقب الحوادث . عاما كاملا . ثم اذا به يزحف الى باريس فتستقبله استقبال الفاتحين . ويهرب الملك الجالس على العرش . ويتوهج نجمه

مرة أخرى ولكنه توهج النهاية ، فاذا به ينهزم فى واترلو ، بعد أن تكاتف عليه عوامل النجم الذى يأخذ طريقه إلى الهاوية . فاذا به أسير بريطانيا فى سنت هيلانه حتى ينقضى الأجل ، فيعاد إلى باريس التى أحبها ، فى محفته ، ليثوى فى التوليدى .

* * *

عاش نابليون حياة يتمثل فيها الصراع بين المجد والحب والسلطان ، وبين الهزيمه والنفى والموت . يتمثل فيها نابليون باقعة الحرب ، وداهية الفتح ، نابغة السلم ، وقد أشرق مجده ، وعلا اسمه ؛ حتى طغى على كل اسم ومجد ، ثم إذا به ، وقد انجابت عنه أضواء المجد وانحسرت ملامح النصر .

كان نابليون ابن الثورة ، وثمرتها ، ظهر كما يظهر العباقرة والأفذاذ ؛ يكونون آية زمانهم التى لا تتكرر ولا يحسب لها حساب .

جاء نابليون فى إبانه وفى ميعاده ؛ وفرنسا فى أشد الحاجة اليه ؛ فصنع بها فى سنوات قليلة ما يعجز عنه غيره فى قرن من الزمان .

وفى خلال هذة الفترة منذ أن لمع اسمه إلى أن نفى إلى جزيرة سنت هيلانه ١٨٧٦ — ١٨١٩ أى فى خلال ثلاث وثلاثين سنة كان نابليون شغل فلورنسا الشاغل ، وموضع نظر التاريخ وتقديره .

* * *

كانت وقائع حياته خلال هذه الفترة أشبه بشريط سينمائى فهو الضابط الكورسيكى الذى بدأ شهرته السياسية باخراج الإنجليز من ثغرطولون والذى ما زال أعدائه فى خلال هذه السنون فى ستين موقعة ؛ فى فرنسا وإيطاليا والنمسا والنمسا وألمانيا وروسيا وبروسيا وبلجيكا وفلسطين ومصر .

وكون حكومة القنصلية عام ١٧٩٩ وكان هو القنصل الأول . ونودى به

امبراطوراً عام ١٨٠٤ وعمره ٣٤ سنه . وبعد أن كان قد استولى على أغلب ممالك أوربا وانتزع من البابا سلطته واستولى على أملاك الكنائس فى فرنسا وبطش بخصومه وفتك بهم فتكا .

وجيشت النمسا ضده أربعة جيوش جرارة فى خلال ستة شهور فهزمها شر هزيمة وعبر جبال الإلب ؛ بعد أن حذره منها قواده ، وامتنعوا ، فحمل العلم بيده وتقدم نحو الجسر وقال : أيها الجنود اتبعوا قائدكم . فساروا خلفه ونار الأعداء تحصدهم وهم يتساقطون عن يمين وشمال حتى عبر ممر سنت برنارد وظهر خلف العدو فاجبره على النزال وكسره فى موقعة مارنجو عام ١٨٠٠

واتسع ملكه بعد انتصاره فى اوسترلز إلى حدود لم يستطع أن يصل إليها شارلمان فى أوج مجده .

واستطاع أن يحصل بالصلح على كسب آخر فقد تنازلت به النمسا لفرنسا عن شاطىء نهر الرين الغربى وعقد صلحا مع إنجلترا هو صلح « اميان » .

وفى خلال عشر سنوات السلم استطاع نابليون ان يركز القواعد الداخلية وأن يعنى بالنظام الداخلى . وكان فى خلال ذلك يدير دفة امبراطوريته العظيمة لا يبت فى مسألة حربية أو بحرية أو سياسية أو إدارية إلا برأيه وأمره .

واستطاع نابليون أن يكسب حب شعبه ويظفر باعجابه ، وقد تملق الشعب بالعودة إلى الدين وإعادة بناء الكنائس التى هدمها الثوار . وأعلن رسمية الكاثوليكية بعد أن اتفق مع البابا ، وبذلك نال رضى عنـــه الشعب فتوجه امبراطوراً حين أعلن نفسه فى مايو عام ١٨٠٤ .

وأنشأ الأسطول الفرنسى ولم يكن لفرنسا من قبل أسطولا يذكر ، وأدخل إصلاحات ضخمة ، فقد عبد الطرق وشيد الكنائس وشق الأنهار فى باريس وروما وليون والهافر ونيس والبندقية وأنشأ حضارة كاملة من القوانين

والمدارس والمعـــاهد والتماثيل وأحواض الفن وشيد قوس النصر الشهير رمزاً لفرنسا ، وعامود فاندوم ؛ والبورصة وكنيسة المادليه أجمل كنـائس باريس ، وكان يفخر بالقانون المدنى وأسس أول بنك فى فرنسا وأبطل الرق ولم يعقد قروضاً .

* * *

وعرف نابليون بالدهاء والمكر والخداع ، كما عرف بأنه لا معقب لما يراه ، ولم يكن يجرؤ أحد على مراجعته أو مجادلته أو معارضته . وفى الوقت الذى كان اسمه يعمل كالسحر فى قلوب أنصاره ، كان يفزع قلوب خصومه ويؤرق نومهم . وكان محبوبا من جنوده إلى أبعد حد ؛ فقد كان يملأ قلوبهم بالروح المعنوية ، ويتفقدهم بنفسه ، ويشرف على أمورهم ، وقد علمهم الإقـــدام والتضحية . وغرس فى نفوسهم القدرة على القتال والاستماتة فى الحرب .

يقول لهم : « ها أنذا على رأسكم أسير بكم إلى المواطن التى تكسبكم الفخر والغنيمة وأقصد بكم بلاد الأغنياء » .

أو عظم وقائعه مارنجو ، واسترلتز .

ولكن نابليون كان إنساناً له أخطائه ، فقد طمع حين اتسع ملكه فى أن يخلد المجد فى عقبه وأهله ، فولى اخوته وأصهاره ملوكا على ألمـانيا وإيطـاليا وهولندا . ودفعه ذلك إلى أن يعقب أولاداً يحفظون هذا الملك . ودفعه ذلك الى طلاق جوزفين وزواج مارى لويزالتى أنجبت النسر الصغير ملك روما وأرهق فرنسا بالتجنيد من أبنائها وقتلهم فى الحروب .

وبعد أن اجتاحت جيوشه أوربا ، ووصلت الى قلب روسيا ، واحتلت موسكو ، ارتدت عنهـــا إلى خائرة القوى ، تمر وسط بلاد معادية وتكافح

المطر والثلج والبرد القارس ، الى ان عادت الى فرنسا بعد ان خسرت ٣٠٠ الف جندي . وكانت هزيمته فى روسيا ، مصدراً لتألب القيصر بالاشتراك مع انجلترا عليه مما أدى الى نزوله عن العرش و نفيه الى جزيرة البا (أبريل ١٨١٤)

ولكن لم تكن تلك نهاية نابليون ، فان مجده لمع مرة أخرى بعد أن توترت الحالة فى فرنسا ، وعادت فرنسا الى مساوىء العهد الماضى ، وأعيد للأشراف امتيازاتهم . .

فقد أمضى نابليون عاماً فى جزيرة البا ، حتى اذا جاء ٢٧ فبراير عام ١٨١٥ غادرها فى الف من رجاله فركبوا البحر ، ووجهتهم فرنسا ، وعندما وطأ قدمه خليج دون جوان أرسل منشوره الأول الى فرنسا .

ايها الفرنسيون : « ان ما يقرر بلا رضاكم لا يعد شرعا ، أيها الجنود هذا رئيسكم وامبراطوركم . فاجتمعوا تحت لوائه فان وجوده من وجودكم ، وحقوقه ليست الا من مصلحتكم وشرفكم ومجدكم . ان النصر لكم سيأتى سريعا والنسر الامبراطورى سيطير من قبة الى قبة حتى يحط على أبراج نوتردام فى باريس » .

وحيثما حل نابليون أثار الفرح واستقبل بالتاييد ، والتف الشعب حوله وسلمت الجيوش اليه نفسها وحمل الى قصر التويلرى .. حيث ألف حكومة المائة يوم »

وحيث أسرعت واترلو بالهزيمه ، كانت جزيرة سانت هيلانة تستقبلة ليعيش هناك ست سنوات ، ثم يعود بعد أن يسلم الروح فى ٢ مايو عام ١٨٢١ الى فرنسا حيث يدفن فى الأنفاليد .

* * *

وبنفس العنف الذى كان به يحارب ، كان كذلك به يحب ، يعشق حتى يتدله ثم ينصرف حتى ينسى . تميز بالعاطفة الحادة والنفس المتقدة . حيث التطرف فى كل شىء . كما عرف بضعفه أمام النساء .

وكانت عاطفته عارمة قوية . حينما ذهب . كان يطارده الحب ويأخذ بلبه وله مع المرأة قصص تدل على مدى رغبته فى أن يستكمل شخصيته من هذه الناحية . فهو بالرغم من بطولته فى الحرب ولمعان اسمه ، كان يحس بأن هناك ميداناً آخر ما زال فى حاجة إلى أن ينتصر فيه .

وكان حبه لجوزفين من أروع صور الحب ؛ ورسائله إليها تعد من ذخائر الأدب الفرنسى ، ليس لأن نابليون هو الذى كتبها . ولكن لروعة أسلوبها وعمق العواطف التى بثها خلالها .

وإن يكن نابليون قد أتيح له أن ينتصر فى الحرب ، فانه لم يكن سعيداً فى الحب ولم يكن من الطبيعى أن يوفق للجمع بين المجد والحب .

* * *

وفى الحرب عرف بالحركة السريعة والحماسة والضربات السريعة والتطويق والانقضاض الخاطف والانسحاب السريع .

ولكنه مع ذلك فشل فى كثير من مشاريعه وفى مقدمتها مشروع الشرق وارتداده عن حصن عكا وموقعة الأمم عند ليبزج وأخذ عليه التاريخ أنه وهو ابن الثورة لم يستطع أن يظل مخلصاً لها ؛ وإنما غلبت عليه مطامعه ؛ وأثر كأسلافه أن يشق طريقاً إلى غاياته ليكون شبيها بقيصر والاسكندر . وقد كان يحبهما ويترسم خطاهما .

وقد بلغت به سطوته أن رفض الذهاب إلى روما للتتويج . وانتقل البابا لأول مرة إلى كنيسة نوتردام لتتويجه . وليس من شك أن نابليون قد فتنه

ما أحرزه من نصر فاندفع مبهوراً وقد تسلطت عليه عاطفـــة حادة أفقدته توازنه . وقد وصف هذا المعنى أحد المؤرخين حين قال : « لقد ملأ النصر رأسه كما يملأ الهتاف رأس الممثل على خشبه المسرح فلم يبق فيه ذرة من العقل » وكان يؤمن بالميكافيليه التى تخون العهد فى سبيل الوصول إلى غاياته ، ولذلك كان يقتل أعوانه أحيانا . ولم يكن يؤمن بالرحمة ويقول إنها بالنساء أحرى وأن على الذين يتصدون لمبادىء الحرب والحكم أن يكونوا كالسيف مضاء وكالطود ثباتا .

من أعلام الفكر العربي

المتنبي
الجاحظ
المعرى

وفي شخصيات في دمشق الرسالة

المتنبي

كم هي باهرة شخصية هذا الرجل العملاق الذى وصف نفسة بهذه العبارة الرائعة : وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء . شخصية الرجل الطموح الذى عاش حياته يبحث عن المجد وينشده . وقضى ولم يحقق أمله . وإن خلف شعرا كتب له إسماً عريضاً فى تاريخ العربية كلها .

هذا الرجل الذى أتيح له أن يبرع فى المديح والهجاء معا على صورة غاية فى القوة والحيوية . والذى طمع فى البيعة بالنبوة ثم البيعة بالخلافة ثم ظل طموحه فى الرئاسة والملك طوال حياته .

لقد كان موضع إعزاز الملوك وتكريمهم . ولكنه كان يطمع فوق ما يستطيع الملوك . فانتهى به ذلك إلى النقمة والتمرد . واختلف مع سيف الدولة وكافور وعضد الدولة .

ولقد بذلوا له من المال فوق ما يطمع فيه الشعراء . ولكن المتنبى كان يطمع فى شىء آخر . كان يطمع فى الولايه . غير أن الملوك كانوا يخشون سلطان شخصية الآسر أن يحكمه بعد فى أعناقهم فأصموا آذانهم عن أمنيته الغالية .

وغاية ما يملأ النفس من شخصية المتنبى أنه قضى حياته يطلب المجد ويسعى إليه لا يكل . وأنه كان فى خصوماته وصداقاته وتنقلة من حاشية أمير إلى أمير ومن قطر إلى قطر إنما يسعى تحت ضغط رغبته العليا .

كان يؤمن بشخصيته ايمانا كاملا . يؤمن بأنه عظيم . وأنه خلق ليحتل مركزا خطيرا فى الحياة . بصرف النظر عن الأحساب والأنساب .

وهو أول من آمن بالعصامية التى تعتمد على الكفاح الفردى . وبأن

الشخصية يجب أن تنفصل تماما عن الوراثة ومجد الآباء . وأنها يجب أن تقوم على دعامة الذكاء والقوة المعنوية وحدهما .

وليس شك أنه فتح بذلك باب الطموح . وقضى على أوهام المجد الزائف المستمدة من الأنساب . وكان فى خلال حياته كلها عالى الخلق متينه لم يعرف أهواء النساء ولا مجالس اللهو ولم يشرب الخمر ، وكان عفيفاً عن الصغائر والدنايا . كأنما خلقت نفسه الطموحة مجردة عن كل ما يشوب الإنسان الكامل . كان عزوفا عن كل شيء . كأنما كانت مطامحه أكبر من الغزل أو السمر مع أصحاب الكأس والطاس .

ملأ صدره أمل كبير . كان هو كل شيء فى حياته . فقد ظل يؤرقه ويزعجه فلا يدعه يستقر .

لولا العلا لم يجب لى ما أجوب بها   وخباء حرف ولا حرداء قيدود

وكان يؤمن بأن فؤاده من الملوك . ويصف نفسه بأنها أتعبت الجسم من مرادها

فارم بى ما أردت فانى أسد القلب أدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء

وقد لقى المتنبى فى حياته الكثير من المتاعب والأهوال والآلام فى سبيل المجد الذى كان يطمح إليه ومن جراء الأحقاد التى كانت تحوطه دائما من خصومه .

واضطره نكد الدنيا ان يصادق عدوه . وأن يبسم فى وجه من يكره من الناس . ودفعه إلى هذا أن الحياة بخلت عليه بما يريد . وأنه عندما جاءها مستشفيا أمطرت عليه مصائبا كما يقول فى شعره .

آمن بنفسه . ولكنه لم يذهب مذهب الجاملين والمتواضعين . وإنما ذكر نفسه وسجل فضله :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
والخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقد أنشد هذا بين يدى سيف الدولة الذى ضاق به . ورماه بالدواه . . فسال المداد على ثيابه . ومع ذلك فقد ظل شامخ الرأس . كأن لم يمسه أذى وقال :

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهنا ضمه سيف الدولة اليه . وعانقه وأجلسه بجانبه .

ولما ضاق بأمله فى حلب قصد مصر . ثم تركها إلى بغداد .. إنه لايستطيع أن يلقى الهوان ، ويفضل عليه التعرض للموت .

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

وظل المتنبى طول حياته يسعى إلى أمله ثم لايصل إليه . فيحس أنه لا يعطى من دهره ما يريد حاول مع سيف الدولة ففشل . حاول مع كافور فاخفق .

وبالرغم من أنه شاعر مداح فقد كان لشعره صورة مفردة . كان أنشودة المجاهدين إلى حروب الروم يملأ نفوسهم بالايمان والقوة والفداء فى سبيل الدفاع عن أرضهم ودينهم .

وقد بلغ المتنبى إلى حد التبريز فى المديح والهجاء معا وهو مالم يتوافر لغيره من الشعراء . وكان يصدر فى مديحه وهجائه عن إيمانه الصادق . ونفسيته اليقينية . فهو لا يقلد ولا يذهب مذهب المجاملة فاذا حب أحب بكل عاطفته وبلغ قمة الحب والإعجاب وظهر ذلك فى شعره واضحا . وإذا خاصم خاصم بكل عواطفه ويظهر هذا فى مدائحه لسيف الدولة . وهجائه لكافور .

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وقد أسلمه إيمانه إلى الاعتقاد بأن الناس لا يقدرونه قدره ، وأنهم يظهرون له غير ما يبطنون ، أسلمه إلى الشك فى الناس وتحولت نفسيته إلى مزيج من الألم والحزن والتشاؤم والشك فى أقدار الناس .

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام
وآنف من أخى لأبى أمى إذا ما لم أجده من الكرام

ولما مرض جعل ألمه من متاعب النفس لا من متاعب الجسد .

وما فى طبه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام
تعود ان يغبر فى السرايا ويدخل من قتام فى قتام
فان أمرض فما مرض اصطبارى وإن أحمم فما حم اعتزامى

لقد مرض بعد أن رأى من مراوغات كافور ما أفسد عليه مشاعره وبدل ثقته فى الناس كفرانا ، فكان يطوى جسمه بالحشايا . ويقول : أوقد النار يا مسعود ، إن ثلوج الشام تتساقط على فراشى وتنفذ إلى مشارب جسمى .

ولم يكن مرضه إلا خيبة الأمل بين حلب والقاهرة ، كان سيف الدولة وكافور ويخافان من طموحه ويخشيان قوة شخصيته ، وكان هو يطمع فى ولاية من الولايات ، ولكن أنى له ذلك بالشعر وحده ، وهكذا عاش المتنبى مطوفا فى الآفاق تجهش نفسه بالمجد والآمال والمطامع فلم يبق عنده متسع للحب او المرأة .

إنه عاش فى القاهرة ثلاثة اعوام لم يكتب حرفا واحدا عن جمالها ، ولم يصف نهرها العظيم ولا اهراماتها الشماء ، ولم يلفت نظره حسنها الباهر . . فقد كان فى شغل عن الدنيا بأمله .

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ويسأل نفسه : يقولون لى ما أنت فى كل بلدة : ما تبتغى ؟
ويجيب : ما أبتغى جل ان يسمى :

وكنت إذا يممت أرضاً بعيده سريت فكنت السر والليل كاتمه

ولما ضاق بالحاسدين والكائدين الذين لقيهم فى مصر وحلب وبغداد والكوفة وشيراز روى رمحه ولكنه لم يطعن به . إنه الشاعر الذى يقول ولا يعمل :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وهو يعلم أن القدر يقف ضد آماله :

أهم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ويصف قلبه الطموح الذى لا ينتهى امله .

ومن الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وقد دفعته الظروف كلها إلى ان يخرج هاربا سواء من القاهرة او من حلب او من القاهرة .

اذا رحلت عن قوم وقد قدروا الا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

وقد انتهى به الأمر ان احس بالدنيا رزءا لا يحتمل ومجموعة من عناصر اللؤم والنكر والظلم :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام	تكسرت النصال على النصال

وما زالت بعض أبيات المتنبي الشعرية ترويها الأجيال وتجرى على كل لسان ، ومن هوذا قله :

عيد بأية حال عدت يا عيد | بما مضى أم لأمر فيك تجديد
ولم أر فى عيوب الناس شيئاً | كنقص القادرين على التمام
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله | ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وقد روى أن ابن العميد وكان يكره المتنبي ويغض من شعره لما ماتت أخته جاءه نيف وستين كتابا فى التعزية ما منها واحد إلا وفى صدره بيت المتنبي

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر | فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

وقد وصف المتنبي « المجد فى صورة كانت حياته تطبيقاً لها .

لا تحسبن المجد زقا وقينة | فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وإن ترى | لك الهفوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما | تداول سمع المرء أنمله العشر

« .. رأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة . والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ولا بد من جودة القد . وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر . ولا بد ان تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة جودة العصب . وقلة الاسترخاء . وأن تكون سليمه من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا حمضانة وسيفانه . وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضب خيزران . والتثنى فى مشيها احسن مافيها ولا يمكن ذلك الضخمه والسمينه وذات الفضول والزوائد على أن النحافة فى المجدولة أعم . وهى بهذا المعنى أعرف . . . »

.. ذلك هو الجاحظ الخبير بالحياة . العميق الفهم لطبيعة المرأة . وهو إلى ذلك المحب : استمع اليه « ما ضاء على نهار . ولا دجا ليل منذ فارقتك . إلا وجدت الشوق إليك قد حز فى كبدى . والأسف عليك قد أسقط فى يدى . والنزاع نحوك قد خان جلدى . فانا بين حشا خافقة ودمعه مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد . وجوانح قد ابتليت بما تكابد »

وبالرغم من الجاحظ لم يتزوج فانه كان يعرف المرأة جيداً . وقد دافع عنها فى كتابه الحرائر والإماء دفاع الخبير المجرب . وهو مع ذلك كان بشع المنظر. قالت له امرأة لقينه فى الطريق : تعالى معى . وذهبت به إلى الصائغ وقالت له مثل هذا وقد عرف عند المورخين بأنه الدميم الذى كان يحمل قلباً خافقا .

* * *

بدأ حياته فقيراً وانتهى إلى الغنى والترف . كان يحب الكتب والقراءة إلى درجة الجنون . لذلك كان يستأجر مكتبة من مكتباب البصرة ويقضى الليل ساهراً يقرأ كتبها وينسخ منها كراريسه ، وبلغ حبه للكتب أنه مات بوقوع الكتب عليه .

ووصفه للكتاب يعطى صورة عاطفته : « الكتاب وعاء ملىء علماً . وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا ، ومن لك بواعظ مثله ، وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابي ورومى ؛ وهندى وفارسى ويونانى ، ونديم مولد ، وحبيب ممنع .

ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ، أكتم للسر من صاحب السر ؛ وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا ، ووروده خمسا ، وان شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك .

والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك ، والصديق الذى لا يقليك ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى اذا نظرت فيه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ؛ وبسط لسانك وجود بيانك » .

وقد حضر الجاحظ حلقات الجدل وشارك فيها ، وكان يؤلف الكتب ويهديها الى كبار رجال الدولة ، وكان الجاحظ واسع المعارف ، اتصل بكل النواحى الفكرية والعقلية فى عصره ، أخذ من كل شىء بطرف دون أن يتعمق شيئا ، وقال نقاده أنه يثير الشبهات ولكنه لا ينقضها ، ويسأل ولا يجيب .

وقد عرف أسلوبه بالازدواج ، فى الأداء ، والفكاهة والسخرية والتقدم والهجاء فى النقد ، وقد انتصر للنثر على الشعر وجعله قريبا الى نفوس الجماهير

وهو وصاف يقول : « ان القينة لا تكاد تخلص فى عشقها أو تناصح فى

ودها لأنها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربصين ليقعوا فى أنشوطتها وذلك لأن حبهن كلهن كذاب وعشقهن مبتذل غير ثابت .. وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفه وهى إنما تنشأ بين الحلفاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد .

وتروى الحاذقه منهن أربعة آلاف لحن فصاعداً بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق والصبوة والشوق .

وذكر أبو عثمان أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغى اليه ثم يؤلف ماهو أنقص منه مرتبه وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين فيقبلون على نسخها لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافستهم على المناقب التى يختص بها ويعنى بتشييدها .

وقد ابتلى الجاحظ بالحسد فوصفه فى مواضع كثيرة من كتبه ومنها قوله « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر وصاحبه ضجر . وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن فمداريه فى عناد .

وهو سبب كل قطيعة يكمن فى الصدور كمون النار فى الحجر »

وكان الجاحظ صديق الوزير محمد بن عبد الملك وخصيما لأحمد بن داود ، فلما قتل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيداً من البصره وفى عنقه سلسلة وعليه سمل . فلما أدخل على ابن داود عاتبه عتابا فاحشا . فقال الجاحظ : حفض عليك أيدك الله . فوالله لأن يكون لك الأمر خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسىء . ولأن تعفو

عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى ، فعفا عنه ابن داود .

وقد ألف الجاحظ أكثر من ٣٥٠ كتابا فى الفلسفة والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والأدب .

وفى خلال حياته الطويلة الخصبة ألف كتاب العباسية المأمون وقد أدى خدمة لمذهب المعتزلة حين دافع عنه ودعا إليه .

ورووى أن أحد الأمراء أرسل للجاحظ يطلب منه أن يحتج له فى رأى فكتب له الجاحظ بما طلب . ثم عاد الأمير يقول له إن الخادم قد غلط فى تبليغ الرساله إليك . وإنما أريد ان تكتب فى نقيض هذا الرأى ، فلم يلبث الجاحظ عن أن كتب له ما أراد .

وقد بدأ الجاحظ حياته فقيراً ؛ قيل أنه رؤى يبيع الخبز والسمك بسيحان ثم لم يلبث أن بلغ به الثراء مداه فانهالت عليه الهدايا والعطايا من العظماء وأرباب الدوله . وقد أعطاه محمد بن عبد الملك فى كتابه (الحيوان) خمسة آلاف وأعطاه ابن أبى داود فى كتابه (البيان والبنين) خمسة آلاف وأعطاه ابراهيم الصولى فى كتاب (الزرع والنحل) خمسة آلاف .

ولم يكن الجاحظ متزمتاً ولا ناسكا وقد استعمل الرمزية فى كتابه البخلاء

وعاش راغباً عن مجالس الأمراء والخلفاء . وعرف بأنه جواب أفاق ، زار جزيرة العرب والروم والشام وأنطاكية ودمشق .

وقد أصيب بالفالج وعاش به ثمانى سنوات لم ينقطع فيها عن العلم والتأليف حتى سقطت عليه مؤلفاته . وقيل أنه كان من عادته أن يضعها قائمة كالحائط محيطة به . وهو جالس اليها وكان فى السادسة والتسعين من العمر .

وما يزال أسلوب الجاحظ حياً يبهر النفس ، وقد كان له مقلدون من بينهم المازنى .

المعرى

عندما بلغ الثلاثين من عمره غير أسلوب حياته . توقف عن المضى فى الحياة وبدأ يتحول ثمة ولكن لماذا تحول المعرى عن الناس واعتزلهم وأنكر الحياة؟

كان قد عاد من بغداد وفى نفسه هذا الاتجاه إلى العزلة . قال : « وجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة عزلة تجعلنى من الناس كبادح لأروى فى سانح النعام . وما ألوت نصيحة لنفسى ، ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة إلى غيرى فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم »

وقيل كان يحب أمه فلما ماتت زهد الدنيا أو أنه أراد ما لم يصل اليه . وكان قد ذهب إلى بغداد للشهرة وسعة العيش فلم يتيسر له ما أراد ، فعاد يائساً راغباً فى الفرار من الحياة السياسية .

وقد قال عن نفسه « ما اعتزلت إلا بعد ما جددت وهزلت ، فوجدتنى لا أنفد من جد ولا هزل » .

وقد طلب إلى أهل المعرة وهو عائد اليها ألا ينتظره أحد ولا يزوره إذا استقر فى داره وقد أقام فى داره لا يبرحها خمسون عاما لم يتزوج ولم ينسل ، وحظر على نفسه أكل الحيوان وما يخرج منه ، وعاش على العدس والزيت والتين والدبس واتخذ من اللباس أخشنه وأقساه . ومن الفراش أغلظه وأجفاه . ولا يتخذ من الشتاء دفئاً ولا يستطيع الماء الساخن . وقد عاش حياته لا يتصل بأمير ولا يقف على باب وزير « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد . ولا مدحت طلباً للثواب . وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس »

وقال عن نفسه أنه يعيش فى ثلاثة من سجونه : فقد ناظريه ولزوم بيته

وكون النفس فى الجسم الخبيث . وقيل ان زهده ليس زهد الراضين ولكنه زهد المضطرين . زهد من لا يستطيع أن يأخذ حظه من الحياة وقد كان يحسد المنعمين ويسمى الدنيا أم دفر كراهية لها .

وقد نظر إلى الحياة من منظار أسود . إذ يراها سلسلة من آلام طويلة متصلة الحلقات . وعرف بالتشاؤم والتطير . إلى جانب السخط والتبرم .

وأساء الظن بالمرأة وقال عن النساء أنهن حبال غى ، بهن يضيع الشرف التليد وكان متقلبا بين الإيمان والشك . يرضى ويسخط . وقد حير الناس فى معتقده فى الدين . لتناقض آرائه .

ويرى النقاد أنه كان يريد أن يقول أشياء كثيرة لا يستطيع الجهر بها ، فقالها فى أسلوب من الرمز . كما كان حريصا على الرأى الغريب المثير الذى يحدث الدوى فيتحدث الناس عنه .

وقد نعى على الأمراء والعلماء ورجال الدين والحكام الجائرين . ولكنه كان حذراً فقد احتاط فى أن يقول كل شىء فى نفسه دون أن يفصح حتى لا يكشف أمره للناس ورفض المعرى أكل السمك والطير ولحوم الحيوان .

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

ومن سخريته قوله :

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكا من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد
تعب كلها الحياة فما أعجب الأمن راغب فى ازدياد

وقد وصف المعرى بأنه كان نحيلا ضئيلا ، عرف بدمامة الوجه وضآلة البدن وقصر القامة . وانطفاء البصر .

طوف بالشام وذهب إلى بغداد وتلقى العلم وأحب اللغة وعدها فنه الأول وكان قد أصيب بالعمى بعد ثلاثة أعوام من سنه ، وعاش حتى نيف على

الثمانين يتناول طعامه متخفيا ، متحرجا من علته . وقد كتب خلال اعتكافه ديوانيه (سقط الزند ولزوم مالا يلزم) كما كتب عددا من الرسائل إلى تلاميذه وأصدقائه . كما ألف « الفصول والغـــايات » على نسق القرآن يثنى على الله ويتعبده بهذه الابتهالات . ولما مرض أحضروا له الفروج فلسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك . هلا وصفوا شبل الأسد ؟

ومما يروى أنه دخل على المرتضى أبى القاسم فعثر برجل فقال الرجل : من هذا الـكلب ؟ فقال المعرى : الـكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما !

ووصف نفسه بأنه وحشى الغريزة انسى الولادة . وقد استطاع أن يقضى على لذاته الجنسية والغريزية وتقبلها . وقد مرت به الأيام متشابهة مضطردة ملولة ولـكنه رضى بها . دون مال كثير . وفى نفسه تطوف أحلام اللذات فيصرفها فى أسلوب من القسر والإهمال . .

وكان يخاف أن يظلمه الناس بعد موته حين يرون أدبه الذى كتبه برموزه وإيماءاته فقال :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى   إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

من تراجم الطغاة

عبد الحميد

كان اسم عبد الحميد فى خلال السنوات السابعة للحرب الكبرى الأولى رهيبا مخيفا يفزع النفوس حتى قال فيه الشاعر :

تنهى وتأمر ما بدا لك فى الكبير وفى الصغير
لا تستثير وفى الحمى عدد الكواكب من يشير
كم سبحوا لك فى الرواح والهوك لدى البكور
ورأيتهم لك سجداً كسجود موسى فى الحضور
خفضوا الرؤوس ووتروا بالذل أقواس الظهور

ومع ذلك فان هذا السلطان الخليفة الذى كان يحكم الامبراطورية الإسلامية الضخمة كان ضعيفا مترددا دائم الرعب ولم يكن ما يروى عنه من أنه طاغية إلا وهما موهوما يخفى وراءه عبد الحميد الإنسان ضعفه . ولقد كانت بريطانيا تعرف فيه الجبن فكان وكلائها يلوحون له دائما بخليفة آخر منشق عليه كما يخفونه بسلطان الخديويين .

وبالرغم مما رسم الكتاب من صور لقصور السلطان شبيهة بقصور الف ليلة فان عبد الحميد لم يكن من أولئك الذين يغرقون فى اللذات . كان رجلا مريضا خائفا كالشعب تماما فى عهده . كان حكام تركيا الفعليين هم الأغوات وجوارى الحريم وأبو الهدى الصيادى الذى كان يموه على الدولة باسم الدين .

ولذلك كان طبيعيا أن يكون رد الفعل قاسيا بعد أربعين عاما من الاستبداد وتكميم الأفواه ، فقد جاء مصطفى كمال فنقل تركيا من الشرق إلى الغرب . وعلق خصومه على المشانق . وفرض القبعة وكتب من الشمال وقطع صلة تركيا بالعالم العربى والإسلامى واعتبر بلاده قطعه من أوربا .

* * *

عاش « ظل الله فى الأرض » سجينا فى قصر يلدز ، أربعين عاما ، خائفا متربصاً بأمة ضخمة الدوائر . وهى متربصة به ، حتى زحف الكولونيل شوكت فاقصاه عن العرش ونفاه إلى سالونيك فامضى بها عشر سنوات طريداً شريداً إلى أن انقضى أجلة فى فبراير سنة ١٩١٨ .

وكانت نهايته هى نهاية عهد أسود طويل مر بعاصمة الخلافة العثمانية ، وبداية نهضة جديدة . ولدت بذورها فعلا فى أيام استبداده وظلمه وتسلطه .

فى ذلك الصباح (٧ سبتمبر) أطلق مائة مدفع ومدفع ، إعلانا بأن عبد الحميد قد أصبح سلطان البرين وخان البحرين ، ولم يلبث السلطان أن منح بلاده الدستور فى ٢٣ ديسمبر من نفس السنة وبعد مرور أسبوعين على تولية العرش ولكن سرعان ما سحب عبد الحميد هذا الدستور ، ومضى يحكم البلاد باسلوب غاية فى العنف واحداً وثلاثين عاما ثم أعاد الدستور سنة ١٩٠٧ .

وحاول أن يكرر نفس المأساة ، غير أن الوعى عام ١٩٠٧ كان غيره عام ١٨٧٦ فسرعان مازحفت قوات شوكت إلى العاصمة وحطم هذه السلطة الظالمة .

* * *

كان استيلائه على الملك أشبه بالاستلاب ، فقد سجن « مراد » شقيقة الأكبر والخليفة الشرعى ، واتهمه بالجنون . وأعلن أنه مستعد للتنازل عن الملك إذا شفى ، وأمضى مراد سنوات طويلة معذبا مرهقا باساليب من شانها

القضاء عليه فلما مات تنفس عبد الحميد ، وأحس بالحرية .

ولكن عبد الحميد أحس منذ اليوم الأول أن الجو من حوله ليس نقيا وأن هناك عوامل مختلفة ، قد تقضى عليه بين لحظة وأخرى . ولذلك عاش حياة كلها القلق والخوف . واستعان على التمكين لنفسه باكثر من ٢٠ ألف جاسوس بثهم فى كل مكان ليحملون له الهمس الذى يدور فى القهاوى والبيوت والأندية . وكان يعيش يومه كله يقرأ التقارير المرفوعة إليه . ويحيط نفسه بجو رهيب لا يحس معه الأمن ولا السلام .

لقد سجن عبد الحميد نفسه فى قصره « يلدز » الذى بناه على هيئة سراديب مظلمة وغرف صغيرة ، متداخلة على نسق عجيب لا يعرف المرور به إلا إنسان واحد : هو الخليفة نفسه ، فقد كان عبدالحميد يتوقع الانقضاض عليه واغتياله فى كل لحظة .

وحبس عبد الحميد عن الناس كل نبا عن الاغتيال . وكانت كلمات الحرية والدستور ممنوعة منعاً باتاً ، وهى تعرض قائلها أو كاتبها لتهمة الخيانة العظمى

وكان يقضى ليله ساهراً يستمع إلى قصص الاغتيال والقتل فى الثورة الفرنسية وحوادث المؤامرات فى قصور الملوك والأباطرة .

ولخشيته من الاغتيال ، كان يحمل معه فى عربته عندما يقصد إلى المسجد للصلاة طفلا صغيراً كرديئه عن القتل .

اما الطعام فيقدم له فى أطباق من الفولاذ . وهو لا يطمئن فى اعداده الا لأيدى معينة يطمئن اليها ، وهى فى الغالب من أيدى الجوارى .

ومنع الحضارة عن تركيا فقد كان يخشاها ويرى فيها الوسائل التى تقضى على سلطانه . فرفض النور الكهربائى والتليفون .

ولم يكن من المستطاع أن تتحدث صحيفه عنه بالنقد . فاذا أهدر دم خصم

من خصومه . نشر فى الصحف على انه توفى ، حتى الاغتيالات التى كانت تقع خارج تركيا لم يكن هناك سبيل إلى نشرها إلا على أساس أنها وفيات طبيعية ولم يكن فى الإمكان التصريح بالسفر إلى الخارج لأحد من الزعماء أو غيرهم فاذا تحدث معه أحد ، كانت هذه الأحاديث تسجل فى نفس الوقت وتحفظ .

* * *

نشأ يتيما من أمه ، هذا النحيل الجسد ، الذى لم يعترف به أبوه عبد المجيد إلا بعد جهد . والذى عاش من وراء الأبواب المغلقة يتسمع ويحس بالضعة وقد سبقه فى العمر أخاه مراد . حيث عاشا فى ذلك الجو المشبع بالأحقاد ، جو الحريم الملىء بأسراره وشعوذته . وبالسحر الذى علمته إياه مدام برتقالى هذا السحر الذى ظل يمارسه حتى بعد أن أصبح خليفة . إذ كان يصنع تمثالا من الشمع على هيئة أخيه مراد ثم يقرأ عليه بعض التعاويذ ثم يحطمه .

ومنذ اليوم الأول لتوليه الخلافة أحاط نفسه بجو من الحيط ، فنفى كل دعاة الحرية والدستور وفى مقدمتهم مدحت أبو الدستور العثمانى . وحول مسكنه إلى قلعة . ليحمى نفسه من رعيته . ومضى يعيش فى هذا الجو الملىء بالسحر .. كان أقرب الناس اليه أبو الهدى الصيادى ، متسول حلب الذى استطاع أن يصل إلى مكان الصدارة والثقة منه . والذى كان يتصدى لكل مصلح ليظل هو أقرب الناس إلى الخليفة .

وكان أبو الهدى على استعداد أن يروى لعبد الحميد كل يوم حلما يرضى به الناحية الخائفة فى نفسه ويضيفه إلى الأنبياء والملائكة .

وكان جواسيسه يكلفون الدولة ثلث ماليتها .

ولم يكن عبد الحميد مثقفاً ، ولم يتلق تعليما واسعاً . ولم يسافر أسفاراً بعيدة ولكنه عاش منطوياً ، يحس دائما أنه مهدد ، وأن هناك خوفا يترصده ، ولذلك كان يلجأ إلى الرقائق والتمائم والعرافين والفلكيين .

وقد عرف بالذكاء والحرص . حتى أنه كان يجمع الشمع الأحمر الذى ختمت به التقارير ليصنع منه كومة ضخمة .

وكان عداؤه لأوربا ، عداءاً للآفاق الواسعة التى تزحزحه عن عرشه ولكن هذا التسلط الذى كان يدفع بالعشرات والمئات إلى الأقبية المظلمة ، ثم يدفع بهم بعد ذلك إلى الدردنيل ، لم يحل دون قيام جماعة مناهضة هى جماعة الاتحاد الترقى التى كانت آخر مسمار فى نعش سلطانه .

ولم يعرف عن عبد الحميد رغبة جارفة إلى النساء ، ولذلك لم يكن يفزع إلى الحريم الا بين حين وآخر ، حينما يضجره واقع الحياة . وكان أحيانا يأكل من تجويف يد جارية ، أو تشاهد وهى جالسة إلى جواره تفض له بريده . ولم يعرف عن عبد الحميد أنه ابتسم طوال حياته .

وحرصه على نفسه ، وخوفه من القتل ، كون فيه عاطفة البغض والحذر والوحدة ، فقلما كان يتصل بالشعب أو بالناس . ولقد حطمت هذه الطبيعة الخائفة كل ذكائه وحصرته فى مجال ضيق جدا احاط نفسه فيه بكل ما يبقى له حياته ويرد عنه عادية المعتدين .

وكانت وسائله هى التماثيل المصنوعة من الشمع على هيئة خصومه ايماناً بالخرافة التى تقول أن تمثيل الرجل على صورته وتحطيمه قد يؤدى إلى موته أو قتله .

* * *

كانت الفترة التى حكم فيها عبد الحميد تركيا من أقسى الفترات وأدقها على العالم الإسلامى كله ، إذ التهبت أوربا العثمانية بالثورة وطالبت بالحرية ووجد نفسه مضطرا إلى قمع الثائرين فى أرمنيا والبلقان . وكان عبد الحميد فى نظر الأوربين هو عدو المسيح .

وكان التدخل الأوربى فى عهده قد بدأ يأخذ صورة الاستعمار والزحف

على مناطق مختلفة كالهند ومصر والمغرب ، وقد وقف أمام هذه المظاهر كلها وقفة الحائر ، ولكنه ألهم أخيراً الدعوة إلى الجامعة الاسلامية ليوطد نفوذه ويدعم سلطانه . ولذلك استدرج جمال الدين الأفغاني وحاول أن يستفيد من عبد الله نديم وغيره . غير أن الأسلوب الذى كان يراه لتحقيق هذه الجامعة يختلف مع المذهب الذى يؤمن به هؤلاء الأحرار ولذلك سرعان ما دب الخلاف. فضلا عن حرص أبو الهدى الصيادى على أن يشوه كل داعية عند عبد الحميد ويضع العراقيل التى تحول دون وصوله إلى مكان الصدارة منه ، حتى يظل محتفظا بمكانته لديه . كل هذا كان حائلا دون تنفيذ هذا المشروع الخطير .

وامتد الصراع بين عبد الحميد وبين أوربا ممثلة فى روسيا من ناحية وفى ألمانيا من ناحية أخرى . وكل منهما حريصة على أن تستغله أو تسحقه .

* * *

ووقع لعبد الحميد أخيراً ما كان يخشاه . بعد أن أمضى أكثر من ثلاثين عاما فى الحكم ؛ ثم جاء اليوم الذى يطلب فيه إليه عن أن ينزل عن عرشه ويغادر يلدز منفياً إلى سالونيك حيث يقضى هناك بقية عمره .

كان شعور الثورة على استبداد عبد الحميد قد تبلور فى صورة حزب تركيا الفتاة .. ولم يجد بداً من الاعتراف بالأمر الواقع ، وفجأة .. والناس يترقبون الأحداث أعلن عبد الحميد « الدستور » وأعلن أنه أحد أعضاء حزب تركيا الفتاة . وعاد المنفيون من أوربا ، وخرج المسجونون السياسيون من الأسر ، واستولى على زمام السلطه رجال الثورة المؤمنون بالترقى ودعاة الحرية والإخاء والمساواة .

وافتتح البرلمان فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ وحضر الخليفة افتتاحه . وظن أن الأمر فى تركيا قد استقر . وأن النهضة الجديدة قد ألغت الاستبداد الذى أغرق فيه عبد الحميد البلاد أربعين عاما .

ولكن ذلك كان فيما يبدو خيالا خادعا . فان الأمر سرعان ما تحول مرة أخرى . لقد أصبح الناس ليروا أن الجيش قد استولى على مواقع المدينة . وبدأ اطلاق الرصاص . وتوقفت الحياة فى القسطنطينية . وظهر وراء ذلك صوت جديد يقاوم صوت تركيا الفتاة وعلى رأسه العلماء ورجال الدين الذين يرون أن الاتجاه الأخير انما هو خروج عن الشريعة . وأنه لا بد من حماية الدين والتقاليد . وكانت الصيحة الجديدة « لتحي الشريعة . ليحيي الباديشاه والموت لتركيا الفتاة »

* * *

وكان الأمر فى حاجه الى حركة حاسمة . كانت هذه الحركة هى زحف الكولونيل شوكت من سالونيك . وقد وصلت طلائعها إلى أسوار القسطنطينية وظلت القوة تهتف بحياة السلطان على بعد ثلاثين ميلا من العاصمة . وسرعان ما أمر بدعوة المجلس الوطنى فى سان استيفانو لتقرير مصير السلطان : خلعه أو اعدامه أو استمراره .

وصدر الأمر بتنحية الخليفة العثمانى عن العرش .

ومضى شوكت يتم زحفه . واستسلمت حاميات الأسوار الخارجية لشوكت واحتل دوائر الحكومه والأماكن الهامة .

وفى الصباح . غدا شوكت سيد المدينة المطلق . . وهجر الحراس أبواب يلدز وأصبحت الامبراطورية التركية فى يد جمعية الاتحاد والترقى بزعامة شوكت

كان عبد الحميد اذ ذاك يزحف . فقدجاء اليوم الذى كان يخشاه وسرعان ما قطع التيار الكهربائى عن قصر يلدز . الذى حاصره شوكت حصاراً عنيفاً واقتحم الجنرال أسعد وكر الخليفة وقال له : لقد جئنا لنبلغكم أن الأمة عزلتكم عن العرش . . وأن شيخ الاسلام صدق على قرار الخلع .

وغادر عبد الحميد « يلدز » الى سالونيك فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٩ .

شخصيات

على مائدة الحياة

عمر وخالد

شكسبير وبرناردشو

شوقي والبارودي

جناح وغاندي

مصطفى كامل ومصطفى كمال

نور الدين وصلاح الدين

إقبال وطاغور

المتنبي والجاحظ

ابن تيمية والغزالي

شوقي وجيتة

علي ومعاوية

عرابي وعبد الناصر

الحسن الصباح ونظام الملك

سافونارولا وراسبوتين

محمد فريد ومتزيني

سافونارولا وابن حنبل

جمال الأفغاني وعبد الحميد

جان دارك ونابليون



عمر وخالد

قطبان من أقطاب الدولة الجديدة الناشئة .. أما أحدهمافالرجل الذى ضرب به المثل فى العدل .. والشدة وإنكار الذات والإنصاف من النفس .

أما الآخر فهو البطل الذى هز الدنيا بفتوحاته وانتصاراته وقوة بأسه .. وبزاعته الحربية الفائقة .

وكلاهماعرف بالشخصيةالاستقلالية التى تأبى أن تخضع أو تدل أوتستكين ولدا فى مكة ، وشبا فيها ، وعرفا بالبطش والصرامة ، أما أحدهما فأسرع إلى الإسلام بعد لأى ، وأما ثانيهما فقد كان حرباً على المسلمين ، إذ هزمهم فى موقعة أحد ، ولم يسلم إلا بعد الفتح .

فلما مات النبى استبق أبو بكر أولهما إلى جواره يستشيره وأرسل ثانيهما يدفع عن الإسلام الردة . فجاهد المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة جهادا قويا ردهم به إلى الجادة ورد إلى الإسلام الوليد هيبته فى شبه الجزيرة .

لعلك قد عرفت بعد من أعنى : هما «عمر» و «خالد» عمر الخليفة الحازم الذى كان يضاعف العقوبة لأهله إذا أحدثوا أمراً .. وينقصهم فى العطاء .. ويردهم إلى الصفوف الأخيرة ، هو عمر الذى لم يقبل من سيف الله «خالد» ، أن يجيز لنفسه حرية التصرف فى العطاء أو يسرف فى إنفاق ماله من فىء .

وكأنما كانت جائزة الأشعث بن قيس هى عقدة هذا الصراع بين القائد المظفر والخليفة الحازم .

غير أن الصراع كان من جانب واحد . من جانب الخليفه الذى يرى أنه يجب أن يرجع اليه فى كل شىء . والذى يأبى أن تفتن خالدا انتصاراته الضخمة

فى قرقيلية وأرمنية ، وفى الشام والعراق . فيبيح لنفسه ان يعطى الشعراء وأن ينفق عن سعة حتى تذكر أريحيته إلى جوار أريحية ملوك بنى غسان وملوك الحيرة

ولكن عمر ، كان قد بدأ صراعه مع خالد من قبل ، بدأه عندما طلب الخليفة الأول ، سيف الله . ليسأله عن قتله ابن نويره وزواجه بامرته .

فلما أن ولى الخلافة بعد أن قضى أبو بكر . كان أول أعماله خطابه بعزل خالد وتأمير أبى عبيدة .

ولم يقل خالد شيئا ، بل عمل جندياً تحت قيادة أبى عبيدة ، وسجل له التاريخ أروع قصص البطولة والفتح . إلى أن بلغ عمر أن خالداً أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف دينار ، هنا أحس عمر أن الأمر قد بلغ أقصى ما يمكن أن يكون من الخطر ! وأن خالداً أراد أن يتشبه بالملوك والأمراء . دون أن يقيم للخليفة وزناً .

فكتب إلى أبى عبيده يطلب اليه أن يستقدم خالداً اليه وأن يسأله : أأجاز الأشعث من ماله أم من إصابة أصابها ، فان زعم أنه قد أصابها فقد أقر بجنايته وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأمره أن يعزله على كل حال .. وأن يضم اليه عمله .

غير أن أبا عبيدة على ما به من حياء وما يكنه لخالد من تقدير ، أخذته الحيرة ، ثم ترك الأمر لرسل الخليفـــة ، واكتفى بأن طلب خالد يستدعيه وجمع الناس فى المسجد ، وجلس على المنبر صامتا ، يا له من منظر خالد فى تاريخ الإسلام .. وفى تاريخ الإنسانية .

قام بلال يسأل خالداً : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها؟

وأخذت خالدا الدهشة ، فى أشدصورها وأقساها ، هذا الجمع الحاشد الذى حضره كبار المسلمين فى المسجد الجامع ، وهؤلاء هم بريد عمر ، حضروا من

المدينة ليسألوه فى أمر من أموره الخاصة !!

كان على عمر أن يدعوه إليه كما استدعاه الصديق من قبل . وعقدت الحيرة لسان خالد . وصمت ولم يجب .

واتجهت الأنظار كلها نحو سيف الله . وكرر السؤال . وأصر خالد على الصمت .. وهنا قام بلال فعقل خالدا بعمامته بعد أن ضم يديه وراء ظهره ونزع عنه قلنسوته . وقال : إن هذا أمر الفاروق له . حتى يجيب عما سأل عنه وألح خالد فى الصمت . ووجم وجوما شديدا .

وبدا الدهش على وجوه الناس وتمايلت رؤوسهم وتهامست ألسنتهم بالحديث من كان يظن منهم أن خالدا الفاتح المنتصر الذى غزا الشام والعراق . وكان موضع ثقة رسول الله وثقة الصديق . يوثق بعمامته ليسأل عن أعطية أعطاها

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن فتح خالد قنسرين التى استعصت وطال حصارها وضج عمر بالفرحة عندما بلغه الأمر . وقال : « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر . . كان أعلم بالرجال منى » ولكن عمر . لم يلبث أن أنكر تصرف خالد فى أمر الهبة . فأمر بعزله وهو فى أوج مجده . فى الوقت الذى كان - فى فم الروم والفرس والعرب - حديث المجد والبطولة والعبقرية .

وبعد أن خضعت الممالك والعروش . لصولة خالد . يجىء « بلال » الحبشى فيعقل خالد بن الوليد بن المغيرة . وقد سوى الإسـلام بينهما . ويسأله أمن مالك أم من إصابة أصبتها . أجزت الأشعث بعشرة آلاف . . ويبدو أن صمت خالد قد طال . وأن ترقب الناس للكلمة التى يصدرها قد امتد .

وتواردت على الأذهان - ولاشك - إذ ذاك صورة خالد فى أمجاده الحربية صورة الرجل الذى لم يعرف الذلة . ولم يطأطىء الرأس .. أما خالد فقد كان فى غمرة من الكبرياء الجريح . والغيظ المكبوت . والألم العبقرى ، وقد ألجمه هول الموقف فمضى فى الصمت .

وأخيراً أجاب خالد : بل من مالي .

ورد بلال : نسمع ونطيع لولاتنا ونعظم ونخدم موالينا .

وعرت الجرع فرحة كبرى حين سمعوا إجابة خالد .

ووقف أبو عبيدة من خالد موقف الحيرة من أمر عزله الذي أرسله إليه الخليفة إن عمر قد أقصاه عن إمارة الجيش يوم استخلف .. ومع ذلك فقد ظل يفتح الممالك ويرد العدو .. وهو جندي . أربع سنوات طوال ، أخضع دمشق ، واستولى على الأردن وحمص ، وقهر قنسرين وحلب وطرد هرقل من سوريا وزحف إلى أرمنية ، وهو اليوم يعزل نهائياً .

وانتظر أبو عبيدة على عمر يغير رأيه . غير أن عمر كان يعرف أن أبا عبيدة سيمنعه إجلاله وخجله وحبه لخالد من أن يبلغه قرار العزل ، فأرسل عمر إلى خالد ينبئه .. ويستقدمه ، وذهب خالد إلى أبي عبيدة يعاتبه :

ــ رحمك الله ما أردت إلى ما صنعت ، كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم .

ــ والله ما كنت لأروعك ما وجدت إلى ذلك بداً . وقد علمت أن ذلك يروعك .

ماذا كان موقف خالد من تصرفات عمر ؟

إنه عزله بتهمه السرف بعد أن أطاح بكسرى وقيصر .

لقد ذهب إلى قنسرين يودع جندها وأهلها . فلم يذكر عمر بسوء ، ثم توجه إلى حمص وقصد إلى المدينة .

وأخذت المدينه تتحدث عن الصراع بين خالد وعمر .

قالوا : قد كان على عمر أن يرسل اليه فيسأله ، دون أن يحرجه أمام جنده أو يوقفه موقفاً مهيناً أمام المسلمين .

وقال قوم : توزن أخطائه وتوزن جلائل أعماله .

وقيل : كان على عمر أن يسأل أميره أبا عبيدة .. وقالوا : كان على عمر أن يدع لخالد ما خصه من الفيء يتصرف فيه ، فقد استفاء للمدلين كثيراً .

والتقى الرجلان وجها لوجه .

قال خالد : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر فأين ذلك الثراء . من أين لك هذا اليسار الذى تجهز فيه بعشرة آلاف .
- من الأنفال والسهمان .. ما زاد على الستين ألف فهو لك .

وكأنما عز على عمر أن يدع لخالد حصته . فأمر بأن تقوم عروضه فقومت بثمانين ألف درهم ، ترك له منها ستين ألفا وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال .

وأقام خالد فى المدينة ، وسعى إليه بعض أنصاره ، وبعض خصوم عمر يحاولون إثارة الفتنة ، غير أن خالدا كان نبيلا . إنه ردهم فى حزم وقال : أما وعمر حى فلا ..

وبقى عمر يظهر لخالد إذا خلا إليه الرقة واللطف .

عاتبه خالد مرة وقال له كلمته المعروفة : لقد كنت فى أمرى غير مجمل ، واعتذر له عمر .

— يا خالد ، والله إنك على لكريم ، وانت إلى لحبيب . ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء أبدا .

وبر عمر بيمينه ألا يلى له خالد عملا .

وأذاع عمر فى الأمصار يقول . « إنه لم يعزل خالدا عن سخط ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بعرض فتنة »

وظل خالد .. يعيش تلك الحياة التى لا يرضاها والتى وصفها مرة عندما أوقفت حركات الفتح فى العراق « بانها سنة نساء »

ومات بعد أربع سنوات من عزله . بعد أن أخذته الحسرات . حسرات الجندى الصوال المغامر الجرى الذى يرى نفسه مبعدا عن ميادين الجهاد .

عاش حزينا يسمع أنباء الفتح . فى فلسطين ومصر والعراق وفارس . . وهو مغمد السيف . أسير الخليفة الذى عزله وعمر الذى كسر سيفه .

فلما حضرته الوفاة صور آلامه وأحزانه العبقرية فى تلك العبارات الخالدة « لقد طلبت الموت فى مظانة فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى ولقد حضرت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع الا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح . وها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير »

مات خالد ولم يترك من حطام الدنيا سوى فرسه وغلامه وسلاحه .

وأسف عمر . وعراه الحزن عندما علم بانه لم يخلف شيئا . وقام فى الناس يقول : يرحم الله أبا سليمان . كان على غير ما ظننا . إنى أعتذر اليكم عن عزل خالد . فانى أمرته أن يحبس هذا المال عن ضعفة المهاجرين . فاعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان . فامرت أبا عبيدة .

ولما رأى النساء يبكينه قال : على مثله تبكى البواكى . كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة .

قال له « على » : فلم عزلته ؟

— ندمت على ما كان منى .

لقد ذهب عمر إلى الحج . وكان ينوى أن يوليه بعد أن يعود . غير أن خالدا مات قبل أن يعود عمر .

* * *

أى عظمة وأى جلال ، يمكن أن يكتبه التاريخ لسيف الله (خالد) أى نبل ورجوله فى مواقفه ، فى الحرب وغير الحرب .

لقد كان الصراع بينه وبين عمر منجانب واحد ؛ من جانب الخليفةالذى كان يرى ألا يتصرف خالد إلا بعد أن يراجعه .

ترى أكان يضيق عمر بخالد كلما ارتفع نجمه ؟ وهل كان يحقد عليه . كما يذهب بعض المؤرخين .

ذلك ما نستبعده ، فقد عرف عمر بالخلق الذى يرق على الحقد .

إذاً لماذا أقصاه عن الإمارة . ثم عزله ، ثم اقتسم معه ما أفاء الله عليـه ، وأبعده عن ميدان الغزو ، وهو فى أشد الحاجة الى أمثاله ؟ لقد اتهم من قبل « عمراً » وحاسبه واقتسم معه ماله . . ولـكنه لم يعزله !

ماذا كان يمـكن أن يفعل خالد ؟ لو امتد به الجهاد ،كان يقيناً أن يبلغ عاصمة « قيصر » وكان خليقاً بأن يقتحم القسطنطينية .

هل صدق عمر حينما اعتذر للنـــاس فى أمر « خالد » بأنه خشى أن يفتن الناس ، وأن يظن الناس أنه أصبح ضرورة لا غنى عنها لانتصار الجيوش .

وماذا كان يمكن أن يصل اليهالفتح لو اتحد عمر وخالد ؟ لقد انكمش خالد حين أريد له أن ينكمش ، وآثر ألا يصطدم ، وانصرف عن انصاره المعجبين فى قنسرين وحمص والشام ، وكان يستطيع ان يقف من عمر موقفـاً ينتصف به لنفسه .

ولـكنه آثر ألا يفعل ، فلما وصل المدينة التف حوله أنصاره وحدثه

خصوم عمر . ولكنه كان أكبر من أن يثير فتنة ، وهو الذى قضى على أكبر فتنة فى تاريخ الإسلام : تلك هى الردة .

لم ينتصف خالد لنفسه ، واحتمل قضاء عمر فيه ، واكتفى بأن صارحه بأنه لم يكن مجملا فى أمره ، وقضى ايامه يتسمع الأنباء بقلب حزين ، وعين باكية .. مما اعتصر حياته فمات كمدا .

كان عمر يريد ان يحفظ للدولة ميزانهـــا ، فظلم خالد ، واراد خالد أن يحفظ للدولة كيانها . فظلم نفسه .

شكسبير وبرناردشو

من أعظم كتاب الأدب الإنجليزى والعالمى ، لا شك فى ذلك ولا ريب ؛ وبينهما فى تاريخ الوفاة ثلاثة قرون ، غير أنهما يتقاربان ويرتبطان فى كثير من ظروف حياتهما .

اما شكسبير فانجليزى اصيل ، وشاعر مسرحى ضجت أكف الناس من التصفيق لآثاره ، ظل مغموراً فى محيط التقدير الأدبى فترة طويلة ، حتى استعادت مسرحياته مكانتهـــا منذ اول القرن التاسع عشر . وقد مات فى سن الستين .

أما برناردشو فايرلندى ثائر ، عرف بالسخرية والدعابة والصراحة كسمات بارزة لأدبه ، وضع المسرحيه للقراءة قبل المسرح . وعاش حتى نيف على المائة

لكنهما ؛ بدآ حياتهما فاشلين ، وذاقا فى صباهما وفجر شبابهما مرارة الفقر والحرمان وألم البؤس والشقاء ، ولم يكملا تعليمهما . وأقبل كل منهمـا على الحياة أول الأمر إقبالا وصف بالتسكع ، غير أنهما أحبا القراءة والموسيقى والفنون ، ففتحت أمامهما آفاق العلم . كان شكسبير يقف على أبواب المسارح ينتظر خيول كبار المتفرجين ، وكان برناردشو يعيش على ستة بنسات طوال يومه

كان كل منهما عبقريا فذا ، منحه الألم والحرمان قوة على أن يتبين بعد طريقه . ويتعرف الوجهة التى يستطيع أن ينجح لو انتهجها ، ولم يحل التعليم القليل ولا الفشل البادى مع المثابرة والصبر والكفاح دون النجاح والوصول إلى الذروة .

أما شكسبير فقد بلغها مبكرا . إذ أتيح له أن يؤلف المسرحيات وأن

وأن يمثلها وان يثير بها عواطف الناس . وان يكسب بها الأموال . وان يصل إلى غاية ما يطمح اليه .

اما برناردشو فقد أتاح له ارتفاع السن وطول العمر ان يصل الى المجد . فقد ظل محتفظا بحيويته وقوته إلى آخر أيام حياته . ولو مات « شو » في سن مبكرة . لما امكن ان يصل إلى المكانة التى بلغها . فهو بالرغم من حملاته الثائرة ونقداته اللاذعة فى فجر حياته لم يلمع نجمه إلا فى سن الأربعين .

ولو مات « شو » فى السن التى مات فيها بيرون وشلي لما اتيح له ان يعتقد هذه المكانة .

ويقول النقاد . إن موت « اوسكار وايلد » قد افسح له الطريق . ثم استطاع « شو » ان يبرز عليه فى بعض الجوانب الفنية .

ومن أهم مايربط بين شكسبير وشو حب المغامرة والاستطلاع . فقد تسلق شو مرة احد اسوار البساتين العالية . وأخذ يجمع ثمار التفاح حتى تجمع له ما يقرب من الأربعين ، ثم قفز السور وفر هاربا . ثم تسلق مكانا عاليا بخفة ورشاقة . وراح يلتهم التفاح واحدة بعد الأخرى .

ومثل هذا او قريب منه . ما يروى عن شكسبير . فقد قبض عليه هو وبعض اترابه وهم يتسورون حديقة يملكها عظيم فى قريتهم . وهم يسرقون عددا من غزلانه .

وقد جمع بينهما ـ على بعد الزمن ـ حب المسرح . فقد اشتغل كل منهما به وألف له . وقد احب كل منهما . وشغفته المرأة . اما شو فقد تزوج فى سن الأربعين وماتت زوجته بعد سنوات قليلة . وكان يحبها . ولم يتزوج من بعدها . اما شكسبير فقد اختلف معها وانفصل عنها قبل وفاته بوقت غير

قليل ، وكان يقاسى فى أيامه الأخيرة بعض الآلام .

ويرى « شو » أن حبه المثالى عن طريق البريد ، وكان يحلو له أن يقضى الساعات عاكفاً على كتابة خطاب مطول ، وكان هذا أجمل أوقات حبه .

فاذا ذهبنا نستعرض بعد ذلك وجوه الخلاف بين الرجلين وجدناها كثيرة متعدده ، أما شكسبير فيذهب فى الخيال بعيدا . فهو شاعر حلو العبارة فياض الروح أولع بالدماء وأحب مرآها وحشد لها فى قصصه الكثير من المشاهد، وهو لا يدع الستار ينزل إلا على مصرع أبطاله جميعا .

ليس شك فى أن مرجع ذلك إلى نفسية شكسبير ، الذى كان يعانى نقصاً « وجدانياً » فى حياته الخاصة ، يبدو واضحاً جلياً فى ذلك الغموض الذى يلف بعض قصصه ، وذلك الإصرار على اللون الأسود ، لون المآسى العنيفه ، التى لاشك كان يجعلها وسيلته إلى التنفيس عن مكبوت عاطفته .

فهو يبدو من وراء آثاره فى صورة من الحزن والمرارة والحنين إلى المجهول كأنما حرم بعض ما يطمح اليه من الزاد الروحى الذى كان دائمـاً مطمح العباقرة الأفذاذ .

لقد كان شكسبير يكافح ويقاسى ويغالب متاعب الحياة فى صدر شبابه عاش الحياة فى صورها المتعددة ، من الشارع إلى القصر ؛ وأجهده السعى فى سبيل الرزق ؛ واتصل بالبيئات المختلفة . وعانى صنوف الألم فى الحب جميعاً وذاق المتاعب حتى استطاع أن يصل إلى المجد . فكان خليقـاً أن تكون مسرحياته صورة من حياته .

لقد امتاز فن شكسبير بتلك الروح التى دبت فى الآداب الحديثة منذ قرن من الزمان . روح تعرية العظماء والكشف عن دخائل العبـاقرة . والبحث وراء خفاياهم ومكنونات نفوسهم . ورفع الطلاء المزيف الذى فرضه الطبل

الأجوف على حقائقهم . ولقد برع شكسبير فى هذا الفن . فهو أول من كشف عن البطولات ومرق من فوقها تلك الأغلفة البراقة المزيفة وجردها على حقيقتها

ولعل هذا هو السر الذى بعث أدب شكسبير مرة أخرى بعد أن طوى قرنين من الزمان .

أما برناردشو فكاتب تغلب عليه نزعة السخرية العنيفة اللاذعة . أولع بنقد كل شيء : الديمقراطية . والعلماء . ورجال الدين .

وبلغ ذروة نقده عندما هاجم الإنجليز أكثر من مرة . وكان من أبرز هذه الصور موقفه من حادث دنشواى قضيه مراكش .

وهو الذى كتب عن عصبة الأمم القديمة يقول : « فى جو جنيف الهادى الوطنية تموت . والوطنى هناك جاسوس لا يمكن قتله » .

وهو الذى يقول عن الأمريكان أنهم قرويون . وإن فى المائة منهم تسعة وتسعين أغبياء بلهاء .

أرغم منذ فجر حياته بالموسيقى والسمفونيات . واشتغل بالنقد المسرحى والموسيقى سنه ١٨٨٨ ثم ترك الصحافة وانقطع إلى تأليف الدراما سنة ١٨٩٧

وقد استطاع أن يلتهم الإنتاج الفكرى العالمى . أتاح له ذلك طول عمره وحياته الطويلة التى امتدت فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

يحب « شو » من الأدباء أوسكار وايلد وصموئيل بطلر . وقد امتدحهما وكان صديقا لتولستوى . وقد غض من قدر شكسبير على حساب « أبسن » الذى رفع من قدره .

وكان « شو » يبغض كبلنج وداروين أشد البغض . وكان يعارضهما معارضة شديدة .

أما ولز فقد كان صديقه الجمعية الفابية ؛ ثم اختلفا مع امتداد العمر ، وقامت بينهما معارك حامية حول وجوه الإصلاح .

ورفض « شو » جائزة نوبل فى الآداب وهى ٣٥ الف شلن . وكتب يعتذر عن قبولها قائلا : إنى لست فى حاجة إلى المال الذى هو مثل حزام نجاة ألقى إلى سباح عندما وصل إلى الشاطىء سالما .

وكان كلفا بالسخرية ، حتى أنه عندما قابل المشعوذ فى سلك الأولمبيا قال له « كل ما فى الأمر ان مهرجا قديما يحيى زميلا له » ولم يشرب شو الخمر ؛ ولم يعرف اللحم . وكان يحض على التقشف والزهد ، ورحل طويلا إلى خارج وطنه مما لم يتح لشكسبير . فزار جنوب أفريقيا وروسيا ونيوزلندا وأمريكا

ولم يجد شو ما يمنعه من ان يتحدث عن نفسه فى كتابه أنصاف المتعلمين حيث يقول إنه من « أولئك الذين لم يتمكن من ذووهم من تزويدهم بالعلم ؛ وانقطعوا عن الدرس فى سن المراهقة واضطروا إلى كسب أرزاقهم بالعمل أسوة بصغار المكتبة . وندعو هؤلاء باسم أنصاف المتعلمين . ومن هؤلاء شكسبير ويونيان وبليك وترنر والجر . ومنهم جان جاك روسو وسبنوزا »

ثم يقول : « إننى أعزو نجاحى فى الحياة وشهرتى إلى أننى أكثر ثقافة وأحسن تربية من خريجى معاهد الأشراف وكبريات الجامعات .

وحين رد على أحد سائليه من الأدباء المعمرين يصور جانباً من حياته بما يبعث على الإكبار « فى إمكانك الحصول على بطاقة للدخول إلى المتحف البريطانى فتجعل منه غرفة للقراءة وملجأ تأوى اليه كل يوم . كما فعلت أنا فى كثير من السنين . وكما فعل من قبلى ماركس وصموئيل بطلر طيلة حياتهما .

تعود الكتابة فى دور المتاحف والمقاهى التى يكثر فيها الضجيج والحركة وإذا عجزت فلن تستطيع الكتابه فى أماكن أخرى . فقد كتبت معظم مؤلفاتى

فى محطات السكك الحديدية وعربات النقل وعلى ظهور السيارات الكبيرة .

وبعد : فقد هاجم شو شكسبير هجوما عنيفا لا مسوغ له . فاتهمه بأنه قصير التفكير وإن كان قوى الملاحظة . ويقول : إنه كان يعبر عن نفس آرائه على لسان شخصياته ورواياته . أما هو - أى شو - فقد صور الحياة كما هى .

ويرى أن شكسبير صنم يجب تحطيمه . إذ لم تكن له عقيدة أو برنامج معين فكل تصميماته بسيطة . غير أن عبقريته حملت على إجادتها . ثم يقول : « لقد مات شكسبير قبل أوانه . وهل لك أن تصدق أننى عشت ثلاثين سنة أكثر منه ، وأن مسرحياتى كتبت فى سن مبكرة لم يدركها هو . إن بتهوفن ألف السمفونية التاسعة فى سن كان فيها شكسبير فى عداد الموتى . وأبسن كان أصغر من شكسبير عشر سنوات عندما كتب آخر كتبه « سيد البنائين » وكتبت أنا بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة قصة « ثينوزيلا » .

إذا فكلنا وقوف على كتفيه . فعلى كتف من وقف هو ؟ أعلى كتف مارلو وشابمان ؟ لا هذا ولا ذاك . فلقد كان خيراً منه وأجدى إذا قارناهما به » ثم يمضى فى هجومه فيقول : « إن شكسبير هو المسئول الوحيد عن انهيار الدراما ثلاثمائه سنه بعد موته حتى جاء وقتى .

إن مسرحياته كانت مكروهة وقاتلة ومشوهة حتى بعث فيها مارلى جرانفيلو باركر الحياة وأخرجها إلى الدنيا على المسرح .

إن شكسبير أطول منى بكثير ولكنى أقف على كتفيه »

شوقى والبارودى

أثر النفى فى شعرهما

تجمع بينهما فى نفسى رابطة الشعر ورابطة النفى والاعتقال . فالى أى حد أثر المنفى فى شعرهما وفى نفسيتهما ؟ .

كان البارودى من رجال السيف والقلم كما يقولون ؛ فقد اشتغل بالسياسة وولى الوزارة واشترك فى الثورة العرابية وولع منذ صباه بالشعر . وأتيح له أن يعمل فى ميدان الحرب ، فاشترك فى حروب كريد سنة ١٨٦٨ ؛ ثم قبض عليه مع عرابى وزملائه ونفى إلى سيلان سنة ١٨٨٣ حيث أمضى بها سبعة عشر عاما ؛ وعاد إلى مصر عام ١٩٠٠ وظل بها إلى أن قضى فى ١٢ ديسمبر سنه ١٩٩٤ . أما شوقى فقد كان شاعر الأمير ، وكان شاعر المنـــاسبة فى المديح والرثاء . وكان قد سافر إلى أوربا ثم عاش فى القاهرة عيشة الترف والرخاء ، حتى كانت قصيدته التى اتخذت منها السلطات المحتلةوسيلة إلى نفيه إلىالأندلس فأمضى بها خمس سنوات ثم عاد بعد أن انجابت غواشى الظلام .

نفى البارودى على أثر الثورة العرابية ، ونفى شوقى على أثر إعلان الحرب العالميه الأولى ، وكانت السياسة سببا فى هذا التغريب الذى طال أمده بالنسبة للبارودى ولم يطل بالنسبة لشوقى . أما البـارودى فقد أمضاها فى سيلان ، وهو أشبه بالأسير الذى وقع فى قبضة العدو ، وكانت الجزيرةتحت حكم الإنجليز أما شوقى فقد أمضاها فى الأندلس ، وفى ثغر برشلونة المطل على البحر الأبيض أشبه بالحر المغترب النازح عن وطنه منه بالمعتقل المنفى . وفى سيلان عاش البارودى مع رجال الثورة ، حياة لم تكن طيبه تماما ، وليست على ما كان

يرجو ، وطال الوقت والزمن بالمعتقلين المبعدين عن أوطانهم الذين حيل بينهم وبين أهليهم ، ولم تكن أيامهم صفوا كلها . فقد استعادوا بعد قليل ذكريات الجهاد . وكان لها أثرها فى الخلاف والمتاعب النفسية . وظهر أثر هذا فى شعر البارودى واضحا جليا . نفسية البارودى المجهدة المتعبة وآماله المنقطعة . كان شعر البارودى فى هذه الفترة مظلماً . وكان يدور حول نفسه وحدها . وحول المعانى المغرقة فى التشاؤم والضيق . وأظهر مثل لذلك قصيدته فى رثاء زوجه وما حوته من معان غاية فى الاستيحاش والضيق . وكأنما جاء هذا الحادث « منفذاً » لآلام مكبوتة . أو مخرجا لطاقة حائرة . . ضاقت بالقيود فوجدت فى هذا النفى ما يبرر ثورتها وانفجارها .

كان البارودى قبل الثورة العرابية وقبل النفى شـــاعراً . تفيض نفسه بالإشراق ويفيض شعره بالإبداع . وكانت نفسيته مزيجا من الإعجاب بالجمال والانطلاق والروحيه العميقة . وكان شعره ينضح بهذه المعـانى . وكانت انتصاراته الحربية وتألقه فى محيط الوزارة والسياسة يضفيان على شعره تلك الروح القوية الوثابة .

ويمكن القول بصفه عامة أن المنفى كان له أثره السىء فى نفس البارودى ويعد شعره قبل المنفى أعظم ما خلف من ثروة أدبية . أما شعره خلال فترة النفى وبعده فليس فى درجة قصائده الأولى .

أما شوقى فعلى العكس من ذلك تماما . كان شعره قبل المنفى مجموعه من قصائد المناسبات العامة رغم ما كان يتميز به من أصالة وجمال .

فلما نفى تحول كثيراً . وانتقل من شاعر المناســبة إلى شاعر الوطنية والإنسانية . كان منفاه أشبه بالرحلة الميسرة . وأتاحت له إقامته فى إسبانيا فرصة العودة إلى ذخائر الأدب العربى القديم وقراءتها واستيعابها .

كان معه أولاده وأسرته ، وكان جو الأندلس العربى وما يوحى إلى النفس من مشاعر بالإضافة إلى المكتبة الضخمة وإلى يسر الموارد ، وانتفاء الضغط وقصر المدة ، كان كل ذلك كافياً لأن يحول شوقى ويقوى مزاجه الشعرى .

أضف إلى هذا ذلك المعنى النفسى الذى أفاده من النفى . والذى كان بعيد الأثر فى تحويل اتجاهه من وضع إلى وضع ومن طريق إلى طريق .

وفى هذا يقول شوقى : « ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى فى أوقات النزهة ومشاهدة السينما ، فاستوعبت منها ما لم أكن أستوعبه وطالعتها كلها حتى أكاد أقول أن ليس فى الأدب العربى كتاب لم أستوعبه فى خلال السنين الخمس التى مكثتها بأسبانيا . وساعدنى على ذلك الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية ، وجمال المناظر التى تحاكى ضواحى الآستانة فى رشاقتها ونظافتها » .

* * *

كان النفى والاعتقال فى حياة الشاعرين محنة ، ولكنها المحنة التى حولت شاعر الأمير إلى أمير الشعراء ، ولو أن شوقى ظل بغير نفى ، لما أمكن أن يحقق هذا الاتجاه الجديد الذى كان من أسباب خلوده . لقد اكتشف شوقى نفسه فى خلال منفاه وآمن بشاعريته ، حتى إذا عاد كان قد انتقل بها نقلة كبرى . كانت فى نفسه « روحانية » كامنة ، سرعان ما أبرزها ارتفاع السن ، والعجز عن سوم سرح اللهو . وكان قد خرج من القفص الذهبى عندما قال قصيدته التى نفى من أجلها ولم يعد اليه مرة أخرى . وقطعته النثرية فى قنال السويس التى كتبها وهو خارج من مصر فى طريقه إلى منفاه ، هى أول إنذار بهذا التحول .. ويلتقى شوقى بعد ذلك مع البارودى ويختلف .

يلتقيان فى الناحية الروحية ، فقد أنشأ كلاهما بردة للمديح على نسق

« بردة البوصيرى » وكتب كل منهما فى الحب والغزل والجمال ؛ غير أن شوقى يبدو فى قصائده أقوى من صاحبه ، وأكثر فهماً للمرأة وأنفذ إلى أمور العاطفة ، وإن كان على كثرة ما قال فيها ، لا يبدو فى صورة من اكتوى بلهيب الحب . ويختلفان فى بعض الجوانب العامه ؛ أما شوقى فقد كان قليل الكلام ولم يكن من الذين يتصدرون المجالس ، كان منطويا ، يوجز القول ويطيل الصمت أما البارودى فقد كان على غير ذلك من التبسط والحديث وغشيان المجالس

* * *

وجملة القول أن البارودى كتب خير شعره قبل الاعتقال ، وأجاد شوقى بعد الاعتقال وأبدع ألوانه الجديدة .

جناح وغاندى

زعيمان من الشرق ، ومن الإسلام والهندوسيه ، تحقق على يديهما تحرير الباكستان والهند . من ربقة الاستعمار . تتشابه نشأتهما وثقافتهما ورحلاتهما ثم تختلف حياتهما وأهدافهما بعد ذلك اختلافا بيناً .

نشأ كلاهما فى الهند ، ولد جناح فى كراجى ١٨٧٦ ؛ وولد غاندى فى كيثاورا سنة ١٨٦٩ من أسرتين عريقتين غنيتين ، وامتص كل منهما ما فى تربة بيئته وجيله ودينه ، ثم سافر كل منهما إلى لندن ، ودرس كل منهما الحقوق ؛ وعاد كل منهما إلى بلادة يمنى نفسه بأن يكون مدرة القانون .

وبالرغم من اتفاق الثقافة الأوربية فقد ظلت عوامل الدين والبيئة الأولى قوية فى كل منهما ، بعيدة الأثر فى توجيه تفكيرهما وعملهما . . من بعد .

واتصل جناح بغاندى فى إبان الحركة الوطنية منذ سنة ١٩١٤ ومضيا معـــاً فى طريق واحد فى سبيل تحرير الهند . وكان محمد على جناح من أبرز العاملين فى حزب المؤتمر . حتى استحق لقب « القائد الأعظم » فلما تكشفت مشاريع استقلال الهند المختلفة عن خطوطها الواضحة . اتخذ الطريق الذى كان لا بد من اختياره لتحرير الهند من استعباد بريطانيا وتحرير المسلمين من استعباد الأغلبية الهندوسية . وكان هذا منه غاية البراعة وبعد النظر . ففى الوقت الذى كانت حركة التحرير تتطلب تآزر الجهود . كان جناح يعمل إلى جانب غاندى . وكان كلا الرجلين يثق بالآخر . فلما آن أوان التفصيلات دعا إلى الحل الذى كان حاسما فى القضاء على صراع الطوائف والفتنة المذهبية .

* * *

كان غاندى وجناح متفقين على شىء واحد . هو تحرير الوطن من غير

طريق العنف ؛ ولكنهما كانا مختلفين بعد ذلك فى كل شىء . كان غاندى يدعو إلى العصيان ، وكان جناح ينكر العصيان . كوسيلة فعالة للكفاح ، ويفضل اتخاذ الطرق الدستورية القانونية . كان غاندى يكسب مهابته بالتجرد والصوم واللباس القليل ، وكان جناح يكسبها بشخصيته المهيبة ومظهره الأنيق وصوته المؤثر . لقد لقيا من الاضطهاد والسجن والإرهاب صوراً وألواناً ولكنهما مع ذلك كانا مثلين عاليين على الأخلاق السلبية التى يمثلها غاندى ، والأخلاق الايجابيةالتى يمثلهاجناح .

ويبدو أن اختلاف الأساليب والوسائل يرجع إلى اختلاف الدين والبيئة والطبيعة النفسية . فقد كان غاندى هندوسياً ، أحب المسيح وأعجب بتولستوى وأخذ منهما ، وكان يرى أن التهديد بالصوم سلاح بتار فى تحقيق مطالب الهند , وكان يحيط نفسه بتلك الصورة الشعرية الساحرة .. التى ألهبت نفوس الجماهير وأمدته بالمعنى القدسى . حتى كان يعبد فى بعض معابد الهند .

وهو الذى استعان بالفكرة الدينية وأيقظ فى نفوس الهندوس روح التعصب ، وبالرغم من ثقافته الأوربية العالية وقراءته فى الإنجيل فقد كان يحافظ على التقاليد الهندوسية التى لا تتفق مع العصر . ولاتجرى مع الزمن حتى اتهم بأن سياسته هى التى خلقت التباعد بين الهندوس والمسلمين ، وكانت سبباً فى تفكير ، جناح ، فى تحرير المسلمين من ربقة الاستعمار .

مزج غاندى بين الفكرة الوطنية والفكرة الهندوسية ، وحرص على أن يلبس مئزراً يغطى وسطه ، وظل باقى جسده عارياً ، وكان يجلس على الأرض ويحمل المغزل . ويحلب الشاة . واتخذ من هذه الصورة ، سبيلا للفت الأنظار فانضوى تحت لوائه الملايين .

كان غاندى هندوكياً يؤمن بوحدة الهند متعصباً ، لا يرضى بفكرة الباكستان ويعارضها .

وكان يركب الدرجة الثالثة ويقضى أيامه فى أكواخ المنبوذين ، ولكن عربة الدرجة الثالثة كانت تخصص له وحده بعد تنظيفها . وكان ينتقل من كوخ المنبوذين إلى المحطة أو قصر نائب الملك فى أفخم السيارات التى يضعها تحت تصرفه الكبراء . وكان فقيراً ، ولكن كانت تهدى إليه الفواكه التى لا توجد فى بعض القصور . وكان يعلن عداوته للآلات ولكنه يستعمل الساعه .

* * *

أما جناح فكان مسلماً يختلف مع غاندى كل الاختلاف فى أساليب معيشته ووسائل زعامته ، كأنما هو النقيض تماما . يسكن فى دار فخمة فى نيودلهى . أنيق الملبس . يلبس البذلة الإفرنجية البيضاء . أفاد من قضاياه ثروة ضخمة فقد كان يحصل على تعويض يبلغ أحيانا مليون روبية (٨ آلاف) فى القضية الواحدة ، وبينما كان غاندى يصر على أن يظل الخلاف بين طبقات الهندوس قائما . كان جناح يمقت الخلاف بين طوائف المسلمين ويدعو إلى الوحدة .

وكانت زعامته فى لسانه الطليق ، وبيانه الواضح . كان عضواً فى المجلس التشريعى الهندى . ثم انضم إلى حزب المؤتمر الوطنى . ثم صاح صيحته سنة ١٩٠٦ وارتبط المؤتمر بالرابطة بفضل جهوده . وسمى يومها سفير الوحدة . وكان لهذه الرابطة أبعد الأثر فيما تحقق للهند من آمال . ظل كذلك يغذى الحركة وينميها حتى اشترك فى معركة من المعارك السياسية الدقيقة الحرجة فلقب بالقائد الأعظم . ولما أعلن نهرو أنه ليس فى الهند غير طرفين : هما الحكومة البريطانية وحزب المؤتمر . قال جناح : إن فى الهند طرفا ثالثا هو الشعب المسلم

* * *

كان غاندى وجناح من أقدر رجال السياسة فى الشرق . غير أن جناحا كان لا يستسيغ المناورات السياسية الدينية التى يلجأ إليها غاندى .

فقد عرض مشروع باكستان سنة ١٩٤٠ فى المناطق التى يؤلف فيهـا المسلمون أغلبية فى السكان دون أن يخشى خصومه غاندى أو محاربته للمشروع ووقف يظاهره فى قوة . وهو مؤمن بأن الحل الوحيد للخلاف الداخلى الذى يوشك أن ينشب بين الهندوس . وقد استطاع أن ينشىء دولة دون أن يريق قطره دم واحدة .

كان كل منهما زعيما شعبيا بعيد الأثر فى بيئته . قوى العارضة اكتسب كل منهما مكانته بأسلوبه الخاص . كان غاندى زعيما من نوع جديد وطابع خاص غير مسبوق لفت الأنظار إليه . وكانت طريقته فى مقاطعة البضائع الأجنبية والعصيان المدنى والصيام واللباس من أسباب بروز شخصيته فى محيطه . أما جناح فكان يعتمد على غير الأساليب التى اصطنعها غاندى . كان قوى العارضة بشخصيته والفكرة التى كان يدعو إليها والأمل المرسوم وراءهم « إقبال » .

كان امل المسلمين الذين كانوا يخشون حركة الاستقلال فى الهند من أن تصيرهم أقلية تعصف بهم مطامع الهندوس وأهواؤهم.

لقد جاهد كل منهما فى سبيل فكرته وبلاده . وتحقق لكل منهما فى حياته أمله فى الحريه .

مصطفى كامل و مصطفى كمال

زعيمان من الشرق . تركا أبعد الأثر فى نهضه مصر وتركيا ، كان كل منهما جديد الطابع فى وطنه شغل الأذهان وأثار النفوس . وابتدع فنا من القول أو العمل . واستحدث سبيلا جديداً للأمة ما تزال حتى الان تهتدى به .

أما مصطفى كامل فقد ظهر فى مصر على أثر الاحتلال البريطانى فكانت صيحته مدوية بعيدة الأثر فى المحيط المصرى ، دعا إلى الجلاء بغير قيد ولا تحفظ وسكب فى قلوب المصريين وآذانهم صورة الوطنية مطعمة بالعاطفة والإيمان فاستجاب له الناس وآمنوا به وساروا فى ركابه ، ثم جدت بعد ذلك صروف . ونشأت أحزاب تدعو إلى الاعتدال وتتهم مصطفى بالتطرف . . وتخفف من حدة الحماسة النقية التى ألقاها فى ضمير الأمة .

ولم يلبث مصطفى أن قضى والوطن ما يزال فى حاجة إلى قلبه المشبوب ولسانه الطليق وقلمه البديع . وتطورت أمور السياسة فى مصر من حال إلى حال . ولكنها لم تنس مصطفى على أنه الرائد الأول الذى رسم الطريق ورفع العلم وأعد الخطة . وبعد أربعين عاما من وفاته عادت مصر الى دعوته وطالبت بالجلاء بغير قيد ولا تحفظ بعد أن تنكبت طريقه فترة طويلة .

وما زال مصطفى كامل فى تاريخ مصر . وفى تاريخ الوطنية . وفى تاريخ السياسة علما مفردا . على أنه الرجل الذى لا يقبل التجزئة فى الحقوق ، ولا يحب المساومة فى المطالب . وعلى أنه الرجل الذى لم يطمع فى الوزارة . وأغضى عن كل إغراء . وأنفق صحته وجهده داعيا لمصر فى مصر وفى أوربا متنقلا فى كل مكان . يعقد المؤتمرات وينشر المقالات ويخطب فى الجماهير

عن حق مصر فى الحرية والاستقلال . وكان مصطفى بذلك أول مصرى وقف فى وجه الانجليز بعد عرابى وأول شرقى دافع عن قضية بلاده فى المجال الدولى ، وأول من أنشأ جرائد الألويه الثلاثة بالعربية والإنجليزية والفرنسيه وضحى للدعوة الوطنية الخالصة .

ومن آيات فوزه وانتصـــاره موقفه من كرومر بعد حادث دنشواى . والفصول الضافية التى فضح بها بريطانيا فى صحف العالم ، مما اضطرها إلى سحب معتمدها فى مصر . وهو صاحب الخطاب التاريخى إلى غلادستون زعيم الأحرار فى إنجلترا سنة ١٨٩٦ يذكره فيه بآرائه فى الجلاء ، وقد أجابه الزعيم البريطانى بقوله : « أقر بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين » .

أما مصطفى كامل فقد حول تركيا من وضع إلى وضع ، نقلها من الامبراطورية التركية ودولة الخلافة إلى تركيا الدولة العلمانية القائمة على حدودها وكفايتها فحسب . لقد نقلها من الشرق إلى الغرب وحررها من الاحتلال ومن معاهدة سيفر ومن جنود اليونان . ودفعها دفعة قوية إلى الأمام فتحولت من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وألقى بها فى أحضان الغرب جملة وألغى الخلافة وأعلن الجمهورية وألغى التعليم الدينى والطقوس الدينية ، وكتب من الشمال إلى اليمين ونقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة . وعلق المعارضين على حبال المشانق ، ودعم الجيش . ووحد الزى وألغى الطربوش ، وقصر العمامة على رجال الدين وفرض القبعة . ونظر إلى الأمور من وجهة النظر التركية المحضة ، ومزق حجاب المرأة وألغى الحريم ، ودفع بها إلى المدرسة والمجتمع وألغى الألقاب وصبغ كل شىء بالصبغة التركية . ووقف أمام سبورة سوداء ومعه طباشير يعلم الناس اللغة التركية فى المساجد والمقاهى ودور اللهو ، فاذا برقم المتعلمين الى يقفز ٩٠ فى المائة وألغى التكايا والأوقاف .

ونقل تركيا من الرجل المريض إلى الرجل الحى .

وبين مصطفى كمال ومصطفى كامل روابط متعددة ، فكلاهما حارب الاستعمار وأعلن خصومته للانجليز . وكلاهما وسم البرنامج الصالح لتحرير وطنه ، وسمه مصطفى كامل بالخطب والمقالات ، ورسمه مصطفى كمال بالعمل والتغيير الفعلى كان كل منهما يؤمن بوطنه وحقه فى الوجود ، وكانت نفسه تفيض غيرة وشوقا لأن يرى اليوم الذى تتحقق فيه آمال بلاده . أما أتاتورك فقد طال به العمر وتيسرت له أسباب العمل فانتقلت تركيا على يديه من حال إلى حال .

أما مصطفى كامل فقد قصر به العمر عن إدراك الغاية فمات فى ساحة الوغى واخترمه المرض الخبيث ؛ وهو يعمل دون ملل أو كلل . ومازال مصطفى كامل ومصطفى كمال علمين فى أمتيهما على البعث والإنشاء والتوجيه ، وآثارهما وخططهما ما زالت قائمة حية . فمصر مازالت تردد صيحة مصطفى كامل فى الجلاء كامل بغير قيد ولا تحفظ ، وتتجه وجهته فى الوطنية الخالصة المبرأة من الحزبية السياسية . وتركيا ما تزال تعيش فى النطاق الذى رسمه لها مصطفى كمال .

ويلتقى الرجلان فى النقاء ، فكلاهما أدى رسالة بلاده فى قوة وعزيمة ومضاء ولم يقبل فيها تهاونا أو تراجعا ، ولم ينزل عن حق من حقوقها وعاش لها واقفا حياته واهبا نفسه متجردا . لأنها هى كل شىء عنده وأعز شىء . وكان لكل منهما « ملهمته » كانت ملهمة أتاتورك « خالدة أديب » وكان لها فى خطواته النافذة أثر بعيد المدى ، وكان يستنصر بها فى ساحات الحرب وفى ساعات الحرج . وكان مصطفى كامل يستلهم أمه الروحية « جوليت آدم » وكان يشكو إليها ما يلاقى من آلام ومتاعب . كتب إليها فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٤ على أثر توقيع الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا وبعد أن انهارت آماله فى معاونة فرنسا يقول : « إنه لمن أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس ، وليس هناك ما يؤلمنى أكثر من الانحطاط الأدبى الذى

استولى على أولئك الذين كان يجب أن يكونوا أكثر الناس شهامة وشمما . لا تتخذى من هذا دليلا على الفتور ، ولكنها زفرة متألم فانى ما زلت - وما أزال - أبذر البذر الصالح وأمثل الأمل الحى ، بالرغم من كل شىء ، حتى لا تنسى مصر فى أمسها ولا فى غدها » .

وليس ما يمنع بعد هذا الالتقاء بين الزعيمين الكبيرين أن تكون بينهما وجوه خلاف واختلاف .

فقد كان مصطفى كامل سياسيا وكاتبا وخطيبا ، أما أتاتورك فقد كان محاربا عسكريا قبل كل شىء .

وكان مصطفى يؤمن بالخلافة الإسلامية ويؤيدها ويدعو لها ويراها عوناً على إجلاء المستعمر ، ويدعم رابطة الإسلام ووحدة الشعوب فى الشرق . .

ولكن أتاتورك كان يكفر بهذه الخلافة ويراها السبب الرئيسى للاستعمار وللتسلط الإنجليز وغير الإنجليز . وما أن واتته الظروف حتى اجتثها من أصولها

وكان مصطفى كامل يحب الشرق ويؤمن بروح الإسلام ويجرى على تقاليده ويعتز باللغة العربية . أما أتاتورك فقد كان على عكس ذلك تماما .

نور الدين وصلاح الدين

بينهما تلك الرابطة القوية بين خالق النهضة وحامل لوائها . وبين واسم الخطة ومنفذها . وبين القائد الأستاذ والجندي التلميذ .

كانت الغاية بينهما جمع كلمة المسلمين الوقوف في صف قوي وجبهة عاتية لمقاومة الصليبيين ورد غائلتهم وإجلائهم عن المناطق التي احتلوها غدراً وبغيا في القدس وطبرية ومشارف الشام .

وإن كان التاريخ قد حفظ صفحة وضاءة قوية لصلاح الدين ، فان المتطلع الحصيف يستطيع أن يستشف من ورائها مكان الرجل العظيم (نور الدين) الذي عبد الطريق وهيأ الجو . فما جاء دور صلاح الدين استطاع أن يصل إلى ما يريد على أوسع نطاق .

ولولا الحلقة الضخمة من الكفاح التي بدأها نور الدين ، لكان الأمر أمام صلاح الدين جد عسير ؛ ولما أمكن أن يصل إلى ما وصل إليه من ظفر .

ونستطيع أن نقول في نفس الوقت إن رسالة نور الدين وقد مات مبكراً كانت تنتهي إلى غير ما يريد ؛ لولا أن كان من ورائه صلاح الدين بقوته وحماسته وطموحه . وعلى الرغم من أنهما حملا رسالة واحدة ، فقد كانا مختلفين في الطبع والمزاج والخلق ، وأسلوب الكفاح اختلافا يخيل إليك من فرط اتساقه مع الزمن واختلاف الأمور ، أنه جاء مرتبا ولم يكن محض مصادفة ، اختلاف الشمائل والطباع بين الرجلين .

أما نور الدين فهو الرجل الشديد الإيمان ، الذي يرى سلاحه الخلق وحده والذي عرف بالتدين والعدل ورعاية التقاليد .

وهو إلى ذلك لم يكن يعترف بأساليب السياسة ؛ بما فيها من مناورات وبراعة وحيلة ؛ وإنما يتخذ أسلوب والإيمان ، وحده ويجعله سلاحه ووسيلته وأسلوبه جميعا .

وكان من فرط إيمانه ذلك أنه رفض أن يوسع مملكته ، وكانت في يده القوى الحربية المهيأة ، بالإضافة إلى ضعف الإمارات المتاخمة له . ولكنه صرف قوته الحربية في مواجهة الفرنجة ؛ وإجلائهم ومقاومتهم . وكسب ما وضعوا عليه أيديهم من حصون وقلاع .

وكان يطمع فيما هو أكبر من الملك ومن السلطان ، ومن الغايات الضيقة المحدودة التي تضطرم بها نفوس الأمراء والولاة . كان يطمح في أن يجمع كلمة المسلمين إلى وحدة خالصة . وكان يرجو أن يحقق الدولة الإسلامية الواحدة . وقد استطاع أن يصل إلى كثير مما أراد .

وقد أتاح له ذلك الطبع السديد كسبا ضخما . فسرعان ما صفت له قلوب الأمراء والحكام من حوله . وأجمعوا على الثقة الخالصة به . وآمنوا بأنه لا يطلب لنفسه ، وإنما لأمته . فأحبوه وأسلموا أمرهم إليه . ومضوا يسيرون خلفه وينتظمون في الكتيبة التي أعدها لمجاهدة الفرنجة .

وبذلك قطع على خصومه الطريق الذي كان سلاحهم البتار في كل العصور والأزمنة . سلاح التفرقة والإيقاع بين الصفوف الموحدة .

وكان نور الدين أقرب إلى الدعاة منه إلى الساسة والأمراء . فكان ذلك من أسباب ظفره وانتصاره . فقد كان يجمع القلوب حوله . وينظم صفوف الجهاد ويديل من خصومه . وهو في نفس الوقت موضع إكبارهم واحترامهم وفي أيامه أقبلت الحملة الصليبية الثانية . وكان من أثر سياسته القائمة على الخلق والإيمان وحدهما . أن فشل الفرنجة في الاستيلاء على دمشق . ومن ثم ارتدوا مهزومين .

وتحولت الريح الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم ، فلما جاء صلاح الدين كانت الأمور قد تهيأت له . ليدفع دفعات قوية فى وجه الصليبيين .

* * *

أما صلاح الدين فقد وطدت له الظروف والأحداث بعدة ضربات سريعة متوالية . مركزا ضخما فى القاهرة ثم فى الشرق .. لم يكن من المعتقد أن يصل اليه . لو أنه ظل على عمله الأول فى صفوف نور الدين .

كان « الموت » هو السلاح الذى هيأه له القدر ليحقق له الوصول إلى مركزه الخطير . جاء أول الأمر تابعا لأسد الدين شيركوه ؛ فلما قضى أصبح الرجل وولى الوزارة . وبعد وقت قليل مات الخليفة الفاطمى - وكان العقبة الثانية - فلما بدا يفكر بالاستقلال بمصر لم يكن يرده غير أبيه ووجود نور الدين ؛ فلما ماتا أصبح عميد الشرق .

وكان صلاح الدين سياسيا بارعا قديراً على المناورات والمداورات . وله فى صراعه مع خصومه أسلوبا غير أسلوب نور الدين .

وكان تطور الظروف والأحداث قد جعل أسلوب صلاح الدين متسقاً مناسبا بعد أن مرت الفترة التمهيدية ، التى هيأت لها الظروف أسلوب نور الدين ولا شك أن أقوى صفحة فى تاريخ صلاح الدين كله هى معركة « حطين » التى أوقع فيها الهزيمة بالصليبيين ، وأسر جودفرى وأرناط ، وغيرهم من ملوك الفرنجة أصحاب الرها وحصن جبيل وطبرية ، وتمكن بذلك من استرجاع بيت المقدس ، وفتح دمشق وحلب والموصل .

وتلا هذا النصر معركة إعادة « السنة » فى مصر بعد أن استأثرت بها « الفاطمية » دهرا ، وهى معركة تطلبت الكثير من المرونة والحكمة واللباقة التى أتيحت لصلاح الدين بمؤازرة أعوانه : القاضى الفاضل . وقراقوش .

وعيسى الهكارى .

* * *

كان تطور الأمور فى مصر هو السبب المباشر للخلاف بين نور الدين وصلاح الدين ، غير أن هذا الخلاف ظل خفياً دفينا متواريا إلى وقت غير قصير . وشاءت الأقدار عندما كاد أن يتكشف . أن يموت نور الدين فيخلص الأمر كله لصلاح الدين ويحقق ما يريد .

إن نفس صلاح الدين بعد أن تحطمت أمامه القيود . تاقت إلى أكثر من الوزارة . وقد عبر عن ذلك بقوله : « لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

وقد بدأت هذه الأمور تثير شك نور الدين وتزعجه ، غير أن صلاح الدين ظل حريصا على أن يكتم أمره . وكان لوالده أثر فى هذا الاتجاه .

وحاول صلاح الدين أن يصل إلى قلب نور الدين عندما علم هذا الجفاء فأرسل اليه هدية من نفائس القصر الذى استولى عليه . غير أن نور الدين لم يعر الهدية على جلالها اهتماما . وقال كلمته الخالدة التى تمثل الفارق بين فهميهما وخطتهما : « ما أنفقنا الذهب فى مصر وبنا إلى الذهب حاجة » .

وبقى صلاح الدين يؤمن فى دخيلة نفسه أنه رجل مصر كما أن نور الدين رجل الشام .

وكان نور الدين حريصا على أن يعاونه صلاح الدين فى مهاجمة الفرنجة . غير أن صـــلاح الدين كان يرى أن يبقى على قوته فلا يبددها . مدخرا إياها للأحداث التى تنتظره فى مصر . فضلا عن أنه كان يعارض اتجاه نور الدين فى مطاردة الصليبيين . لاسيما فى المنطقة بين مصر والشام وكان القاضى يقول : « إن هذه القوت بمثابة الخليج الذى يعصمهم من شر نور الدين . ويجعلهم

فى مأمن منه . حتى يثبتوا أقدامهم ، فلا يستطيع بعد إخراجهم من مصر .

ومن آيات ذلك أيضا أنهم أبقوا على « إرناط » فى منطقة القدس حتى لا يخلو الطريق بينهم وبين رجل الشام .

وأحس نور الدين بالاتجاه الجديد الذى يمضى فيه صلاح الدين منذ أن قبل الوزارة وارتدى خلعتها قبل أن يصله الإذن منه .

وبالرغم من أن نور الدين كان يزعجه أن يستقل صلاح الدين بمصر ، فانه كان حريصا على ألا يقوم بعمل ضده . وقد صرف النظر عن فكرة مهاجمته وإخراجه من مصر .

وكان صلاح الدين يخشى سيده ويفكر طويلا فى أمره ، ولا يخطو خطوة إلا وهو يقدر فيها ما يكون من أمر نور الدين .

غير أن القدر الذى كان فى صف صلاح الدين على طول الخط . قضى فى الأمر . فمات نور الدين . ولم يكن معلوما ماذا كان يحدث بينهما لو ظل حياً .

ولما قضى نور الدين . أسلمت زعامة الشرق لصلاح الدين . فأدى واجبه على أصدق وجه . وعقد على رأسه عصابة الحرب . فلم يدعها حتى قضى فى ميدان الوغى .

اقبال وطاغور

شاعران من آسيا . ومن قارة الهند بالذات ، طبقت شهرتهما الآفاق . ووصل اسمهما إلى أعلى ذروة يمكن أن يصل إليها اسم شاعر . كتب إقبال شعره بالفارسية وكتبه طاغور بالإنجليزية . واستهدف كل منهما الوجهة التى تتصل بحياته و نفسيته ومحيطه . وقد درس كلاهما فى أوربا وفى إنجلترا بالذات وقاما بسياحات فى العالم الغربى . وعاد كل منهما إلى وطنه الأول ، وهو يحس بالدافع الذى يحدوه إلى أن يؤدى له بعض حقه .

أحب طاغور « البرهمية » وعاش يجدد أساطيرها ويصوغها على وجه يتناسب مع روح العصر ، أما إقبال فقد أحب الإنسانية كلها ممثلة فى الدعوة إلى الإسلام.

وعاش طاغور فى محيط الحياة القائمة ورسم صورها . أما إقبال فقد عاش فى المستقبل البعيد . عاش فى الصورة الحلوة العذبة صورة الباكستان .

كان طاغور صورة الشاعر الذى استبد به تراث البرهمية الذى ورثه عن أجداده ، فلم يستطع العلم الجديد ، ولا محيط الحياة الأوربية أن يخلصاه من آثاره وسرعان ما عاد إلى الهند ، فتأججت فى نفسه العاطفة القديمة الموروثة ، فعاش ينشرها فى صور جديدة لافت الإعجاب والتقدير .

أما « إقبال » فقد زادته المدنية الأوربية والثقافة الغربية ثقة بأن الإسلام هو دين الإنسانية وبأن الدين الحـ[illegible] السبيل الناجع إلى حل كل المشاكل المعقدة التى يضطرم بها صدر الـ[illegible] ديث .

لقد أدى طاغور اتجاهه الشعرى الخالص إلى معارضة غاندى ، فقد كان

يسخر من الدعوات التى تعرض أتباعها لتضحيات شديدة ، وتطلب من أصحابها وضعاً معينا يحتمل فى سبيله الكثير من المتاعب ، وأخذ عليه رومان رولان جهله بالحقائق الاقتصادية وانعدام الناحية العملية فى نفسه .

أما إقبال فقد كان الرائد الأول للباكستان ، وكان الى شاعريته الصادقة واقعيا يفهم فى السياسة ومدوراتها . وينفذ إلى أغوارها . وكان محمد على جناح يقول عنه : « إنه دليلى ورفيقى » .

وفى الوقت الذى كانت فيه الدوائر الغربية تقبل على شعر طاغور وتصطفيه بجائزة نوبل ، كانت تغض الطرف عن شعر إقبال .

ذلك أن طاغور كان يعيش فى « البرهمية » وحدها وينسج ألحانه من جمال الطبيعه وتغريد العصافير وعبير البرتقال . أما إقبال فكان يدعو إلى تجديد بناء المجتمع الإسلامى مع الانتفاع بالتطورات الحديثة ، وكان يدعو إلى تحرير الفرد تحريراً اجتماعيا وتأويل الكون تأويلا روحيا وإقامة مبادىء أساسية لنهضة جديدة .

ولم تكن أوربا لتعطف على شاعر يدعو إلى اليقظة ضد الاستعمار ، ولذلك أهمل إهمالا فى التقدير الأوربى . وإن كان بعض النقاد يرجع ذلك التقدير الذى حظى به طاغور إلى أن شعره ألف باللغة الإنجليزية ؛ وهى من اللغات العالمية

* * *

ولد طاغور فى كلكتا قاعدة البنغال فى ٧ مايو سنة ١٨٦١ وبدأ نظمه بوصف زهرة النيولوفر ، وسافر فى شبابه إلى إنجلترا لدراسة القانون ، ولم يلبث أن عاد وانصرف إلى دراسة الدين والفلسفة والأدب .

ونقل القصص الدينية إلى فن جديد ، فجعلها ذات معنى فى نظر أهل العصر وانصبت فلسفته على المطالبة بالانطلاق من قيود الأمور الواقعة وطالب

بتحرير الأفكار من السهوات والمطامع وسائر المؤثرات .

ومضى يفرد ، ويرسم صور الفن الخالصة التي لم تكن تستهدف سوى الفن وحده . وهو في ذلك يختلف كل الاختلاف مع « إقبال » الذي آمن بأن الفن للحياة ، ووقف شعره على النهضة .

وزار طاغور في أيامه الأخيرة إيطاليا وألمانيا وهولاندا وبريطانيا ، وبالرغم من أنه عارض غاندى في الدعوة فإنه أيد حكم « موسليني » الديكتاتوري وإن كان قد اعتذر عنه بارتفاع السن ، وغلبة الأثر العاطفي — نتيجة مظاهر التكريم التي قوبل بها — على النظرية العقلية .

ومن آيات طاغور لوحته عن الحب :

« نسكن معاً في قرية واحدة وهذا هو سر سرورنا معاً ، ويفصلنا حقل واحد ، فالنحل الذي يتجمع في حديقتنا يذهب ليبحث عن الرحيق في حديقتهم وأزهارهم التي تتساقط في النهر . يدفعها التيار إلى حيث نستحم ، وسلال أزهار « الكسم » الجافة تجلب من حقولهم إلى سوقنا .

إن الطريق الذي يؤدي إلى منزلها يعبق في أيام الربيع برائحة أزهار المانجو عندما ينضج بذر كتانهم ويكون صالحاً للجمع يزهر القنب في حقولنا .

والنجوم التي تبتسم لكوخهم تبعث لنا نفس النظرة المتلألئة ، والأمطار التي تملأ أحواضهم تنعش عندنا غابات « الكادام »

اسم قريتنا « خانجانا » ويسمون نهرنا « أنجانا » واسمي يعرفه الجميع ، أما اسمها فهو « رانجانا »

* * *

أما إقبال فقد عاد من أوربا سنة ١٩٠٨ وكان تلميذاً يفخر به توماس أرنولد . وقد حال ضعف بصره بينه وبين العمل في الحكومة ، وكان ذلك كسباً للفن والشعر .

اذ فتح أمامه الباب لأن يجرد نفسه المثل العليا .

وقد استمد « إقبال » مذاهبه الشعرية من « القرآن » نفسه ، ويقول :

« إن مجدى مدين لتوجيهات أبى . فقد عودنى تلاوة القرآن بعد صلاة الصبح من كل يوم ؛ وكان كلما رآنى يسألنى : ماذا أصنع ؟ فأجيب بأنى أقرأ القرآن . فيقول : اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك .

وقد ربط بين الفلسفة والدين . وآمن بالدين كقوة كبرى . فقال : إنه ليس فكراً ولا شعوراً . وإنما هو تعبير عن الإنسان كله .

وهو يرى أن العالم الحديث فى حاجة إلى الدين للخلاص من متاعبه . وأن الرجل الأوربى قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلى . فلم يعد يعيش بروحه . فهو يعيش فى صراع مع نفسه من ناحية ومع السياسة والاقتصاد من ناحية أخرى . ويقول : إن على الشرق أن يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . وإن عالما جديداً لا يستطيع أن يتحدد وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبلا » . وهو من أصحاب أدب القوة . يقول : إن الشدائد والمحن فى هذه الحياة تقوى الذاتية . والآلام واللذات . يكمل بعضها بعضا . وقد لقبه مؤرخوه بالفارس الناسك .

ويقول : إن ديوانه « بيام مشرق » هو رسالة من الهند إلى أوربا . ومن الإسلام إلى الحضارة الغربية . وهو فى مذهبه هذا يجمع بين حضارة العصر والحفاظ على التراث الإسلامى . ويؤمن بالاهتداء بالقلب والعقل معا . وهو يرى الشعور بالواجب وأداء هذا الواجب ويؤمن بتضحية الذات فى سبيل الفكرة . وهو فيلسوف وشاعر وصوفى كصاحبه طاغور . يستمد كل منهما خطوطه الرئيسية من دينه : الإسلام والبرهمية . يقول :

« انظر إلى نفسك فان قوة الطوفان كامنة فيك .

اجعل شعارك فى كل زمان . لا تخلف الميعاد .

اعتمد على نفسك ولا تشتك من العالم .
لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك » .

وكان الناس يرون « إقبال » سابقا لعصره . غير أن نبوءته فى الباكستان لم تلبث أن تحققت بعد وفاته بقليل . ويؤيد هو هذا المعنى حيث يقول : « أنا صوت شاعر الغد . وفاكهتى ليست لهذه السوق . وإنهذا الصوت لقافلة أخرى . أنا العاشق ، والصراخ إيمانى وضجيج الحشر معشوقى » .

وبعد فان كانت أوربا قد أغضت زمنا عن إعلان تقديرها لشعر إقبال فان الباكستان قد ردت على إقبال بعض هذا الحق . كما أداه الدكتور عبد الوهاب عزام بنقل ديوانه إلى اللغة العربية .

وبعد : فقدكان طاغور يقول كلمة « البرهميه » ويعيش فى حدود الصوفية والشعر . أما إقبال فقد جمع بين الشعر والسياسة . ولم يقف شعره على الهند وحدها . وإنما جعله للانسانية والإسلام جميعا .

إن طاغور قال كلمته الحياة الخالدة . أما إقبال فقد قال كلمة الخلود الحى »

المتنبي والجاحظ

تجمع بينهما صفة الأدب العبقرى الخالص ، والباع العريض ووضوح الذاتية وإشراق الديباجه .

وتجمع بينهما صفة الطموح والإيمان بالشخصية والثقة بالنفس ؛ وإن اختلفا فى الأسباب والأساليب والاتجاهات .

واتصل كلاهما بالسلطان . ووضع قلمه فى خدمه أهداف الدولة ، خدمها « المتنبى » بشعره الرصين الذى كان نشيد جيوش سيف الدولة المظفرة فى هجومها على أطراف الروم . وخدمها « الجاحظ » بأدبه الممتاز الذى دفع به غوائل النزعات الضارة من مذاهب الرافضة والجبرية .

ونشأ كلاهما فى بيئة فقيرة وقاسى فى أول حياته مظاهر المسغبة ومتاعب الفاقة ، غير أن النفس الطموح المتطلعة استطاعت أن تدفع فى زحام الأحداث فتصل إلى المجد بعد جهاد وكفاح . ولا شك أن الأدب العربى ما زال منذ أن برز فيه الجاحظ والمتنبى مدينـــا لهما بالخطوط الرئيسية للفن الأدبى فى النثر والشعر معا ، فلا زالت تتمثل فى أسلوب الجاحظ تلك القوة والرصانة والوضوح التى ننشدها فى الأدب الحديث ، كما كان أدب الجاحظ هو أدب الفكرة والموضوع والدراسة .

وسيظل شعر المتنبى يروى على الأجيال ، وما تزال الأبيات الحكمية فيه موضع الاستشهاد والرواية ، ولا يزال لها حرارتها وحيويتها وصداها .

* * *

نشأ المتنبى والجاحظ نشأة فقيرة ، ثم اتسع رزقهما فى الكهولة ، حتى بلغا

غاية الغنى والجاه وبعد الصيت والتقدير . وانهالت عليهما العطايا والهدايا من العظماء والأمراء . ومع ذلك فقد ظل كل منهما يطمع إلى غايات بعيدة .

كان الجاحظ قارئاً واسع الاطلاع والثقافة ، حتى استطاع أن يستوعب كل علم عصره والآثار العربية التى وجدت فى أيامه . وكان المتنبى شاعراً مفطورا على البيان ، بالنظم . وكان يضع شعره فى خدمة مطامعه وغاياته . ثم ضاق كل منهما بخدمة الخلفاء والإمراء . وحاول التخلص من نير الجرى فى الركاب . ولكن — لم يستطع أحد منهما أن يحقق هذه الغاية . وشقى كل منهما بهذه الصحبة إلى أبعد حد .

أما الجاحظ فقد مرت عليه فترة فى غاية القسوة والظلام عندما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فى خلافة المتوكل . فقد كان إذ ذاك منحرفا عن أحمد بن أبى داود . فحاول أن يتحامى هذا الجو المضطرب ، فهاجر على صورة من الهرب . ثم حمل مقيداً من البصرة وفى عنقه سلسلة وعليه قيص سمل ودار بينه وبين أبى داود حوار عاتبه فيه عتابا قاسيا . وقال الجاحظ : إنه إنما هرب لأنه خاف أن يكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ، ومما قاله مستعطفاً « ولأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسىء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى » .

أما المتنبى فقد تورط فى صحبته بسيف الدولة ، ثم ضاق كل منهما بالآخر ، فخلف حلب . وقصد مصر ، ولم يلبث أن ضـــاق بكافور ؛ وترك مصر هاربا إلى بغداد ثم فارس واحتمل فى سبيل ذلك من الأهوال ما احتمل ، وكان فى أصفى أيام حياته يضيق بهدوء . وما تلبث مطامعه أن تؤرق عليه أجمل لياليه

* * *

ومن أوجه الخلاف بينهما ان الجاحظ كان دميم الوجه قبيح التقاطيع ،

وأنه تزوج مرة من جارية تركية جميلة وجاهلة رجاء أن يرزق ولدا يكون له جمالها وذكاؤه . وكان يتوجس خيفة أن تلد ولدا فى قبحه وجهلها . وقدحدث ما توقعه . وكان إلى ذلك مرحا طروب النفس متفائلا . ليس بعصبى ولا سوداوى يستقبل الحياة فى بشر ويضطرب فى يسر وبساطة .

وتبدو معالم روحه المشرقة الطروب فى كتاباته وخطبه ، التى تتميز بالدعابة وتتسم بخفة الروح والفكاهة ، حتى وصف بأنه « أناتول فرانس » العرب .

أما المتنبى فقد كان وجيها مهيبا ، سوى الخلقة كامل التكوين . طوالا . وكان فارساً يجيد ركوب الخيل ، وله مشية فيها خيلاء وزهو . وكان يكرم نفسه على صورة وصفت باللغو . . حتى قيل إنها مما ضاق به سيف الدولة .

وكان إلى ذلك كله متشائماً ، قد أجهدته الحياة وساء رأيه فى النـــاس والأصدقاء بالرغم مما أعطته من المال والجاه .

وقد أقنعه كفاحه الطويل فى سبيل غايته ، أن الناس متناكرون متحاسدون لئام ، ومن ثم نشأت عنده تلك العقيدة السوداوية المظلمة التى ضعف فيها جانب الخير .

ومن عرف الأيام معرفتى بهـــا
وبالنــاس روى رمحه غير راحم
فليس بمـــرحوم إذا ظفروا به
ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

لقد عاش المتنبى حياته لغاية واحدة ، لم يدركها . قيل إنهـا الولاية أو الإمارة ، ولا يستبعد أن تكون مطلباً من المطالب الغامضة التى لم يرسمهـــا المتنبى على وجه الدقة ولم يفصح عنها فى أسلوب صريح .

لا تحسبن المجد زقا وقينـــة فما المجد إلا السيف والفتكة البـكر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنمـــا تداول سمع المرء أنمـــله العشر

لقد عاش المتنبى حياته متنقلا، مسافرا .. ضاربا فى أرض الله إلى غير غاية واضحه، ليست المال ولا الجاه على أى حال، فقد تنافس فى صحبتـــه الملوك والأمراء. وعلى الرغم من أنه امتدح الملوك، فأنت لا تستطيع أن تضيفه بسهوله الى قائمة الشعراء. وانك لتحس حين تقرأه أنه انما اتخذ الفروسية. ولم يخلق ليقف بالأبواب:

فاوم بى مـــا أردت فانى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

وجملة رأيه فى الحياة أنه لا وفاء ولاصداقة. وأنها انما تقوم على الصراع والغلبة لأصحاب الدس واللؤم والوقيعة.

* * *

فاذا ذهبنا ندرس علاقتهما بالمرأة. وجدنا بينهما أوجهاً للخلاف.

أما الجاحظ فقد كان مفتونا بها، كلفا. ويبدو أنه وصل فى تحقيق ذلك الى أبعد حد. فقد كان حلو اللسان عذب الحديث. يحفظ الكثير من القصص والنوادر. وكلها بضاعة التقرب الى الناس. ومثل هذا النوع يستطيع أن يصل الى قلب المرأة فى يسر.

وهو حين يعرض للمرأة فى رسائله المنوعة. تراه قوى العارضة. خبيراً. كأنما أتيح له أن يستوعب طبائعها وشمائلها. وقد تعمق فيها ودرس جوانبها الظاهرة والخفية. وتحس من وراء ألفاظه معانى نفسية تؤكد أن التجربة لا الملاحظة وحدها هى التى أتاحت له القدرة على هذا التبريز.

ومما يروى أن امرأة استخدمته عند الصائغ وأخذته الى هناك. فلما رآه

الصائغ ذهب ينظر اليه ، وما زادت هى عن أن قالت : مثل هذا .

فلما سأل الصائغ قال . إنها أتت له بفص وطلبت اليه أن ينقش عليه صورة شيطان . فقال لها : ما رأيت الشيطان أبداً ، فاتت به ليرى فيه صورة الشيطان .

أما « المتنبى » وهو الشاعر . الرقيق الحس ، فلم تعرف له جوانب غزل واضحة . ولم نعرف عنه أنه أحب المرأة او اتصل بها . وكأنما ضاقت به دنياه ومطامحه عنها ، وشعره فى المرأة قليل . وليس فيه عارضة المتنبى القوية فى سائر شعره وان قيل أنه أحب أخت سيف الدولة وكان ذلك من أسباب خصومته معه .

وكما ترحل المتنبى ، وتنقل فى سبيل غايته الغامضة المجهولة . رحل الجاحظ فى أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم وبلاد العرب . وأكسبته رحلاته هذه خبرة عجيبة ؛ تظهر فى وضوح عندما يتحدث عن الحيوان والحشرات والزرع والشجر والنخيل .

وكما يعد المتنبى موسوعياً فى الحكمة خبيراً فى النفاذ إلى دقائق الطبيعة الإنسانية ، يعد الجاحظ موسوعياً فى وصف البلدان والمخلوقات والتجارة والمعاملات ، وقد كان إلى ذلك سياسياً واجتماعيا ، كما برع فى الكتابة الدينية حين تحدث فى الاعتزال وعرض حجج الرافضة .

لقد كان المتنبى والجاحظ آية عصرهما فى الادب والحياة ، وآية الأدب العربى فى النثر والشعر .

ابن تيمية والغزالى

يفرق بينهما قرنان كاملان من الزمان ومع ذلك فقد التقيا . وكانت آراء الغزالى من بين القضايا التى بحثها ابن تيمية ووقف منها موقفه العنيد .

ظهر كل منهما فى الوقت الذى كانت المملكة الإسلامية فى حاجة إلى مثله وترك كل منهما فى الفكر الإسلامى أثراً بعيداً مازال قائماً وقويا حتى الآن.

ظهر الغزالى فى الوقت الذى كان الخلاف فيه بين الفقهاء والصوفية ، وبلغ كل مبلغه من العناد والتشبث ، واتهم كل منهما الآخر بالنقص والقصور . . وكانت الصوفية قد وصلت إلى درجة من سوء الفهم والتطبيق أبعدتها كثيراً عن حقيقة الإسلام وقواعده .

فكان الغزالى أقدر من استطاع أن يمزج الفقه بالتصوف ويجعلهما شق نواة واحدة .

أما ابن تيمية فقد ظهر فى إبان المحنة الكبرى أو على وجه التحقيق ظهر بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار . بعد أن أطفئت منائر الخلافة . وكاد أن يفلت الزمام من أيدى المسلمين عندما طغى السيل على الشام ، ووقعت ثغورها فى أيديهم ، واضطر الجيش المصرى إلى الارتداد أمام هجوم التتار ليتحصن بحدود مصر فكان — لظهوره فى هذا الجو العنيف — أبعد الأثر إذ كان أشبه بالإعصار القوى لا يقف فى وجه شىء . هاجم المعتزلة والصوفية والفقهاء والباطنية ، والنصيرية والروافض ، وسجن من أجل ذلك وعذب ، وانتقل بين دمشق والقاهرة والإسكندرية ، وكان فى كل أهدافه يرمى الى تنقية العقيدة والعودة بالإسلام إلى منابعه الأولى .

ظهر كلا الرجلين في الوقت الذي وصلت فيه الأمور إلى أبعد حدود الاضطراب ؛ وكادت الفكرة الإسلامية أن تتوارى تحت مطارق خصومها ؛ فكان كل منهما مبعوثا جاء في إبانه لينقذ الفكرة ويجدد الرسالة .

عاش ابن تيمية في الشام وعاش الغزالي في بغداد .

ورحل ابن تيمية إلى مصر ورحل الغزالي إلى دمشق وبيت المقدس .

وحارب ابن تيمية التتار بسيفه ، وحارب الغزالي الباطنية بقلمه .

وصارع ابن تيمية قومه فلم يترك طائفة من الطوائف دون أن ينتقدها أو يصارعها ، وصارع الغزالي نفسه فلم يترك مذهبا من مذاهب العلم والفلسفة والكلام الا أخذ منه بقدر ثم عارض هذه المذاهب جميعا .

ولقى ابن تيمية الخصومة في حياته فسجن وعذب وحوكم مرات متعددة في مصر والشام .

ولقى الغزالي الخصومة بعد مماته ، فكتبت في الرد عليه الفصول والأسفار وحرقت كتبه ، وحكم عليه بالزندقة .

ولكن كلا الرجلين أصبح خالداً في تاريخ الفكر الإسلامي ، وعد دعامة من دعائمه الكبرى ، وكلا الرجلين خلق جيلا وأنشأ مدرسة امتدت خلال القرون والأجيال ، وكان لها أبعد الأثر في العصر الحديث .

أما الغزالي ، فلا يزال أهل السنة والصوفية ودعاة الفكرة الإسلامية ، يضعونه على رأس قائمة الأئمة المجددين المصلحين ، وقد كان بعيد الأثر في نفوس أهل المغرب ، اذ كان ابن تومرت وغيره من زعماء الحركات الإصلاحية من تلاميذه وأتباعه . وفي مصر كان المسلمون يرون الغزالي في مقدمة من يؤخذ عنهم الإسلام .

أما ابن تيمية فهو إمام الوهابية الأول . وقد تحققت أفكاره في صورة عملية منذ قرن ونصف قرن من الزمان حين دعا اليها محمد بن عبد الوهاب ، واستطاع أن يقنع بها حاكم نجد . فاجتمع عليها أمراء آل سعود . وقامت باسمها الدولة السعودية التي ما زالت تحكم في شبه جزيرة العرب حتى الآن .

كان كلا الرجلين آية من آيات الله في العلم والفهم والذوق والذكاء ، نابغة قديراً بارع القلم ، حسن الأداء عميق الغور يفند ويمحص ويحلل ما بين يديه من القضايا في دقة ولباقة . وقد ترك كل منهما آثاراً كثيرة متعددة مستفيضة تلقفها التلاميذ والأتباع بالدرس والبحث والتحليل والشرح .

وكتب الغزالي أعظم كتبه (إحياء علوم الدين) وهو سجين باختيار، في منارة جامع دمشق . وكتب ابن تيمية أعظم بحوثه (تفسير القرآن)وهو سجين على الرغم منه في جب من سجن دمشق .

في عصر الغزالي بدأ الزحف التتري على المملكة الإسلامية . وفي عهدابن تيمية وصل أقصى قوته ومدى غايته .

عاصر الغزالي الخلاف بين الفقهاء والصوفية فقضى عليه بادماج الفقـــه والتصوف ، وعاصر ابن تيمية الخلاف بين الصوفية والفلاسفة فقضى عليـه بالعودة إلى المعين الأول .

كان الغزالي يرمى إلى توحيد الفـكرة الاسلامية في نسق واحد ، وكان ابن تيمية يرمى إلى نبذ كل المذاهب المبتدعة من كلام وتصوف وفلسفة . والعوده إلى بساطة الإسلام في معينه الأول .

وكان الغزالي رقيق الحاشية ، هادىء النفس . يعمل في ميدان الاصلاح متعاوناً مع أهل الحل والعقد في سبيل مقاومة العدو الخارجي .

أما ابن تيمية فـكان قاسيا عنيفاً جريئا ، لا يبالي أن يقف أمام الجماعات

والأحزاب ويصارعها فى قوة . ولا يبالى خصومته مع الأمراء والرؤساء .

ولكنه كان منصفاً عادلا ، فحين أقبلت جحافل الصليبيين قاد المعركة وركب فرسه ونادى فى الناس بالجهاد ودفع الجموع إلى الاستشهاد فى سبيل الله .

كان كل منهما نموذجا عاليا فى الخلق بين طوائف العلماء فى عصريهما . كان كل منهما أكبر من أن يشترى ضميره بالمال ، أو يتراجع أمام عقيدته ورأيه وهدفه . كان الغزالى شعبيا يكلم الجماهير ويكسب ثقتها ويحرص على أن يحولها عن أخطائها بأساليب غاية فى الرقة واللين ، وبذلك استطاع أن يصل إلى مركز قريب من التقديس فى نظر العامة .

أما ابن تيمية فكان يؤمن بالحق يذيعه فى صراحة ، لا يبالى غضب الجماهير فى سبيل إعلان رأيه وما يعتقد أنه الخير .

وكان يؤمن أنه لا فائدة من ممالئة الجماهير . وإنما يرى الاصلاح بالهدم والبناء ، والاعلان فى صراحة عن الأخطاء . وكان إلى ذلك متشدداً قاسيا عنيفا مما سبب له الكثير من المتاعب وألب عليه العلماء وتجار الدين الذين كرهوا موقفه وحقدوا عليه ودسوا له عند الأمراء والملوك ، فحوكم وشرد وسجن . ولكنه ظل قوياً راسخا كالطود لا يتزلزل ولا يتحول عن رأيه .

عاش الغزالى فى عهد السلاجقة الذين أعادوا للاسلام مجده وقوته .

وعاش ابن تيميه فى ظل دولة المماليك الذين قاوموا التتار والصليبيين وسحقوهما . كان كل منهما إماما مجتهداً بلغ درجة الامامة وتحققت له شروط المجتهدين . جمع الغزالى بين القرآن والحديث والحكمة فى كتبه ، ووقف ابن تيميه نفسه على تفسير القرآن ووضع فيه نحواً من ثلاثين مجلدا ، هذا باستثناء رسائله المتعددة .

الغزالى شافعى المذهب وابن تيميه حنبلى المذهب ، وفى خلق الغزالى ما يشبه خلق الشافعى من لين وسماحه ، وفى خلق ابن تيميه ما يشبه خلق ابن حنبل الذى احتمل محنة خلق القرآن بضع سنوات دون أن يتزلزل عن رأيه .

ويكاد يكون الغزالى فى أيامه الأخيرة رجل قلب وعاطفه وذوق وإحساس بينما يبدو ابن تيميه رجل عقل ومنطق وفكر .

وكان اتجاه كل منهما فى وقته وإبانه أصدق الاتجـــاهات فى التجديد والاصلاح . قصد الغزالى إلى إيقاظ روح الايمان فى الجماهير ، فتزعم رجال المذاهب الصوفية ونقى ما فى أيديهم من الخطأ والاضطراب وقدمه على طريقة جديدة غاية فى الروعه ، فأصبح بحق العلم الأول حين يتحدث المؤرخون عن أعلام الصوفية .

وفضل الغزالى العابد العامل بعلمه على العالم البارع فى المجادلات والتخريجات

وكان أشد خصومه عليه : ابن رشد وابن تيميه ، وكان ابن رشد ينصر الفلسفه التى حاربها الغزالى حربا عوانا . وكان قد هاجم الفلاسفة بكتابيه : « مقاصد الفلاسفه وتهافت الفلاسفه » وكان ابن تيميه وتلميذه ابن القيم يريان الغزالى مسرفا فى التصوف .

واتفق العلماء على أن الغزالى هو مجدد القرن الخامس ، فقد جدد للناس إيمان القلوب ، وصفى الفكرة الاسلامية مما اتصل بها . وما أضيف اليها ومزج العقيدة بالعبادات والتشريع بالتصوف .

بدأ الغزالى حياته عالما يتولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد . وهى أكبر جامعة اسلامية اذ ذاك — بعد الأزهر — واتسعت حلقات دروسه واشتهر بفتاواه البارعه . فلما تحولت أفكاره وجال جولاته الطويله وعاد الى طوس . أنشأ مدرسة للفقهاء وأخرى للصوفيه . ومن هذا نتبين مدى التحول الذى طرأ على أفكاره . وقد رحل فى سبيل الراحة النفسية . فانتقل من طوس الى نيسابور الى بغداد الى الحجاز الى دمشق الى بيت المقدس الى مصر ثم عاد الى خراسان . وقد ولد الغزالى سنة ٤٥٠ ه ببلدة طوس من أعمال خراسان وتوفى سنه ٥٠٥ ه .

* * *

أما ابن تيميه فقد أمضى فترة كبرى من حياته سجينا ، كان ما يلبث أن يخرج من سجنه حتى يعود اليه . وفى الاسكندريه أمضى سجيناً سبع سنوات متوالية من ٧٠٥ ه الى ٧١٢ ه وسجن فى قلعة الجبل وفى القاهرة . وتوفى مسجونا فى قلعه دمشق ٧١٢ ه .

وكان غايه جهاده أن يناهض البدعه فى العقائد والأحكام والعبادات . وأن يكافح مبادى الحلوليه فى الصوفيه وأن يستنكر تقديس الأولياء .

وقد أنكر التقليد وفتح باب الاجتهاد واسعا .

وظل ابن تيميه يكتب ويناقش ويحاول . حتى إذا جاءت الكوارث وضع قلمه . وجرد سيفه وركب فرسه وصال فى ميدان القتال يحرض المعلمين بنبيانه الرائع وأسلوبه الفياض وايمانه الدافق . ومن أشد ما قاساه . ما حكم عليه أن يتمضى شهر رمضان فى برج . فلما جاءت ليلة العيد أنزل الى الجب فأمضى فيه يوما وليلة . . وجملة القول أن ابن تيميه والغزالى على اختلاف ما بينهما من أوجه الرأى والزمن . كانا امامين من أجل أئمة الاسلام قدراً وأبعدهما أثراً فى تاريخه وحياته وتراثه .

شوقى وجيته

لم يكتمل مظهر العبقرية فى الشباب على صورة من النضوج إلا لقليل من رجال الفكر والأدب . فقد جرت سنن الكون على ان لا يتألق البطل أو النابغه أو العبقرى منهم إلا بعد أن يصل إلى طور الشيخوخه . ويكون قد استوفى عوامل التقدير التى لا تتحقق إلا بعد أن يتصل الشاعر بالناس فترة طويلة من العمر ، يظل خلالها يقرع الأسماع ببيانه . ويداعب العواصف والقلوب بالقصيدة بعد الأخرى واللمحة وراء البادرة ، حتى يستوى فى تقديرهم كائنا قوياً يصح له أن يحرز صفة العبقرى أو النابغة .

أما شوقى ، وجيته ، فقد خالفا هذه السنن . أو خالفتهم ، إذ اكتملت شخصيه كل منهم الذاتية على الصورة القوية منذ الجولة الأولى ، وخلال الشباب الباكر ، ولم تزد الأيام المتوالية والخطوات المتتالية ، فى الرجولة والشيخوخة شيئا عما منحهما الشباب إياه .

لقد تألقا كوهوبين ، وبرزا كعبقريين فى إبان الشباب ، ووصلا إلى القمة ولمّ يتخطيا هذه المرحلة النضرة . ووصل شوقى بقصيدته « همت الفلك » ووصل جيتة بكتاب « آلام فرتر » وقد كتب كلاهما أثره هذا فى سن السابعة والعشرين وأحدث كل منهما بقصيدته ، أو قصته ضجة كبرى ، بحيث لو لحق الموت بأحدهما أو كليهما بعد ذلك لظل التاريخ يحفظ لهما من نباهة الصيت ، وامتداد الذكر ما لا يقل كثيراً عما يحفظ لهما الآن .

وصل كل منهما إلى القمة بهذا العمل الأدبى الأول . ثم تسلسل بعد ذلك

إنتاجهما فكانت كل حلقة من حلقاته دليلا جديدا على عبقرية الشباب، ونبوغ الفتوة الباكرة .

أما قصيدة شوقى « همت الفلك » فقد جاءت فى ثلاثمائة بيت، وانتظمت كعقد من اللؤلؤ، تاريخ مصر منذ الفراعنه إلى العصر الحديث، وهزت رجال المؤتمر الدولى الذى ألقيت فيه، ثم هزت العالم العربى أيضا . وأعجب بها الناس أيما إعجاب، وتألق بهـــا اسم شوقى الشاعر الشرقى المصرى الشاب فى أكثر من من مكان، حيث برز فى أول عمل من أعماله الأدبية، غاية فى القوة والحيوية .

أما قصة جيته « آلام فرتر » فقد أحدثت هزة كبرى فى المحيط التى ظهرت فيه من أوربا وتركت فى نفوس الشباب أبعد الأثر، حتى قيل إنها من فرط تأثيرها حملت الشباب على أن يفعلوا ما فعل بطلها .

ويلتقى شوقى وجيته — بعد تبريزهما الباكر فى سن الشباب — فى كثير من الشمائل والخصال، على الرغم من اختلاف العصر واختلاف الموطن .

يلتقيان فى وفرة عوامل الإصـالة فى التعبير والبيان، وفى براعة الإنشاء والعرض وجزالة العبارة وصفاء الأسلوب .

فكلاهما شاعر قد درس الحقوق . أما شوقى فقد قرأ التوراة والانجيل؛ وأحب الأدب الغربى . وطالمـا نوه فى قصائده بالسيد المسيح فى إجلال وتكريم .

أما جيته فقد قرأ القرآن والسنه النبوية وأحب الآداب الشرقية واصطبغت كتاباته بصبغتها . ومن أبين آثاره فى هذا الصدد « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » .

ولم يرد هذا فى حياة الشاعرين متأخرا حتى يمكن أن يقـــال إنه جاء مع

ارتفاع السن أو تحول الطبع ، وإنما جاء مبكرا فى سن الشباب الذى لا يحفل كثيراً بالروحية أو الدين . فقد قرأ جيته السيرة النبوية فى سن السادسة والعشرين .

وظل يضمن شعره من روح الشرق وأدبه الكثير حتى انتهى إلى إنشاء الديوان الشرقى بعد سن الأربعين . وكذلك كان شوقى . وفى قصيدته همت الفلك بالذات . وقصائده التى نظمت فى الشباب ، آثار تدل على أنه أحب التوراة والإنجيل وأحب الغرب وأدبه ؛ ومضى شوقى فلم يغيره ارتفاع السن ولا تحول الميول عن هذا الإعجاب والتقدير .

وعاش كلاهما — شوقى وجيته — فى ظل الأمراء . فشوقى كما يقول عن نفسه ولد بباب اسماعيل وكان شاعر الأمير وله قصص تروى حين نثر الذهب أمامه على البساط .

وكذلك جيته عاش فى كنف أمير فيمار ، وأن أتاحت له رعايته المبسوطة أن ينتج وينشىء ويبدع فنونا من الأدب والشعر والقصة ، إلا أنه يظل دائما أقل فى ميزان التقدير من الكتاب الذين بدأوا من السفح وعاشوا بسن أقلامهم ودون رعاية أحد ،

وكلاهما ولد هزيلا ضعيف الصحة ، ميئوساً منه ثم عاش من بعد ذلك وطال به العمر . وكلاهما كان شديد الإحساس سريع التأثر ، لا يتصل بالناس إلا قليلا . يحب الوحدة ويهوى الحياة الرخية المونقة ، ويملى آثاره على

وكلاهما أثرت الرحلة فى حياته أبعد الأثر ، فأوحت إليه وأمدته وضاعفت من إنتاجه . وقد تشابهت الرحلتان فى مظهرهما وأثرهما . كان جيته يحب قدماء اليونان . وكان شوقى يحب قدماء الغرب . وكان جيته يكبر حضارة الرومان واليونان وفنهما القديم . ويراها مصدراً وأثراً للثقافة الجديدة .

وقد أتيح له أن يسافر إلى إيطاليا وأن يعيش زمناً بين هذه الآثار . وقد

قيل إن رحلته هذه غيرت من نظراته إلى الأدب فى بعض قضاياه . وكذلك كان شوقى يذكر حضارة الأندلس وآثار قرطبة وغرناطة وقصر الحمراء والزهراء . ويراها من أبدع آثار الحضارة العربية. وقد أتيح له أن يرحل إلى الأندلس فيقيم بها خمسة أعوام . وقد أثرت رحلته هذه فى نظرته إلى الأدب فحولت اتجاهه فى الشعر .

وكما أحب جيته الروح الاغريقى القديم وجعله مصدر وحيه طوال حياته استمد شوقى إلهامه من الروح الاسلامى وأعجب به .

وأنشأ جيته الروايات التمثيليه والأغانى كما فعل شوقى .
وأحب شوقى الأساطير ورواها فى شعره كما فعل جيته .

وكما ترك جيته قصائد فى الحب غاية فى الروعة . ترك شوقى فى هذا الفن آثاراً خالدة .

أما جيته فقد نشأ فى محيط الشاعرية والجمال والفن وفتح عينه وذهنه على الحياة فى صورة الأشجار والغابات والأزهار والجبال العالية . وأمضى فترة شبابه الأولى متنقلا بين الأحراش . وقد ملأت نفسه الطبيعة الآسرة بالجمال

واندفع جيته يأخذ بأسباب الهوايات من رياضية وموسيقى وتصوير . فكان فارساً يحلو له أن يقضى سحابة يومه فوق جواده . يتنقل من غابة إلى أخرى . ومن جبل إلى جبل . وقد حمل معه قيثارته . فاذا ما أجهده الركوب نزل إلى شاطىء البحر فتخير ربوة عالية . فجلس إليها يتطلع فى الأفق البعيد ويتلقى وحى الجمال . وما يلبث أن يدق بأصابعه فيحيل الوجود الصامت نغما شاحبا .

وأحيانا يلقى بأداة الموسيقى بعيدا لأن قصيدة شعرية قد أخذت تتجمع أطرافها فى أعماقه ، وقد أثار البحر بموجه المصطخب كوامن النفس الشاعرة .

وفى فيار وجد الشاب جيته مجالا للأدب الشعر . فقد كانت القرية ساحرة حافلة بالزهور والشجر . وقد تجلت الطبيعة وأبدعت . وكان له بيت خلوى أنيق بين حدائق القرية ، تهل عليه نسائم الربيع . وروائح الزهر والبنفسج وتلفه هالة من السحر والجمال .

أما شوقى فقد ولد على ضفاف النيل حيث الطبيعة المصرية تهب الحياة والضياء .

وقد أمضى شبابه كصاحبه جيته بين الزهر والشجر والبحر ، يستوحى من جمال الطبيعة أبياته وقصائده ، فقد كان مغرما بالنيل يقضى أغلب أوقاته جالساً مع على شاطئه أو راكباً إحدى الزوارق التى تعبره .

وكان لرحلاته إلى فرنسا وإلى الجزائر وإلى الأندلس آثرها فى شعره . .
وجملة القول أن شوقى وجيته تشابها . فى كثير من مظاهر النبوغ والعبقرية وكان أبعدها أثراً أنهما برزا فى سن الشباب وكتبا اسميهما فى صفحة الخلود مبكرين ولم يزدهما ارتفاع السن إلا تقديراً فوق تقدير .

شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف ، بالرغم من أنهما عاشا فى عصر واحد كان أحدهما فى الطرف الأيمن والآخر فى الطرف الأيسر . كان على رمزاً على أخلاق النبوة ، بينما كان معاوية صورة للطبيعة البشرية .

اختلفا على الخلافة ، فكان على ينهزم فى أنصـــاره قبل خصومه ، لأنه لا يطمع فى الملك ، ولا يرغب الى الدس ، ولا يصيد فى الماء العكر ، ولا يلجأ إلى الحيلة ، وإنما يحب الاستقامة والصراحة والوضوح والنقاء .

وكان معاوية يصطنع كل وسيلة توصل إلى الغاية . ويرى أن كل أسلوب يحقق الغرض لا بأس من اتخاذه .

وقد ظل الصراع قوياً بين الحق والقوة ، وبين المثالية والانتهازيه حتى انتهى الأمر بانتصار معاوية .

قام ملك معاوية على الدهاء والحلم : فهزم علياً والحسين وتغلب على كل من وقف فى وجهه فى مكة أو المدينة أو الأمصار .

وكان « عمر » وهو الشديد العنيف ، يقف منه موقفاً وسطا فيقول له : لا آمرك ولا أنهاك .

واستطاع أن يستغل مقتل « عثمان » هذا الاستغلال العجيب فقوض به سلطان على ، وطلب إلى أنصاره رفع المصـــاحف على السيوف عندما تبين هزيمته فى صفين ، فتوقف أنصار على عن القتال وهم فى ذروة النصر ، ووقع الخلاف بين هؤلاء الأنصار ، واضطر فريق من أصحابه إلى أن يقبل التحكيم

وهو الخليفة الفعلى المبايع . وكان نتيجته أن عزله صاحبه . وثبت معاويه صاحبه .

واستطاع معاويه أن يرضى أهل المدينه ، فيصرفهم من الجد إلى اللهو ويغدق عليهم المال . فيدفعهم عن التفكير فى شئون السياسة أو أمور الخلافة وقد بلغ فى ذلك أن أعطى أهل « على » الذين حرمهم على . وصدق فيه قول القائل : « القلوب مع على والسيوف مع معاوية » .

وأوتى معاوية القدره على تأليف القلوب وكسب عطف الناس والاستماع منهم إلى أقسى ما يقال دون أن يضيق به أو يغضب .

ولقد وفد عليه أشراف قريش عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان ، فأكرم مثواهم وقضى حوائجهم . وسمع منهم قوارع الكلم ، وكان يداعبهم تارة ويتغافل عنهم تارة أخرى .

وكان دستوره « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى . ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً ، إذا مدوها خليتها . وإذا أرخوها شددتها » .

وهو يصرف الأمور على حد تعبيره « إنى لا أحول بين النـــاس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا » .

واستطاع أن يصل إلى قلوب الناس . ويدفع خطر العلويين بنشر حلق الوعاظ فى المساجد . على طول الدولة وعرضها . وتنكب أخطاء عثمان فلم يقع فيها . وبالرغم من أنه أفاض على أهله النعمة . فقد حرص على أن لا يولى أحد قرابته مصرا . أو يضعه موضعاً تقوم من حوله الفتنة .

واستطاع بذلك الخلق اللين اليقظ أن يقضى على المعـارضات ويؤلف القلوب ويقضى على ما فى النفوس من تارات وأحقاد .

وإذا لامه أحد على بذله المال للعلويين والهاشميين قال : إن الحرب لو وقعت لاستلزمت من النفقات أكثر من هذا العطاء .

وقد برع معاوية فى إيقاع أعوانه فى مشكلات لا تقوم بعدها لهم قائمة ، عرف بالقدرة على إثارة النفرة فى قلوب من يخشى اتفاقهم عليه .

* * *

أما على فكان يخاصم وفيه ورع ؛ ويحارب وفيه امتناع عن البغى . وكان ذا خلق رياضى يجعله ذا مروءة مع خصمه بعد المعركة . لم يبدأ أحداً بقتال ولم يجبه أحداً بخصومه .

محارب شجاع ، ولكنه يمزجها بالمروءة والوفاء ، وهو حاكم عادل . . ولكنه لا يؤمن بالمجاملة ولا التملق ولا شراء الذمم والضمائر . وهو فى كل أحواله يزن الأمور بميزان الإسلام .

فى معركة الجمل بعد أن انتصر على السيدة عائشة . حمها معززة مكرمه . وكانت من قبل تكرهه وتؤلب عليه .

ولى الخلافة وقد تعقدت الأمور وداخلت النفوس الأهواء . فحاول أن يسير على نهج الرسول وطريقة عمر . ولكن الناس كانوا قدخرجوا من نطاق المثالية فى عهد عثمان ففشل .

كان الصراع بينه وبين معاويه حول نزاهة الحكم وبين أسلوبين من أساليب كسب الناس هما : شراء الذمم بالمال أو كسب النفوس بالحق .

يؤمن معاوية بالسياسة وما فيها من كياسه ودهاء ومكر ومداورة . . ويتحرج « على » من أهوائها ومسالكها . وقد عبر « على » عن هذا المعنى بقوله : « والله ما معاويه بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » .

وكأنما كان بعض الناس خصوما من غير خصومه . لأنه بطبيعته العادلة

إنما يضيق بما أتيح لهم من ثروات كسبوها من غير حق . وكانوا يرون أنه محاسبهم عليها . أما معاوية فكان حريصاً على أن يكسب أكبر قدر من الأنصار بالمال . وقد أتيح له ذلك على خير وجه . أما على فكان أنصاره هم القراء والفقهاء وأصحاب الشريعة .

* * *

مزاجان مختلفان كل الاختلاف فى فهم الحياة وتصريف الأمور . يراها « على » لله خالصة مجردة من الأهواء والغايات لا مطمع فيها لطامع .
بهذا يؤمن . وعلى هذا يعامل الناس . والناس بعد ، إما متزمتون قد وقذهم الورع فهم لا يتصرفون إلا وهم مقيدون بالنصوص والسنن . فلا يسايرون الحياة . وإما أصحاب دنيا ومصالح . أما الفريق الأول فإنه أتعب عليا وسبب له من الأزمات والخلافات ما انتهى بالأمر معه إلى نهايته المعروفة . أما الفريق الثانى فقد لحق بمعاويه وعادى علياً . وهو عالم أنه يرغب الى الدنيا ومطامعها التى يجدها عند معاويه على الوجه الذى يرضاه .
ولذلك فما يكن من اليسير أن يلتقى على ومعاوية . والزمن الذى يتحول فى سرعة ينقل الناس من وضع إلى وضع . فاذا أراد « على » أن يرد الناس مرة أخرى بعد عهد عثمان إلى عهد عمر أعجزه ذلك . فاذا مضى معاوية على نفس الطريق وزادهم فيه لقى رضاء الناس وإجماعهم عليه .
كان « على » يمثل خلق النبوة بعد أن بعد عهد الناس بها وبعد أن فتحت الأمصار واستقرت الدولة . وتوقف الوحى . وبدأ المكافحون المحاربون يجنون ثمار الظفر . فكان اختلافه معهم اختلاف القائد الذى يريد أن يطبق أحكام عهد على عهد آخر .
ولكن « على » بعد هذا كله مثل من أعظم أمثلة الرجولة ورمز من أجل رموز البطولة . عاش حياته كلها للمثالية الخالصة ، لا يرتد عنها ولا ينحرف ولا يرى غيرها غاية من غاياته .

من احمد عرابى
الى جمال عبد الناصر

فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وقف (أحمد عرابى) فى ميدان عابدين ومعه جيش مصر وقدم للخديو توفيق مطالب الجيش والشعب . وظلت مصر تنتظر سبعين عاما حتى جاء جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليه ١٩٥٢ فحاصر قصر رأس التين وأملى على الملك مطالب الجيش والشعب . وهى تتلخص فى مطلب واحد هو أن يتنازل عن عرشه ويغادر البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم .

وبهذا أتم جمال « الرسالة » التى بدأها عرابى . والتى ظلت قائمة حتى تحققت فى ذلك اليوم . فبدأت مصر صفحة جديدة من تاريخها .

وكان القائد « أحمد عرابى » أول من وقف فى وجه حاكم ظالم هو الخديو توفيق ، وطالبه باسم الشعب بالإصلاح . وكان القائد جمال أول من خلع الحاكم الذى لم يكن هناك سبيل إلى إصلاحه أو مطالبته بالإصلاح .

وكان الجيش فى المرتين هو السهم الأخير الباقى . وهو أمل الشعب الذى تحدث باسمه وطالب بحقوقه .

وظل تاريخ عرابى خلال هذه الفترة الطويلة لا يكتب على وجه الانصاف وكانت هناك صحف ممنوعة من الكتابة عنه . وكان الاحتفال بذكراه مما لا يوافق عليه أهل الاختصاص . وكانت محطة الإذاعة المصرية لا تذيع اسمه ولا تذكر كذلك جمال الدين وعمر ومكرم .

وقال « عرابى » : إن مطالب الجيش هى مطالب الأمة . وقال جمال

إنه عزل الملك باسم الشعب . وكانت مصر عندما زحف عرابى بالجيش على عابدين أشبه بمصر عندما حاصر الجيش رأس التين وطلب إلى الملك توقيع التنازل عن العرش .

فى عهد عرابى كانت حفنة من الباشوات والحكام يتسلطون على كل شيء وفى عهد جمال كانت هناك طائفة من زعماء الأحزاب تسيطر على كل شيء . وتسلم للمالك بكل شيء . وتستغل نفوذها وتثرى من وراء المحسوبية والرشوة والصفقات . طالب عرابى بتأليف المجلس النيابى مع إسقاط وزارة رياض وطالب جمال بتطبيق الدستور وتطهير الأحزاب وأداة الحكم .

وعندما تقرأ مذكرات عرابى فى هذا المعنى تحس أنك تقرأ عن مصر سنه ١٩٥٢ . وهذا مثال منها : « ثم أخذت أنشر أفكارى بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان طالباً منهم مساعدتى على حفظ الأمن والراحة العمومية . حتى أتفرغ للنظر فى مطالب البلاد ويتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشى التى سقطت فيها مصر أو كادت بتفريط الحكومة فى حقوق الأمة وبيعها كثيراً من الأراضى للأجانب مع تعيين كثير منهم بالمرتبات الفادحة وسعيها فى رفع الأحجـــار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية وغير ذلك مما ينذر باوخم العواقب . ثم ثبت لنا أن سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن فاضح ومشاركة للحكومة فى التفريط فى وطننا العزيز وسبيل ذلك إسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيراً . وتشكيل مجلس نواب يعهد إليه فى الوصول بنا إلى الحرية المنشودة » .

ويختلف أحمد عرابى عن جمال فى طريقة الانقلاب . وفى أساليبه . أما عرابى فقد قام بدعوة الناس إلى أفكاره . ومن ثم تقاطرت عليه الوفود من جميع أنحاء البلاد تحمل مطالبها . ثم قام بحركته بعد ذلك . ويعد هذا فى نظر بعض المؤرخين سبباً من أسباب ما منيت به من فشل .

أما جمال فقد قام بحركته الحاسمة أولا فاستأصل رأس الأفعى ، ثم أخذ في الإصلاح فأيده الشعب جميعاً وأسلم إليه قياده .

ولذلك فان بقاء الحكومة في عهد عرابي مكن الطغاة من العمل على تفريق شمل هذه القوى المتجمعة سواء في الجيش أو في خارجه .

وأخذ الخديو في تنفيذ خطة قوامها تفريق وحدات الجيش ونقل الفرق الموالية للحزب العسكرى إلى العاصمة كي تستبدل بها فرق أخرى مواليه للخديو غير أن الضباط رفضوا الإذعان وامتنعوا عن مغادرة القلعة .

ثم اتفقت كلمتهم على أن يقوموا بالمظاهرة العسكرية أمام سراى عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ووضعوا لها خطة محكمة ، وهي حضور جميع الآلايات الجيش المرابطة في القاهرة إلى ميدان عابدين في أصيل ذلك اليوم لتقديم طلبات الأمة إلى الخديو ، وقوامها إسقاط الوزارة وتأليف المجلس النيابي وزيادة عدد الجيش .

وقد أرسل عرابي إلى وزير الحربية يعلنه بهذا الطلب ، كما أرسل إلى قناصل الدول يطمئنهم بأنه لا خوف على رعاياهم من هذه المظاهرة .

غير أن الخديو كان قد أسرع مع رياض باشا وخيرى باشا إلى القلعة لإقناع الآلاى الثالث بالعدول عن الاشتراك في الحركة .

واحتشد الجيش في الموعد المضروب في ميدان عابدين ، وجاء عرابي ممتطيا جواده شاهراً سيفه يقود آلاى العباسية ومعه المدافع بذخيرتها ، وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورطة المشاة أثناء السير .

غير أن عرابي لم يجد على بك فهمى رئيس الحرس . وأخبر بعض الضباط بأنه وزع آلاى الحرس داخل السرى ، فأرسل إليه ليستدعيه فحضر إليه ؛ فسأله عرابي عن السر في تفريق الحرس على أبواب السراى ومنافذها من

الداخل ، وكان الاتفاق على غير ذلك ، فطمأنه على فهمى بقوله : إن السياسة خداع .، وأنه باق على عهده .

غير أن عرابى أمره بأن يسحب آلايه من السراى ، وأن يأخذ مكانه فى الميدان ففعل

وبلغ عدد الجيش المحتشد فى الميدان أربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم ، ووقف الناس على أطراف الميدان وامتلأت النوافذ وسطوح المنازل بالناس كما سد الجيش المسالك ، وفزع الخديو عندما رأى حرسه الخاص وقد انصرف عنه فى هذه الساعة الرهيبة وانضم إلى الجيش .

ووفد على عابدين الوزراء وقناصل الدول والسير أوكلن كولفن مراقب المال الانجليزى .

ونزل الخديو من السراى إلى حيث رؤساء الجند ومعه المستر كوكن قنصل إنجلترا فى الاسكندرية وبعض عساكر الحرس الخاص ؛ فلما توسط الميدان نادى عرابى بجانبه راكبا جواده شاهراً سيفه وحوله ٣٠ ضابطا شاهرى السيوف ، فلما دنا من الخديو صاح به أحد رجال الحرس : أن ترجل واغمد سيفك ففعل ثم أقبل عليه .

وقال الخديو لمن حول عرابى : اغمدوا سيوفكم وعودوا إلى بلوكاتكم ، فلم يفعلوا وظلوا وقوفا فى أماكنهم .

ولما وقف عرابى أمام الخديو ، وحياه التحية العسكرية ، خاطبه بقوله : ما هى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟

قال عرابى : جئنا لنعرض طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة .

قال الخديو : وما هى هذه الطلبات ؟

قال عرابى : هى عزل رياض باشا وتشكيل مجلس النواب وإبلاغ عدد

الجيش إلى العدد المقرر فى الفرمانات السلطانية .

قال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد . وقد ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

قال عرابى : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولا عقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث بعد اليوم .

وهنا أشار المستر كوكن على الخديو بالرجوع إلى السراى فعاد ، وأخذ كوكن وكولفن يناقشان عرابى نيابة عن الخديو ، فقالا له : إن عزل الوزارة من اختصاص الخديو .

فقال عرابى : اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقه بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى ينفذبها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعه . أنظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

قال القنصل : تريد أن تنفذ أوامرك بالقوة ، إن هذا ينشأ عنه ضياع بلادكم

عرابى — كيف يكون ذلك ، ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوالنا الداخلية اعلم أننا سنقاوم لمن يتصدى لمعارضتنا أشد لمقاومة — وأين قوتكم ؟

عرابى — عند الاقتضاء نحشد مليوناً من العساكر يدافعون عن بلادهم يسمعون قولى ويطيعون إشارتى . — وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب؟

عرابى — أقول كلمة أخرى . — ما هى ؟

عرابى — لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط !!

وقد وعد الخديو بتحقيق مطالب أحمد عرابى ، ولكنه نكث عهده ، وعمل على طعنه من الخلف ، وحسب أنه بموت عرابى أو قتله ينتهى ذلك الصراع بين الظلم والعدل .

ولكن سبعين عاما كانت كافية لأن يعود الجيش مرة أخرى إلى علاج نفس المشكلة القديمة بأسلوب جديد، فلا يتورط فى مطالبة الملك، ويقنع بالوعود، بل يعمل أولا على تطهير البلاد من رأس الفساد، ومن الملك الظالم يأخذ بعد ذلك فى تنفيذ سياسة التطهير الشامل عن طريق الحكومة.

أما جمال عبد الناصر فقد حرص ألا يقع فى خطأ يشوه عظمة الحركة التى قام بها. فاتخذ أسلوبا جديدا فى توجيه سياسة البلاد عنوانه القوة. وقوامه الوضوح. وقاعدته العدالة. واستطاع بضربات قليلة أن يقضى على الإقطاع وسيطرة رأس المال. وفلول الرجعية. كما حقق الجلاء الناجز. والإصلاح الزراعى والسد العالى ودعم الروابط بين جوانب الأمة العربية الموحدة.

وكانت ثورة ٢٣ يوليو بفضل النظام والعقل، أعظم حركة ثورية فى التاريخ المصرى، فهى الحركة الأولى التى لم ترق فيها قطرة دم واحدة.

ففى صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الباكر استمع الناس عن طريق الإذاعة إلى صيحة هزت القلوب. صيحة جديدة نفضت الغبار عن الحياة السياسية المصرية وفتحت الآفاق لفجر مشرق من صفحة جديدة فى حياة مصر.

كان هذا الصوت يحمل النداء الأول للعهد الجديد. فقد تحرك جمال عبد الناصر وإخوانه منذ الساعة الواحدة من ذلك الصباح فسيطروا على الجيش وأعلنوا أولى حركات التطهير فى محيط الحياة المصرية الذى كان قد وصل إلى أبعد حدود الركود والاضطراب والفساد.

واستقبل الناس الثورة الجديدة بالتأييد، وتجاوب الشعب مع الحركة، فكان هذا التجاوب هو الحجر الأول فى الخطة القوية النافذة التى أسفرت يوم ٢٦ يوليو عن محاصرة قصر الملك فى رأس التين وتوجيه الإنذار اليه بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد فى نفس اليوم.

وهى خطة حاسمة يتبين منها مدى الفرق بين تصرف جمال عبد الناصر وأحمد عرابى . وبلا شك نتيجة الخبرة والدراية الطويلة ومراجعة أحداث التاريخ ، وهى فى نفس الوقت رد اعتبار لثورة عرابى وتكميل لحلقة الأولى التى بدأت فى عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ .

وأبرز ما فى خطة الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الحسم والبتر ، فلم يكن جمال عبد الناصر فى حاجة إلى أن يطلب طلبات من الملك كما طلب عرابى بحسن نية ظناً منه أن الخديو سيستجيب له . وإنما كانت العملية الأولى فى ثورة جمال عبد الناصر وإخوانه هى قطع رأس الأفعى أولا وتخليص البلاد من الملك . ولم تعد هذه الخطوة التى كانت فى ذلك اليوم عملا ضخما — لم تعد بعد إلا بداية لخطة أكبر وعمل أعظم واتجاه ضخم : حقق إلغاء الملكية كلية ، وإعلان الجمهورية ، وإلغاء الدستور الذى كان منحة من الملك ، وإلغاء الإقطاع الذى كان قوام عهد الملكية البائد ، وإلغاء الأحزاب التى كانت وسيلة الطغيان والتسلط .

وقضت الثورة على صنائع الاستعمار فتحقق عمل أكبر قوة وأعظم أثراً فى تاريخ مصر الحديث كله ، ذلك هو انتهاء الاحتلال لمصر وموت الاستعمار وقد تم هذا بخروج آخر جندى بريطانى فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٥٦ . وبذلك حقق جمال عبد الناصر بثورته عدة أعمال ضخمة بارزة الخطورة فى كيان الوطن كله ، وجاءت بعد هذه الخطوة الثالثة وهى إعلان الدستور واستفتاء رئاسة الجمهورية وانتخاب مجلس الأمة . وبذلك استطاع جمال عبد الناصر فى خلال أربع سنوات أن يغير وجه الحياة المصرية تغييراً كاملا وأن يوجه التاريخ فى الشرق كله وجهة جديدة .

فاذا ذكرنا إلى جوار ذلك تلك الخطوات الإيجابية الضخمة فى الإصلاح والبناء والإنشاء والتعمير لرأينا إلى أى مدى أمكن لثورة ١٩٥٢ أن تنشىء

مصر الحديثة التى حققت فى سنوات ما عجزت عن تحقيقه فى قرن من الزمان .

وبعد : فهناك تشابه بين عرابى وجمال فكلاهما رجل مسلم مؤمن متدين ، صادق الوطنية . وكلاهما خطيب . وكلاهما شخصية جذابة تؤثر فيمن حولها . كان يوم (٩ سبتمبر ١٨٨١) يوماً حاسماً بدأت به معركة تحرير مصر من الظلم والرشوة والمحسوبية والاستبداد . وفى يوم (٢٣ يوليه ١٩٥٢) نجحت هذه المعركة ووصلت إلى الذروة عندما عزلت الملك السابق ، وفتحت صفحه جديدة فى تاريخ مصر .

وحقق جمال عبد الناصر الرسالة التى دعا إليها عرابى ، وتم فى «رأس التين» الأمر الخطير الذى بدأ فى « عابدين » منذ سبعين عاما .

الحسن الصباح و نظام الملك

جمعهما العلم والشباب فى مطلع العمر ، فى نيسابور ، وفرق بينهما الصراع على السلطان ، بعد ارتفاع السن ، فى بغداد . و بعد أن كانا صديقين حميمين أصبحا عدوين تصل بينهما العداوة إلى حد أن يحطم الصباح دولة السلاجقة ليسحق صاحبه نظام الملك . وقد كان !

كانوا ثلاثة . تلقوا العلم فى نيسابور . وجمعت بينهم رابطة الصداقة والألفة هم الحسن الصباح وعمر الخيام و نظام الملك . وقد وصلت بهم علائق المودة أن تعاهدوا على أن من يتولى الوزارة منهم يقرب رفيقيه إليه . ويرفع من شأنهما . وكان « الحسن » هو الذى اقترح هذا الرأى .

ومن هذه النقطة بالذات تبدأ القصة التى كانت بعيدة الأثر فى تاريخ العالم الإسلامى كله . قصة الدور الذى لعبه الحسن الصباح ليمزق دولة على رأسها زميل الصبا : نظام الملك .

مرت الأيام . ومضى كل من الثلاثة فى طريقه . وفجأة قفز نظام الملك إلى منصب وزير السلطان ألب أرسلان عميد السلاجقة .

وذكر عمر الخيام العهد القديم فمضى إلى زميله ، يذكره ويهنئه . فاستجاب له وخصص له منحة مالية . رآها الخيام كافية لقضاء مطالبه ومعاشه . وكانت ستمائة دينار فى كل شهر . فعاد إلى نيسابور . وعكف على التأليف ونظم الشعر

وقصد « حسن الصباح » أخيراً بعد أن امتطار اسم صاحبه إلى نيسابور حيث لقى الوزير الذى ذكر العهد القديم . وقرب زميل جامعة نيسابور وولاه رئاسة ديوان الجباية والخراج .

* * *

وكان مركز الوزير « نظام الملك » قد علا واسمه قد تألق ، وتحدث الناس عن مكانته الفذة فى الدولة . ومشروعاته الضخمه ، وإعجاب السلطان به وتسليم الأمور إليه . وكان نظام الملك يحيط نفسه بهالة من العلمـــاء ورجال الدين والفلسفه ويقربهم ويوسع فى العطاء لهم ، فكانوا ألسنة تفيض بمدحه وتقديره وتذيع اسمه مقروناً بعبارات العدل والذكاء والعظمه فى كل مكان .

وتزوج نظام الملك من ابنة ملك ا هو ملك أرمنيه ، وكان حفل زواجه من الأحفال التى وصفها كتاب ألف ليلة وليلة ، وتحدث الناس عنها سنوات وسنوات . هكذا كان « نظام الملك » فى الوقت الذى اتصل به «حسن الصباح» الذى ظل مركزه يعلو ويعظم حتى أصبح من حقه حضور اجتماعات مجلس الوزراء التى كانت تعقد برئاسة السلطان . وبدأ الحسن يلفت نظر السلطان إليه ويتقرب منه ، وأزعج ذلك نظام الملك . فقد كان يعلم فى الحسن الذكاء والطموح ، واستطاع الصباح بعد غزوات موفقة أن يكسب ثقة السلطان فيكل إليه أمر المراجعات فى الأعمال الماليه وكان عارفا بالحساب مجيداً لفنونه .

وهنا تنبه نظام الملك وأحس بأن صاحبه يكاد يطغى على مكانته أو ينافسه ورأى أنه يزحف إلى المجد بخطى واسعه . ومن ثم بدأ نضال خفى بين الرجلين وأراد نظام الملك أن يزيح الصباح من طريقه . فعرض عليه أن ينضم إلى الجيش باعتباره الطريق السريع الذى يحقق آماله فرفض .

واستمر حسن الصباح فى توثيق علاقاته بالسلطان الذى أعجب به ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد مات السلطان وتولى الملك ابنه الب أرسلان .

وكان نظام الملك قد بذل جهوداً ضخمه فى تمكينه من الوصول إلى العرش وأعانه عليه ، لحفظ له هذه اليد واستبقاه وزيره الأول ؛ وأسماه الوزير الأكبر ، وكان قد أمضى فى الوزارة ثلاثين عاما . وفى العهد الجديد أصبح لنظام الملك تصريف كل شىء ، ورضى السلطان الشاب أن يطلق يد وزيره الأول

الذى عرف بالبصر النافذ والهيبة ، وحسن تصريف الأمور والذى رفع اسم الدولة السلجوقية . وأصبح الحسن الصباح وزيراً للعهد الجديد ، ولكنه كان يحس أن نظام الملك يغار منه ويخشاه ، وأنه يترقب الفرصه المناسبه لكى يزيحه من طريقه ، فأخذ الحذر . ولكن ملكشاه بدأ يتدخل فى أدق أمور الدولة ، فكان يناقش الوزراء بنفسه ، ويستدعيهم لمقابلته وذات مرة سأل وزيره الأكبر نظام الملك عن الوقت الذى يحتاجه لتنظيم دفتر جامع لأبواب الميزانية فى الدولة . وقال نظام الملك : إن ذلك يمكن أن يتم فى عامين .

وكان الحسن موجوداً ، فتدخل فى الحديث ، وقال : بمقدورى يا مولاى أن أنظم دفترا بميزانية الدولة خلال أربعين يوما . وامتقع وجه نظام الملك وسر السلطان ، وأذن له فى أن يبدأ العمل . وأحس نظام الملك أن الخطر قد اقترب وأصبح وشيكا أن يقتلعه من من مكانه لو تم هذا الأمر . وكان نظام الملك يعتقد أنه يستطيع ! وسرعان ما اتجه خاطره إلى حيلة ماكرة . إلى مؤامرة ينسف بها مركز الصباح وعمله .

دعا من يثق به من غلمانه ، وقال له رافق الحسن الصباح واتخذه صديقاً ، واذهب به إلى محال اللهو والعبث فاذا وثق بك أخبرنى .

وفعل الخادم وتوثقت الصلة . وكان الحسن الصباح قد أخذ يعد الميزانيه فى صحائف متفرقه غير متلاصقه ، على رأس كل صحيفة رقم ، وفى داخلها حساب مختلف الولايات .

وقال نظام الملك لغلامه : اجعل صديقك يمكنك من دفتر الحسن ، وأن يقلبه رأساً على عقب ويخلط أوله فى آخره .

وفعل الغلام . وجاءت الساعة المقررة ، ودخل الحسن على السلطان وأخبره بأنه فرغ من عمله . وهنا طلب السلطان حساب إحدى الولايات ؛ فد يده إلى موضع رقم الولاية وسحب ورقتها فلم يجد ما يطلبه . وأخرج ثانية وثالثه ورابعه دون جدوى . وهنا تجهم السلطان وبان فى وجهه الغضب . واغتنم

نظام الملك الفرصة فتقدم نحو ملكشاه وقال : إن كان مولانا لا يثق بالأكفاء من رجاله ويعهد بالمهمات إلى مثل هذا المجنون فإنه لا يلاقى إلا تدجيلا !

فانتهره وأمر بالقبض على الوزير ، وهرب الحسن إلى الرى وقد خسر كل شيء ! ترى هل انتهت القصة إلى هذا الحد ؟

الواقع أن هذه هى مقدمة القصة ، وأنه فى هذه اللحظة بدأت صفحة دامية من الصراع العنيف بين رجل هو الحسن الصباح وبين دولة كاملة هى الدولة السلجوقية .

وبدأ التاريخ يسجل صفحة من أسود صفحات الانتقام والقتل السياسى فقد انضم الحسن إلى الإسماعيلية وسرعان ما برز فيها وتألق .

وسافر إلى مصر وسوريا والعراق واتصل بالدعاة فيهـــا ، ووصل إلى أصفهان ودعا لنذار ابن المنتصر .

وكان يرمى بذلك إلى تقويض ملك ملكشاه ، وإنهاء سلطان نظام الملك ومن ثم بدأ هذه الحركة القوية الضخمة ، التى هزت العالم الإسلامى واستمرت طويلا . وكانت حركة انتقام عنيفة مصدرها ذلك الصراع بين نظام الملك ، والحسن الصباح .

وبعد تسع سنوات اقتحم الحسن قلعة الموت ، واستولى عليها ، وكانت بالقرب من قزوين ، واضطرب السلطان ووزيره الأكبر وحكومته . ووقع الخلاف بين ملكشاه ونظام الملك ! ووقع فى روع السلطان تسلط وزيره وأهله وقال الوزير للسلطان إنه هو الذى وطد له أكناف الملك ، وأنه إذا تركه تداعى وانهار .

وأرسل السلطان بأمر وزيره ومشورته قوة ضخمة لمحاربة الحسن الصباح ولم تعد القوة فقد مزقها رجاله . وجاء الوقت الذى رآه الحسن الصباح مناسباً عندما دس لنظام الملك فتى من الفدائيين فاغتاله فى شهر رمضان وقبض على القـاتل واعترف بأنه قد أدى واجبه ونجح فى عمله وأنه فعل بأمر شيخ الجبل «الحسن الصباح»

سافونارولا وراسبوتين

هذا رجلان من رجال الدين ، نشآ راهبين ، استقبل كل منهما الحياة فى أول شبابه استقبالا فيه شيء غير قليل من الروحيه المنقبضة عن المجتمع العازفة عن مباهجه وأفراحه ، المتطلعة فى زهد إلى حياة أخرى أكثر نقاءاً وسماحة وبراً ، إلى الحياة الأخرى الحافلة بمباهج النعيم المقيم .

فكيف يأتى بعد ذلك أن يتحول أحدهما هذا التحول المفاجيء من النقيض إلى النقيض فيذهب إلى آخر الشوط فى التحرر من كل قيد والجرى وراء كل لذة وألعب من رحيق الحياة على وضع حاد وأسلوب جارف ، قلما عرف فى أمثاله من الزهاد والمتصوفه والرهبان .

ويجرى الآخر على نسق عجيب غريب يبهر الناس ، فيسموا على المطامع وعلى الأوضاع الجارية وعلى العرف والتقاليد . فيدعو إلى حركة تطهير نفسى وروحى واسعة النطاق . وينقل الناس بسحر بيانه وجلال شخصيته وباهر ايمانه بفكرته من حال إلى حال وينقل المجتمع من وضع الى وضع . . فتصبح فلورنسا بعد شهور قليلة من دعوته المدينة الفاضلة والطوبى التى رسمتها الأديان وجهد الأنبياء فى أن يحققوها على الأرض .

ويدأ أن الأغنياء والتجار قد ضاقوا ذرعا بالراهب الجرىء . فقد حطم مكانهم فى المجتمع ، وأكسد تجارتهم . ومن هنا جاءت الثغرة التى أدت إلى وقوع الخلاف بينه و بين البابا اسكندر السادس .

فقد ظن سافونارولا أن الأمور قد أسلمت مقاليدها اليه فلم يتحوط من مفاجئات المتآمرين ، وكان البابا قد بدأ يحس خطر سافونارولا على مركزه

البابوى ، ولم يجر الراهب المجدد مجرى اللباقه التى يتطلبها نجاح دعوته فلايدع الصلة بينه وبين البابا تفسد ، وينتهى الأمر بأن ينصر خصومه ويأمر بمنعه من الوعظ للناس . أما راسبوتين وقد نشأ فى نفس البيئة الكهنوتية الرهبانية مع اختلاف المكان فقد غدا خطراً داهما ، وتحول تحولا عجيباً عن طبيعة عمله وبيئته ، فاصبح يتحكم فى روسيا القيصرية ويضع فى يده مقاليد أمورها جميعا ثم يطلق لشهواته العنان الى حد مفرط ، أصبح مضرب المثل على هذا الاتجاه

كان الراهب الغريب يقضى ليله بين الخمر والنساء حتى مطلع الفجر وكانت نساء روسيا يتهافتن عليه ، وكان هو شغوفا بالنساء لا يتقيد معهن بأى تقليد ويعطى نفسه فى اجتماعاتهن حرية واسعة للعبث والمجون .

وكانت نبيلات روسيا يقمن له حفلات تكريم يحضرها رجل واحد ، هو راسبوتين ويتناول طعامه ويغمس أظافره الطويلة القذرة فى طبق طعامه ويأكل بنهم ، بينما تعزف فرقة موسيقى الغجر موسيقاها العاصفة .

كلا الرجلين نشأ فى بيئة القساوسة والرهبان . هذه البيئة التى تفرض على الذين تنتظمهم أنماطاً خاصة من الملبس والزى . وترسم لهم طريقاً خاصاً من الحياة والتفكير ، وتجعلهم دائما فى نظر الناس موضع التقديس والإعزاز ، وملتمس العظة والحكمة ومورد الاعتراف والافضاء . . فاذا سافونارولا يسمو على هذه البيئة فلا يقتصر على أن يكون دوره فيها أن يجىء الناس يتمسون عنده البركة أو يسألونه فى شئون دينهم ، بل أن يكون هو رائد حركة واسعة النطاق لتطهير النفوس والعودة الى الفضيلة وتحريم الخمر والربا والزنا ومختلف الآثام . . كان يدعو الناس الى ذلك فى أسلوب جهير وعبارة أخاذة . . وقد أعانه على رسالته سماحة خلقه ، وجمال سمته ، فسرعان ما استجاب الناس له . واستولى على العقول والقلوب فكان لا يتحدث الا والناس يستمعون له وهم يذرفون الدمع .

وظلت دعوة سافونارولا تمتد وتقوى ، حتى عدا حاكم فلورنسا الحقيق الذى يختبىء خلف الحكام الرسميين ؛ هؤلاء الحكام الذين يأتمرون بأمره ويصدرون عن رأيه .

وأخذ الناس فعلا فى الاستجابة إلى سافونارولا ، فنبذوا الترف وانقادوا إلى الفضيلة . وتحول المجتمع الفلورنسى إلى قرية من قرى الجنه . غير أن الأمر لم يكن ليسير طويلا على هدى « سافونارولا » بعد أن أخذ وعاظ الكنيسة يضيقون بهذا الاتجاه الجديد الذى أضعف مكانتهم وأوقد الحقد فى نفوسهم عندما تبينوا أن راهب دير سان ماركو قد أخذ عليهم الطريق ، وسد عليهم منافذ الانتفاع ، وأغلق فى وجوههم أبواب العظماء الذين كانوا يقصدونهم ويعيشون على خيرهم .

يمتاز راسبوتين بقامة طويلة ووجه ناحل ، وعينان تلمعان فى حدة فيهما قوة خارقه ولحيه مشعثة . هذا الى ملابس غير مرتبه . وكانت النساء يلتففن حوله فى إعجاب بشخصيته ، وكان محباً للخمر إلى درجة عجيبه . وكان يسرف فى شربها ، وينفق ليله على هذا الوضع العجيب فاذا أصبح قبض على عنق روسيا بيد من حديد وحكمها بالإرهاب والخرافات وتحكم فى القيصر نفسه ، وتلاعب بالشعب باسم الدين .

* * *

ما أبعد الاختلاف بين الشخصيتين بل ما أبعد التناقض ، كان سافونارولا يدعو الناس إلى الخير والفضيلة ، فرفعه الناس إلى مقام الحكم والسلطان وكان راسبوتين يتخذ الدين وسيلة إلى خداع الناس والتسلط عليهم ثم يطلق لشهواته العنان فى عنف .

كان سافونارولا تقى النفس ، صدقته طبيعية . فانصرف عن « الرهبنه »

التي تقف عند حدود الاعتكاف والتصوف . واندفع يدعوا الناس إلى الخير والدين ويراهما غاية أهدافه . أما راسبوتين فقد عقته طبيعته . وانتقل من الضد إلى الضد . ومن النقاء والصفاء والإيمان . إلى الحقد على الدنيا والإسراف في اللذات وخداع الجماهير واستغلال مظهر الدين في الوصول إلى أقصى مايرجو من رغبات .

كان سافونارولا مثالياً عاليا على فساد بيئته فعمل على إصلاحها وتنقيتها وكان راسبوتين انتهازيا يتخذ من فساد البيئة وسيلة إلى مطامعه الخاصة .

محمد فريد ومتزيني

تشابهت حياتهما والتقيا فى كل شىء حتى الموت . فقد أخرج خصوم الحرية ودعاة الاستبداد كل منهما من وطنه غريبا مهاجرا مشردا . وترك كل منهما وراءه كل شىء . غير نادم ولا طامع فى غير حرية بلاده . ولم يضعف الاغتراب من قوتهما أو يفل من حدهما . ولم يذهب بايمانهما بحق وطنهما . بل لعل الهجرة والبعد عن الأهل والوطن قد زاد كل منهما جلداً وقوة وثقة بالمبادىء التى آمن بها فظل ينتقل من أرض إلى أرض ومن وطن إلى وطن إلى وطن . وهو ينادى بحق بلاده فى الحرية ويدعو لها أينما ذهب . لا يثنيه شىء . ولا يرده أمر . ولا يحول بينه وبين الجهر بها حائل .

وما يبالى أحدهما إذ ذاك كيف يعيش أهله . ولا يسأل كيف يعيش هو ! وقد يمر عليه اليوم لا يتبلغ إلا بالقليل من الزاد وقد يبيت على الطوى . وقد يعمل فى الحرفة التى لا تناسب مكانه أو اسمه . ولكنه لا يبالى ذلك ولا ينفر منه .

وقد يتصل به هذا أو ذاك من خصوم بلده فيطلبون إليه أن يقول كلمة واحدة يعود بعدها إلى وطنه معززاً مكرما . ولكنه يأبى أن يقول أى كلمة يكسب بها هو ويخسر بها وطنه .

واستقبل كل منهما خريف حياته مريضا . ولكن أحداً منهما لم يلن ولم يضعف ، يدب فى جسم الداء ويضعف عن المقاومة ولكن روحه تظل قوية حساسه . ثم يموت كل منهما وليس من حوله أحد . ويدفن فى أرض الغربه ثم يحمل بعد ذلك إلى أرض وطنه ليستقر فيها .

كذلك تشابهت حياة متزينى ومحمد فريد فى كل شىء . فقد بدا كل منهما حياته محاميا .

وكان كل منهما غنيا موفور الرزق والمال . ودافع كل منهما عن الفقراء ووقف فى صفهم . وبذل الجهد فى درس قضاياهم واستخلاص حقهم .

وسجن كل منهما فى سبيل إيمانه بحق وطنه فى الحريه . وكان كل منهما فى سجنه محبوبا من حراسه ومن يعيش معه . فكان فى كل من إيطاليا ومصر تغير الحكومة حراس الرحلين ولا تطيل مدد خدمتهم معه خشية عليهم من سلطان شخصيته وسحر حديثه .

وقد دعا كل منهما إلى الحرية والوحدة . وفتح كل منهما لأبناء وطنه باب المطالبة بالحق المسلوب .

دعا متزينى إلى الحرية وإلى وحدة إيطاليا . ودعا فريد الى الجلاء والى الدستور . أما متزينى فقد خيرته حكومته بين المنفى أو الإقامه فى بلدة صغيرة على الحدود . فاختار النفى وقصد الى باريس فاقام فيها حتى اضطرته حكومتها الى الخروج فقصد الى سويسرا ثم الى انجلترا وفى خلال حياة الاغتراب الطويلة لم يسكن يوما . أو يستقر . دون أن يخطب أو يناقش حق بلاده . فى الحريه والوحدة .

أما محمد فريد فقد وقف فى وجه الطغاة . ودعا الأمة الى المطالبة بالدستور حتى يحد من استبداد الخديو وسلطان الخديو وسلطان الحاكم وخشى عليه اخوانه من الاعتقال والمحاكمه فنصحوه بالهجرة . فسافر الى تركيا وأمضى بها سنوات عدة يدعو لمصر ويطالب بحريتها وحقوقها . ثم سافر الى ألمانيا وتنقل بين بروكسل وبرلين وباريس داعيا لمصر . عاقداً المؤتمرات والاجتماعات

وفى مصر بذل محمد فريد ماله كله فخرج فقيرا معدما . وفى الغربة بذل

محمد فريد صحته حتى بلغ حافة الموت . ولكن روحه ظل قويا متوهجا .

وعاش فريد فى منفاه حتى أضرمت الثورة فى مصر سنة ١٩١٩ وأشادت الصحف بالوطن الذى استيقظ ليطالب بحقه . ونسيت مع الأسف هذا البطل المغترب الذى أشعل بذور الثورة فى نفوس أبناء الشعب .

وكذلك عاش متزينى فى منفاه وهو يسمع أبناء وطنه يثورون فى سبيل الوحدة ويحققون الخطوة الأولى للدعوة التى دعاها ذلك المجاهد المبعد .

وكذلك كتب الله لفريد ومتزينى خطا متشابهة فى الحياة والموت . وفى الجهاد والاستشهاد .

وقد كان كل من متزينى ومحمد فريد ساحر الشخصيه ، حدوبا أنيسا يحبه كل من يأنس اليه حبا كبيراً . كانت الكتابة أداة كل منهما فى سبيل بعث روح الثورة فى أبناء وطنه . وكان كل منهما عظيما فى نظر أصدقائه وخصومه على السواء .

الغدر البريطانى أمام محكمة التاريخ

جان دارك ونابليون

الباخرة « نورثمبرلند » فى ١٧ أغسطس ١٨١٥ .

« أحتج أمام الله والناس على الظلم الصارخ الواقع بى ، وعلى امتهان حقوقى المقدسة ، أنا نابليون بونابرت الذى عمدت الحكومة البريطانية معى إلى وسائل ينكرها العرف والشرف للاستيلاء على شخصى ، والحد من حريتى ، مع كونى لست سجيناً ولا أسير حرب ، إنما أنا ضيف إنجلترا ، وفدت إليها بمحض إرادتى وعملا بنصيحة أسدتها إلى بلسان أحد قباطينها ، وأبلغتنى معها حسن استعدادها لإكرام وفادتى وقبولى مع حاشيتى ضيوفا لديها . لقد وثقت بهذا الوعد ، وجئت لأضع نفسى فى أرض إنجليزية بمجرد ركوب السفينة « بلبروفون » .

فاذا كانت الحكومة البريطانية قد أوعزت إلى قبطانها أن يبلغنى ما أبلغنيه وهى تضمر الإيقاع بى فقد انحرفت عن مبـــادىء الشرف ، وأهانت الراية البريطانية أشد الإهانة ، وإذا تنفذ هذا الظلم وأصبح أمراً واقعاً ، فمن العبث أن يتحدث الإنجليز بعد اليوم عن شرفهم وسماحة قوانينهم وعن تقديسهم لمبادىء العدل والحرية . لأن الكرامة البريطانيه والشرف البريطانى قد عدما فى هذا الغدر وتلاشيا فيه ، وإنى أضع مسألتى أمام التاريخ واثقا من أنه سيحكم بأنى — وأنا عدو إنجلترا منذ عشرين سنه — قد لجأت إليها طالبا حمايتها ومعتمداً على شرفها وكرامتها فكان جوابها على هذه الثقة أن تظاهرت بمد يد الضيافه إلى . فلما مددت اليها يد القبول قضت على حريتى وشخصيتى ومستقبلى » .

هذا ما كتبه نابليون بونابرت ، وهو فى طريقه إلى سانت هيلانه وهو فى أبلغ من كل كلام يقال عن غدر بريطانيا التقليدى الذى لم يكن أول من كشف عنه نابليون اللثام منذ قرن ونصف قرن .

هذا بطل مناضل ، قضى عليه حظه العسكرى أن يهزم فى معركة واترلو بعد أن بذل أقصى الجهد فى سبيل التفوق .. وقد رضى بعد الهزيمه أن يتنازل عن العرش حتى لا يثير حرباً اهلية ، وقد نصحه صفوة أنصاره ورجاله وأصدقائه بأن يضرب الحكومة المؤقته ويستأنف الحرب ويعود إلى السيطرة على الموقف ، غير أنه آثر أن يعتزل الحياة العامه وقبل التضحيه فى سبيل بلاده وتسهيلا للمفاوضات .

وأخذ يعد العدة للسفر إلى أمريكا ، وتظاهرت الحكومة بالاتفاق مع بريطانيا بالموافقه على سفره ، وأعدت له سفينه مسلحه .. ثم استبقته عدة أيام ، وهنا شعر نابليون أن فى الأمر شيئا ، وبدأ يفاوض إنجلترا فى الأمر وقد حاول القنصل الانجليزى إقناعه بأنه لو لجأ إلى بريطانيا لوجد منها كل مظاهر الإجلال والرعاية . وأكد القنصل لنابليون أن إنجلترا هى بلد الشرف والعدل والحريه ، وأنها لا تنحرف عن خلقها التقليدى ، وأنها لن تسلك مسلكا عدوانياً ضد من ألقى سلاحه .. وأخيراً ، قبل الامبراطور الضيافة الإنجليزية .

وكتب نابليون إلى الأمير الوصى على عرش بريطانيا يقول : « أما وقد ألفيت نفسى أمام الخلافات الداخليه الراغبة إلى تقسيم بلادى ، وأمام عداوة الدول الاوربيه العظمى المتألبة على ، فقد قررت إنهاء حياتى للعسكرية واعتزال كل ما يتصل بالحياة العامه ، لذلك رأيت أن أجىء إلى إنجلترا لأعيش فى وسط الشعب الإنجليزى واضعاً نفسى تحت حماية قوانينه الحرة ، تلك الحماية التى أنشدها من سموكم بصفتكم أقوى أعدائى وأقدمهم خصومه وأكرمهم نفساً » .

وفى الصباح ركب « نابليون » السفينة « بليرفون » وقال لقبطانها الانجليزى : « إنى أركب سفينتك لأضع نفسى تحت حماية القوانين الانجليزية عالما بأن الشعب الانجليزى سيقدر هذه الثقة التى يضعها فيه عدو قديم .

غير أن « الشرف البريطانى » الذى وصفه القنصل الانجليزى بأنه تقليد عريق ؛ قد تبخر وتلاشى .. بعد أن أسلم البطل الذى دوخ أوربا ربع قرن نفسه ، فانتفضت بريطانيا انتفاضة الغدر بالنسر المهيض . والأسد الجريح .

لقد بلغ الدهش منتهاه بنابليون عندما وصلت السفينة الى « بلايموث » وصعد اليها وزير وأميرال وأبلغاه قرار الحكومة بالقبض عليه ونفيه الى جزيرة القديسة هيلانه مدى الحياة . وهكذا كشفت بريطانيا عن صورة من الغدر لا يمكن أن تشبهها فى التاريخ العالمى صورة أخرى .. حقاً ، لو تمثل الغدر فى صورة حيه لما أمكن أن يكون أسوأ من هذه الصورة بالنسبة لرجل عظيم هزم ، ثم رفع يديه ، وسلم نفسه ، وقال : أعتبر نفسى ضيفاً على الشرف البريطانى ، واضعا نفسه تحت حماية الدولة التى تقدس مبادىء العدل والحريه.

ان نابليون لم يجد بعد ذلك بدأ من أن يرفع قضيته أمام التاريخ واثقا من أنه سيحكم له .

الحق أنه ليس « الشرف البريطانى » بل هو « الغدر البريطانى » رمز الدولة التى امتصت حياة الشعوب ، ونكلت بالأبطال والمجاهدين .

* * *

ولكن ، هل وقف هذا الغدر التقليدى عند نابليون وعند الأبطال والمجاهدين الرجال وحدهم ؟ كلا ، ان بريطانيا لم تمتنع عن العدوان على النساء ، على العذارى . على القديسه « جان دارك » هذه بطلة أخرى ، قل أن يكون لها مثيل فى تاريخ الجهاد والوطنية . . والاستماتة فى سبيل الحريه ، لقيت من لقيت من الغدر الانجليزى أبشع صوره .

عندما عجز الانجليز عن هزيمة جان دارك . وعندما أحسوا أنها قد أصبحت خطراً داهما عليهم .. لجأوا الى الحيلة والخداع والذهب . فاستطاعوا أسرها .

لقد حاولوا اغرائها وارهابها فلم يستطيعوا ، ولكنهم استطاعوا بالغدر أن يؤلبوا عليها رجال الدين فى الكنيسه بعد أن أعلنوا اتهامها بالهرطقة والزندقة والإلحاد .

وعقدت محكمة « انجليزية » لمحاكمتها . فهم المتهمون وهم القضاة . ووقفت « جان » تدافع عن نفسها فى حجج دامغه .. لقد رفضت حكم القضاة الانجليز وطلبت أن تحاكم أمام البابا .

ولم يمنع الغدر الانجليزى من أن يحكم على « جان » بالسجن المؤبد . ثم يعدل هذا السجن الى الاعدام حرقا .

لقد حرق الانجليز هذه البطلة المجاهدة التى قادت فرنسا الى النصر وعلمت الفرنسيين الكفاح من أجل الحرية .

ان محكمة التاريخ ستدين انجلترا وتوصمها بالغدر ، على مواقفها العديدة الآثمة فى تاريخها الطويل . وسيكون فى مقدمة صور هذا الغدر . موقفها من جان دارك ونابليون . . ؟